ناريسا

(ملحمة عشق ودماء)

ميرفت البلتاجي

ناريسا

ميرفت البلتاجي

الطبعة الأولى (أغسطس ٢٠١٦)

تصميم الغلاف: محمد مجدي يوسف

المراجعة اللغوية والتنسيق الداخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب فؤاد

رقم الإيداع: **2016/16775**

الترقيم الدولي: **978-977-6534-19-3**



Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

ناريسا

(ملحمة عشق ودماء)

(رواية)

ميرفت البلتاجي





♥ إهداء ♥

لك عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة

أهدي روايتي بكل حرف فيها

وكل إحساس سيترك أثرًا ما في قلوبكم

ناريسا ليست مجرد كلمات على ورق

من فضلك لا تقرأ بعينيك

افتح قلبك؛ فكل كلمة دفع أبطالها دماءهم ثمنًا لها

(ناريسا) مهداة لك أنت.

ميرفت البلتاجي

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

جلبه الصعيدي عاشج للبارود والفيي
جطعت طريجه صبية
دجت لعيونـها الربابة والني
جالت له في جلبك عشج لي يا خي
جالـها داري عني رموشك
لتـچـرح جلبي المصنوع من الطين والمي
من جبلك كنت مـچـبول على عشج التار والدم
ما تعشجي مني سوادي
ولا أعشج من بين عيونك نار وضي

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

۞ ١ ۞

«ثمة وقت في حياة الإنسان إذا انتفع به نال فوزًا ومجدًا، وإذا لم ينتهز الفرصة أصبحت حياته عديمة الفائدة وبائسة»
ـ وليام شكسبير

....

تحركت الأقدام بسرعة بين ردهات طويلة بيضاء، يدفعون أمامهم بقوة وسرعة ترولي مخصص لنقل المرضى... رقد جسده الضخم خائر القوى وأيدِ كثيرة تمتد في محاولات مضنية لوقف نزيف الدماء الذي لا يعرفون مصدره بعد... صرخة شقت الهمهمات الصاخبة:

«النبض بطيء جدًا!»

«اعملّه تدليك لعضلة القلب بسرعة... نيرس جهزي لي (١ملجم) أدرينالين بسرعة مع حقنة ليدوكايين!»

قفز أحد الأطباء فوق المريض بدون أن يتوقف الترولي.. وبكلتا يديه بدأ الضغط على عضلة القلب بالتناوب مع ضخ الأكسجين من خلال القناع الطبي فوق أنفه وفمه.... وباقي الفريق في سباق محموم مع الموت.

تركض جوار الترولي المسرع، عيناها متجمدتان على قسماته الجامدة الخالية من معالم الحياة... بقلب مخلوع ووجه حاكى الموتى شحوبًا نفذت من حنجرتها كل الصرخات... حتى أنفاسها عجزت عن التوقف لتقرر عنه الموت لو كان الاختيار بيدها... بكاء ونواح الفتاتين بجوارها لم يؤثر بها... فجأة وبدون إنذار اقتحم

الترولي بابًا أبيض مصمتًا إلا من نافذة زجاجية صغيرة ملطخة زادت من صعوبة الرؤيا من خلالها، لتقف عاجزة قليلة الحيلة لا تدري ما تفعل.

تمسكت الفتاتان بثيابها وصوت نشيجهما يمزق نياط القلوب... يَنشُدن الاطمئنان بأخبار لا تعرف لها سبيلًا.

أعادت النظر كالمجذوبة للباب الذي اختفى خلفه، ثم استدارت بقوة لدى سماعها ذلك الصوت الخشن القاسي:

«اخرسي وسدي خاشمك انتِ وهي... ضبي ساكتة لأفرغ فيكم البارودة!»

أحاطت صدرها اللاهث بذراعيها تحدق به بعينين أبت دموعهما أن تخفف احتراقهما...

ضاقت عيناه وهو يحدجها ببرود شديد.. ثم اندلعت شرارات الغضب بحدقتيه عندما وقعت نظراته على ذراعيها المكشوفين.... أخرج زفرة حارقة يغض البصر ويستغفر.. ثم خلع عباءته ووضعها على كتفيها:

«استري نفسك يا مرت أخوي»...

أمسكت العباءة تهم بدفعها عنها، فأحكم أطرافها حولها وعيناه تحذرانها من التصرف بتهور... ثم أشار للفتاتين تحاولان كتم نشيجهما بصعوبة: «اجعدي چار البنتة... وخودي بخاطرهم ولو صوت واحدة فيهم طلع هطلّع روحها من حلجها»...

أمسكت إحداهما بيدها متوسلة:

«الله يخليكي... تعالي چارنا »...

أطاعت توسلها البريء وجلست، تحدق بالباب الأبيض الكالح تكاد تتوسله أن يعيده إليها سالمًا...

حتى تمتمات الفتاتين بجوارها لم تسمع منها حرفًا؛ فقد سافرت في أحلامها، غائبة الوعي عن ما حولها فلم تسمع همساتهما.

« هَنا... يا ترى إحنا السبب في اللي بيحوصل ده؟؟»

«ليه بتقولي كده يا نجلا!؟»

«يعني لو مكناش عملنا اللي عملناه يمكن مكانش حوصل اللي حوصل»

« كله مقدّر ومكتوب... ادعي ربنا بس ياخد بيده»

«فاكرة يا هنا؟»

«أيوه فاكرة»

«وندمانة؟»

«وإيه يفيد الندم!؟»

«طب هم هيعملوا فينا إيه!؟»

رفعت رأسها خلسة فهالتها نظرة الشر التي يرمقها بها قريبها الغاضب.... أمسكت بيديّ رفيقتها ترتجف:

«مش عارفة... بس شكله ناوي على نية سودا»

«هو ميجدرش يعملنا حاجة... أهلنا هيجفوا له»

«وهم فين أهلنا.!؟ بصي حواليكي وشوفي»

«طب هنعملوا إيه؟؟؟»

«لو نقدر نرجع بالزمن لورا... نقدر يا نجلا؟؟؟»



منذ ثلاث سنوات

....

بيت خشبي مهجور... يحوم داخله صمت مريب... دارت عيناها حولها بترقب تحاول تهدئة ضربات قلبها... فجأة يتحرك الباب بصرير مزعج من مفصلاته القديمة الصدئة... ارتفع صدى نبضاتها حتى وصل لحلقها. وظل يقترب... ثم صرخة مرتعبة لتصيح بعدها بشعور عارم بالراحة:

« يا الله عليكي! انتي مش هتبطلي خصلتك دي!؟ دايمًا تتسحبي زي أم سحلول!؟»

«ومين أم سحلول دي!؟ شوفتيها قبل كده!؟»

«لأ.. بس هم بيقولوا كده... ما علينا خلينا في اللي إحنا فيه... جبتي الأسماء!؟»

مدت لها يدها بالورقة:

«أيوه كل الأسماء اللي حطوها كتبتها هنا... وانتي جبتي أسمائكو؟»

مدت لها يدها بورقة مماثلة:

«أهه شوفيها كده على ما أشوف ورقتك»

وانهمكت الفتاتان في قراءة الأسماء ثم نظرتا لبعضهما وهتفت نجلا:

«إيه رأيك؟؟»

أومأت هنا: «أعتقد إننا نعتمد الخطة اللي اتفقنا عليها (يا بخت من وفق راسين في الحلال)»

ضمت نجلا شفتيها: «امممم.. فكرك إكده؟»

«أومال يعني هنسيبهم يخبطوا في بعض!؟ أنا وانتي عارفين كل الأسماء اللي في الورقتين ونقدر نقول مين هينفع مع مين؟؟»

«امممممم عندك حق.. بس انتي لاحظتي إن اسم أختك مش مكتوب!؟»

هتفت هنا: «ولا أخوكي رافع كمان!»

«متنسيش أن رافع جاري فتحته على معالي من زمان»

«وكمان زينة أختي مخطوبة لدكتور من فرنسا»

تنهدت نجلا: «الحكاية كده مش هتنفع... الاتنين دول بالذات أصل المشكل ولازم يكونوا فيها»

«إزاي يا فالحة... لا أهلك ولا أهلي حطوا أسمائهم»

تألقت عينا نجلا بشيطانية: «وهو أحنا لازمتنا إيه في البلد دي... إحنا نحطوا أسمائهم وأنا شايفة أن زينة مناسبة أكتر من معالي لرافع... رافع طول عمره بيحلم بواحدة تخدمه وتخدم أهله، وتكون تحت طوعه يجولها يمين تجوله له حاضر... يجولها شمال تجول له أمرك»..

وقفت هنا مصدومة: «انتي بتتكلمي عن واحدة تانية خالص... انتي فهمتي زينة غلط... زينة مولودة هنا في الصعيد آه بس قضت معظم فترات دراستها في فرنسا وبقالها سنتين منزلتش الصعيد.. يعني مش هتنفع رافع خالص... دي مش بتعرف تسلق بيضة»

«وهو دا المطلوب يا مخبلة... انتي مش أخدتي في الفيزيا الأقطاب المتنافرة تتجاذب، والأقطاب المتشابهة تتنافر»

أومأت هنا بمحاولة لاستيعاب فكر صديقتها، فأردفت:

«خلاص... يوبجى كل واحد هيتجوز المضاد له... رافع يتجوز زينة»..

أومأت هنا مرة أخرى قائلة ببريق متألق من عينيها العسليتين: «وسيف ياخد.... امممممممم معالي»

صفقت نجلا بيديها قائلة: «وچاسر ياخد مين؟؟؟»

هتفت هنا: «سمحة طبعًا... لازم جاسر بالذات يتجوز واحدة تطلع منه القديم والجديد ومافيش غير سمحة»

ثم أردفت حانقة: «بس سمحة بتحب جاسر»

«أيوه وچاسر بيحب كل البنتة... أكيد سمحة هي الوحيدة اللي هتعرف تلمه»..

«كدة يبقى باقي اتنين... رجل من عندكم وبنت من عندنا»

فكرت نجلا لبرهة ثم تألقت عيناها الشيطانيتان: «رشاد وفريدة»

«بس رشاد كاره الجواز، ومش عاوز يتجوز خالص، واللي بيجيب له سيرة الجواز بيهب فيه زي البتاع دا الخربان اسمه إيه؟؟»

«اسمه وابور يا معدلة... بس على فكرة فريدة طبعها هادي وهتعرف تطوي رشاد تحت جناحاتها كيه الفروج لما يحاجي على فراخه».

بنبرة قلق سألتها صديقتها: «فكرك الحكاية دي هتنجح؟؟»

«طبعًا يا بنتي إحنا بنلعب هنا ولا إيه!؟ وزي ما انتي خابرة.. الچـوازات دي لازم تنجح... وإلا الدم هيوبجى للركب يا خيتي»

«على رأيك وإحنا ما صدقنا... أخيراً حال الولاد دول هيتصلح... بدل ما هم نازلين طحن في بعض بسبب ومن غير سبب... بس على فكرة لو زينة عرفت اللي هنعمله، الطاحونة الجديدة اللي في البلد مش هتدور إلا بدمي»

أومأت نجلا تزدرد لعابها بصعوبة: «وفكرك رافع لو عرف هكون فين يعني!؟أكيد في خبر كان معاكي»

«يلا يا بنتي ربنا يقدرنا على فعل الخير»

رفعت صديقتها يديها بالدعاء وهي تغمز بشيطنة: «يااااااااااا رب»



(قبل ثمان وأربعين ساعة)

تقود سيارتها على الطريق السريع... تأففت بضيق... من بعد خروجها من مطار الأقصر حتى بلدتها قبل إسنا بعدة كيلومترات... لم تتذكر أن الطريق طويل بهذا الشكل... زادت من ضغطها على دواسة الوقود لعل سرعة الرياح تبرد الحر الثقيل الذي يجثم على أنفاسها... هزت رأسها بحرية ليتأرجح شعرها الأحمر الناري بعشوائية في الهواء وتسمح للنسمات المتسللة تبرد نحرها المحتر من كثافته... شتان الفارق بين طقس باريس المثلج وهذا الحر القائظ في بلدها... ابتسمت بخجل لنفسها باعتراف صعب المنال في الظروف الاعتيادية... مع الفارق فهي كالسمكة التي عادت أخيراً لبحرها بعد غربة طويلة... أخرجت تنهيدة طويلة تتذكر وجودها بين أهلها... لم تظن أبدًا أنها قد تشتاق لهم بهذا الشكل.. ضغطت على زر يفتح سقف السيارة المتحرك ويُطير شعرها الأحمر الطويل خلفها، ضحكت متخيلة منظر والدها رضوان البداري لو رآها بهذا الشكل... وزاد سرورها متخيلة وجه أخيها سيف الشديد العصبية... هزت كتفيها بقلة اكتراث مرددة بصوت عال وكأنها تعانق الهواء: «وحشتوني وحشتوني، وحشتووووني، ووحشتوا عيوني وفكرتوني باللي غاب»

لافتات جديدة على الطريق لم تكن موجودة من قبل نبهتها إلى اقترابها من بلدتها... لم يتبق إلا خمسة كيلو مترات فقط... تألقت عيناها على الخاتم ذي الفص الماسي الذي يضوي بين أصابعها المشدودة على المقود... داعب ذاكرتها ملامح ضياء المصرة وهو يضعه في إصبعها بنفسه، هامسًا بلكنته الفرنسية الغالب عليها لهجته المغربية: «حبيبتي... تذكّريني كلما توهج فص الماس ببريق عينيك»

تنهدت بقلب مثقل بالحنين... ولماذا لا توافق على عرضه بالزواج!؟ هو استجابة القدر لكل أمنياتها في زوج المستقبل... فضلًا عن وسامته فهو غني، وررومانسي كما أبطال الروايات، بالإضافة لابتعاده عن بلاده بزمن كاف يجعل أخلاقه أقرب للرجل الأوروبي أكثر منها الشرقي... فلن تعاني أبدًا من عصبية وتسلط رجل لمجرد

أنه يرى المرأة كمخلوق أدنى، كما يحدث بدوام كلي في هذه البقعة الشديدة القدم من أرض مصر... تحديدًا في قرية الصوالحة، وهي قرية صغيرة ربما لم يسمع بها أحد من قبل، تقبع في أحضان مدينة (إسنا) العريقة...
ألقت نظرة خاطفة أخرى على الخاتم وتخيلت ردات فعل كل واحد من أهلها... أمها الغالية (فاليريا) ستضمها بقوة وشوق وستبارك لها... وأختها (هنا)... لا شك أنها أصبحت صبية فاتنة الآن بعمر الثالثة عشر... منذ سنتين كانت مجرد طفلة صغيرة... لاشك أن عقلها سيطير وعينيها ستتوهجان ببريق الماسة بحجم الخمسة قيراط... والدها الحاج رضوان البداري... اعتصرت شفتيها بأسنانها تعضهما بقوة... وعجزت تمامًا عن تخمين ردة فعله... فرغم حنانه المتدفق بدون حساب بالنسبة لرجل صعيدي فخور... لو لم يحظ بزوجته (فاليريا) هدية القدر له، لأضحى مثل أي رجل صعيدي آخر... تغلبه فطرته الذكورية وعصبيته في أغلب المواقف حتى الجور... أما سيف... فهو الوحيد الذي سيصعِّب عليها أمورها كما يفعل دائمًا...
اتسعت عيناها بذعر عندما نبت في نهر الطريق فجأة فرع شجرة ملقى بالعرض... برعب مسيطر ضغطت بكل قوتها على الفرامل، وجذبت المكابح اليدوية لتدور السيارة حول نفسها عدة دورات قبل أن تتوقف تمامًا... تلفتت حولها بذهول رافضة تصديق أنها بخير ظلت متمسكة بالمقود بأظافرها لاهثة وقلبها ينتفض برعشة صاحبها ألم حاد في صدرها أخذ ينخر أضلاعها... وضعت يدها على موضع الألم محاولة تهدئته... تطلعت بدهشة لمجموعة من الشباب تدور حولها على صهوة أحصنتهم يتضاحكون ويتندرون... حاولت السيطرة على أعصابها وهي تصيح فيهم ملوحة بذراعها متجاهلة النغزة المتزايدة في صدرها:
«لو سمحتوا ممكن أمر؟؟»
هتف أحدهم مازحًا: «يا صلاة الزين! دي الباربي بتتكلم... يا وجعة مربربة وكيه لهطة الجشطة»..

ضج الشباب بالقهقهة الساخرة... تمالكت نفسها مرة أخرى وهي تغادر السيارة تجيل نظراتها الساخطة فيهم بلا مبالاة: «مافيش فايدة فيكم... جاسر الرحايمي... كالعادة.. بتمارس هوايتك في مضايقة بنات البداري... خد نصيحتي... لم شوية العيال اللي معاك قبل ما حد من البداري يشم خبر إنكم قاطعين عليا الطريق»

صرخ المدعو جاسر بحماس وعيناه تتألقان ببريق الإعجاب: «يا وجعة زي الجشطة بالعسل الأبيض... دي السنيورة خابرة اسمي... بس المشكل يا حلوة إني مشوفتكيش جبل سابج في نواحينا... رغم إني خابر كل بنات البدراي.. بت.. بت»..

ضج بقهقهة وقحة وشاركه أصدقاؤه المزاح فهتفت باحتقار: «أيوه أنا من البداري.. سِبت البلد وانت يا دوب، أخرك تجري ورا عربيات الرش».

اشتدت عروق الرجل بالغضب الأسود الموروث من أسلاف أسلافه عندما ينتابه إحساس أن رجولته مهددة: «متخلجش لسة... اللي يتطاول على راچل من الرحايمة»

عقدت الفتاة ذراعيها على صدرها قائلة بنبرة محتقرة: «يا ربي! هو انتم لسة عايشين في زمن أهل الكهف... وخايف شنباتك تتهز فيقع الصقر من عليها!؟ اسمع يا شاطر... لو الوضع زي ما هو من سنتين... يبقى اشتري روحك ورّوح اللي معاك... والحق استخبى في ديل جلابيتك قبل ما الدم يبقى للركب»..

صرخ الشاب بعنفوان من أهدرت كرامته، وهو يلكز جواده ليزداد اقترابًا منها: «انتي بتهدديني يا بت البداري!؟ هو حوصل إيه... الانصاص جامت والجوالب نامت!؟»

ندت عنها صرخة خوف عندما ظنته سيصدمها بجواده الأرعن كفارسه...

سخر أصدقاؤه من ذعرها الواضح، وبدؤوا يقلدونه... تخلت عن خوفها سريعًا وبدأت بمجابهتهم الند بالند... فوجئ جاسر بجرأتها وهي تحاول جذبه من جلبابه ليسقط من فوق صهوة حصانه... استمرت بالمحاولة حتى نجحت

بإسقاطه... رمقته بشماتة يتمرغ في التراب كالثور الحرون... قفز واقفًا برشاقة يحسد عليها، ينفض عنه ما علق بجلبابه الثمين، ونيران غضبه الأعمى تتأجج بظلام حدقتيه الفاحم... شمخت بأنفها تتحداه الاقتراب.

لم يبالِ بقفاز التحدي الذي ألقته بوجهه، وبرعونة شديدة قبض على شعرها يلوي عنقها الجميل، امتدت أظافرها الطويلة المطلية تنشبها في عنقه رافضة الخضوع، وقبل أن تتمكن منه... صوت غاشم اقتحم المعركة غير متعادلة الأطراف:

« چاسر... بعِّد عنّيها حالًا!!»

وبفعل السحر... تراجع جاسر خطوة للخلف بعد أن تحررت أصابعه من شلالات شعرها الأحمر على غير رضى... حدج صاحب الصوت الذي تعلقت به كل العيون بنظرة حاقدة... صهل جواده ليرتفع عاليًا بقوائمه الطويلة، فحبست أنفاسها... كفارس أسود من العصور المظلمة... مهيب، مخيف... اختفت نصف ملامحه في الظل... كان يتصدر قرص شمس الظهيرة، فظهر تتخلله ألسنة من لهيبها وكأنه جزء ينفصل عنها، ويزداد اقترابًا...

هتف جاسر بنبرة راعدة: «رافع... مكنتش خابر إنك إهنه...»

شعرت بذبذبات خطيرة تصدر من هذا الفارس الأسمر، وأقل ما يقال عنه في هذه اللحظة أن بارومتر مزاجه يشير إلى درجة عاصف... وبدون أن يترجل عن جواده الأكثر نزقًا من صاحبه: «أنا حذرتك جبل سابج يا چاسر إنك تتعرض لأي حد من العيلة دي»

هتف جاسر بنبرة أقل حدية، كأنه شخص مختلف تمامًا عن الأرعن الذي قطع طريقها منذ لحظات:«أنا مكنتش خابر أنها من البداري»

وضع راحة يده في صديري جلبابه المفتوح مكملًا بنبرة ساخرة: «إلا صحيح يا سنيورة انتي منيهم؟؟ وأنا اللي فكرتك من دوكهم»

وضج بالضحك وشاركه رفاقه بينما هتفت الفتاة باستياء:

«impossible!.. انت كذاب... وقاحتك زادت لما قلت لك إني من البداري، ونصحتك تبعد عني بدل المشاكل وانت صممت تكمل في مضايقتي»

هتف رافع متجاهلًا كلامها مخاطبًا ابن عمه وصُحبته: «بعد دجيجة واحدة مش تنين... مش عاوز أشوف خلجة ولا واحد فيكم... لا إهنيا، ولا في أي مكان في البلد كلاتها... لحد ما أنسى عمايلكم الخايبة دي»

سيطرت على أعصابها بقدرة برود هائلة تعلمتها من مخالطة الباريسيين لسنوات طويلة... راقبت بنظرات شامتة الشباب يجرون أذيالهم منكسين، جارّين أحصنتهم خلفهم فلم يجرؤوا على امتطائها في حضرة كبيرهم.

التفت بحدة تخترق أذنيه ذبذبات ضحكاتها الشجية... وفجأة فقد إدراكه، لم يعد يدري إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا... أو كان صيفًا أو شتاءَ... وتلك المغوية تتراقص خصلاتها النارية مع الهواء وكأنهما يهمسان بحديث خاص للعشاق... ونغمات ضحكاتها وكأنها آلاف الآلات الموسيقية مع تغريد البلابل تتدافع متزاحمة لتخترق أذنيه وحواسه... انتفض وكأن صدمة كهربائية صعقته على حين غفلة.. وتمتم بدون أن تسمعه:«ناريسا!»

لم تستطع منع نفسها من الضحك... حتى انتبهت لنظراته المحتقنة التي كان يرمقها بها من علو صهوته... أباحت لنفسها الحرية بعد اقترابه لتتأمل منقذها بعمامته البيضاء الكبيرة التي تزين رأسه وملامحه شديدة الحدية ونظراته الثاقبة... يزينه ذلك الشارب الجميل الذي يزيد من قسوة ملامحه وقد أضفت ذقنه غير الحليقة شراسة بدائية لمظهره... وميّزته تلك الوحمة السوداء التي لم تغيرها السنوات لتظهر دائرية مميزة بين شعيرات لحيته الخفيفة... جذب لجام جواده فصهل لتفيق من شرودها على صوته الذي ما يزال فاقدًا لهدوئه: « بتضحكي!؟ كنتي هتضحكي أكتر بكتير لو كان حد غيري خاصةً من أهلك هو اللي وصل... يظهر إن بعادك نسّاكي اللي ممكن يحصل بين أهلي وأهلك نتيجة لموقف سخيف زي دا!»

اعتدلت في وقفتها عندما لم ترق لها نبرته المتعالية:

«بتهاجمني زي ما أكون أنا اللي قطعت الطريق على ابن عمك وحاولت أعتدي عليه... بدل ما تشكرني لأني مضربتوش على وشه قلم على قلة أدبه ووقاحته!؟»

رفع أحد حاجبيه متهكمًا بوجه بارد مسيطر على انفعالاته: «اشكري ربك إني وصلت في الوقت المناسب وأنقذت حياتك قبل ما تتهوري وتعمليها... وقتها مكنتش هقدر أخرجك من تحت إيديه حتة واحدة»

كانت واعية تمامًا لحضوره الذي طغى على كل إحساساتها وجعلها متبلدة... كيف أخرستها نظراته! كيف تجمد الوقت والهواء من حولها! مشدودة بادلته التحديق المسعور.. وحمته تنبض بشراسة ملامحه، وكأنه يخفي أكثر بكثير مما يبدي، في محاولة ناجحة تماما للتحكم بعضلات وجهه.

لم يمهلها الرد فلكز جواده، وهو ما يزال يقهقه ساخرًا من سذاجتها..

تهدل ذراعاها بإحباط لتخرج أنفاسها المحتبسة، وكأنها ظلت أسيرة صدرها من لحظة ظهور الفارس الأسمر... أمسكت باب سيارتها عائدة خلف عجلة القيادة... توقفت فجأة تعيد النظر لعاصفة الغبار التي خلفتها أرجل جواده الأبيض ذو العرف الأسود... رفعت حاجبيها باندهاش لتنتبه الآن فقط أن رافع تحدث معها بلهجة أهل المدن... بينما حديثه مع أولاد عمه دار باللهجة الصعيدية... يبدو مختلفًا، وكأن همجيته التي عُرِف بها دجنت تمامًا... علت ابتسامة نقية ثغرها الرقيق متمتمة بلكنة صعيدي: «يا ترى مين اللي هتجدر عليك يا ويلد الرحايمة، وهتكسر خاشمك؟»

هزت رأسها بابتسامة غامضة عائدة لسيارتها تستأنف رحلتها، وفكرة مرعبة تدور برأسها «رافع كان على حق في أمر واحد... لو عرف أي رجل من عائلتها اعتراض جاسر الرحايمي ورفاقه طريقها ستحدث مذبحة مؤكدة... وهي الأدرى ببحور الدماء التي يمكن أن تفيض لسبب أقل بكثير».

لاح لها من بعيد قصر عائلتها الشامخ (قصر البداري).. كان تقريباَ في الطريق المعاكس لقصر الرحايمة... وكأن بينهما اتفاقًا غير مكتوب على اقتسام القرية... فلا أحد من أي من العائلتين يتواجد بطريق العائلة الأخرى... وما تزال الأوضاع متوترة كما كانت منذ الأزل.

تجمع الخفراء أمام البوابة الضخمة يتدافعون لفتحها أمام السيارة الحمراء الصغيرة، والتي دخلت تطلق أبواقها بإعلان مدوي عن وصولها أخيراَ.

خرجت من السيارة لتجد أمها الحبيبة بانتظارها بلهفة، وشوق، ودموع فرحة محتبسة، وبجوارها تقف أختها الصغيرة... والتي بالمناسبة لم تعد صغيرة أبدًا... قفزت بحماس على الدرجات القليلة تصل لأمها تحتضنها بقوة.... ثم أبعدت رأسها تتأمل ملامحها الحبيبة تتحدى بشموخ سنوات عمرها الخمسين، شعرها الأحمر القصير المختبئ أسفل وشاح حريري أزرق شاحب... بينما حافظت ملابسها على الطابع الصعيدي، وللحاج رضوان الفضل الأكبر في إقناعها بالتخلي عن ملابسها المفضلة، عندما انتقلت من وطنها الأم (فرنسا) ولم تظن أنها ندمت يومًا على وجودها في هذا المكان، طالما أنها جوار حبيبها «mon petit ami» كما كان يحلو لها دائما أن تطلق عليه بلغتها وعيناها تذوبان عشقًا... لطالما حسدت أمها على حبها لرجل مختلف تمامًا عن كل مقاييس الرجولة المعتمدة في بلادها:

«زينة.. زينة...mon amour »

« Oui Mama... وحشتيني كتير.. كتير ماما»، واحتضنتها تدور بها وأمها تضحك بسعادة

«زينة.. بس يا بنت.. أنا أدوك»...

قهقهت زينة: «اسمها أدوخ يا ماما»

ضربتها أمها على يدها بتوبيخ ناعم: «أنا أكول اللي أنا آوز...Chut»

«والله عال، وأنا ماليش نصيب في الحب دا كله!؟»

أمالت رأسها تنظر لأختها الصغيرة بحب، والتي قارب طولها الوصول لكتفها... أمسكت يدها تديرها حول نفسها تصفر بحماس: «واو... انتي بقيتي مودموزيل كبيرة أوي... كل دا يحصل في سنتين بس!؟»
انحنت هنا برقة قائلة بالفرنسية: «Merci mademoiselle Zina... بعض ما عندكم.. يعني خلاص مبقتش البطة القبيحة بالمقارنة ببجعة بحيرة البجع»
رمشت زينة بنظرة متسائلة: «بحيرة البجع!! يعني إيه!؟ مكنتش أعرف إن قلبك أسود أوي من ناحيتي كده... لينا قعدة مع بعض نشوف إيه حكاية بحيرة البجع دي... بس بجد انتي وحشتيني موووووووووت»
قفزت الصغيرة بشهقة حماسية تضمها أختها بقوة... حتى هتفت فاليريا: «كفاية كده... بابا جوة... مشتاك لك كتير»
هتفت زينة مازحة: «يا وجعة مربربة! كبير البداري بذات نفساويته في انتظاري... وأنا لسة واجفة بموطرحي... لا دي غلطة واعرة جوي، ولزمن ولابد نصلحوها فوري»
قهقهت هنّا:« كويس إن باريس منستكيش لغوتنا»
نفضت شعر أختها الحريري الأسود وهي تدفع خصلاته بأصابعها: «وهو أنا أقدر!؟ كل ليلة كنت بقعد أراجع مع نفسي، أسمّع جدول اللهجة الصعيدي، علشان لما أرجع ميحصلش اللي بالك فيه»
تنهدت أمها بتحذير: «زينة.. كفاية ثرثرة... لوك لوك لوك، وروهي لباباكي بسرعة»
«أخ.. Désolé Mama... آسفة جدًا بس أنا فرحانة كتير»..
ضمتهما بذراعيها... أمها وأختها... ثم اتجهوا للداخل... كان الخدم بانتظارها متلهفين لمصافحتها... كادت تذوب بين أحضانهم الربيعية... لم يتغيروا أبدًا... هي نفسها الوجوه السمراء الطيبة، التي تحملت كل شقاوة طفولتها، وطيش مراهقتها... أسرعت لغرفة والدها الذي لا تتذكره إلا بجلسته المهيبة في هذا

المكان المدبوغ باسمه وهيئته، على الأريكة الاستانبولي من خشب الزان... تحيطه وسائد من القطن المحشو، يرتكن عليها وقد تربعت ساقاه ملتفة بعباءته من الجوخ الأصلي.

وقفت تتأمله بعينين مغرورقتين بالدموع... لم يكن الزمن رفيقًا به كما مع أمها... فقد حل الشعر الأبيض الشاهق ضيفًا دائمًا غير مدعوٍ على رأسه العارية من عمامتها الأصيلة. أشار لها بيده لتقترب وضاقت حدقتاه: «انت هتوجفي تنضريني من بعيد إكده!!؟ جربي يا بت... جربي يا زينة عمري خليني أضمك في حضني... جربي يا بتي»

لم تكن عيناها قد ارتوتا بعد منه، ولكن نبرة صوته الحنونة الآمرة اخترقت قلبها كوميض برق في ليلة حالكة، فألقت بنفسها كطلقة رصاص تدفنها مع غربتها بأحضان وطنها... أبوها الحبيب... رفعت عينيها المغرورقتين إليه:

«كيفك يا حاچ؟؟ اتوحشتك جوي.. جوي»

ضربها على كتفها: «يا بت البكاشة... بجى لو كت اتوحشتك كتي هتغيبي المدة دي كلاتها!؟إش الحال لو مكتش اتوحشتك... مكتيش هتعاودي البلد واصل»

«وأنا أقدر يا حاج!؟ لا عشت ولا كنت لو فكرت في يوم إني مرجعش»

أمسك وجهها بين يديه الكبيرتين يتأمل ملامحها، وكأنه يحصيها، ما نقص منها وما زاد في فترة غيبتها الطويلة... هتفت بشقاوة: «كل حاچـة في موطرحها يا حاچ.. العيون والخاشم والـ...»

ضربها مرة أخرى على كتفها:

«هو انتي لسانك دا تملي زالف إكده!؟ طوالي ممدود ولا كنه جُضبان سكة حديد»

مسدت كتفها بتوجع: «يدك تجيلة جوي يا حاج»

«طب هاتي التاني علشان ميزعلش»

«لا وعلى إيه... الطيب أحسن»..

تنهد يجلي صوته بصعوبة: «وأخبار صحتك إيه يا بتي؟ خبرتني أمك إنك معملتيش العملية... ليه يا زينة يا بتي!؟؟»
خطفت نظرة لأمها التي أومأت لها بابتسامة حزينة وعيون دامعة... ضمت شفتيها بقوة كأنها تحاول تجاوز مشهد تدربت عليه كثيراً، وفي النهاية ما تزال عاجزة عن تخطيه:
«بصراحة يا بابا... فيه دكتور كبير نصحني إني أحاول أجرب علاج جديد ظهر لحالتي... وأنا فعلًا قطعت شوط كبير في العلاج وفي تحسن... بطيء... بس موجود»
زفر بتنهيدة طويلة:
«يعني هتسافري من تاني!؟ يكون في معلومك يا زينة... لازمن تشوفي لك صرفة في سفرياتك دي... انتي معتيش صغار يا بتي... ما شاء الله كبرتي وبجيتي عروسة كيه الجُمر... ما يصحش إنك تسافري وحديكي... وإن كَت العوبارة في العلاج... تاهت ولجيناها، تكمليه إهنه وسطينا... بكفياها غربة وشحططة يا بتي»
ألقت نظرة على أمها وهي تهتف بخوف:
«جري إيه يا حجوج!؟ ما إحنا كنا متفقين من الأول... وأنا مش عايشة لوحدي... انت عارف إني عايشة مع خالتو... وأنا كمان مش قاعدة عوالة عليها... أنا بساعدها في الشغل»
تنهد بضيق وصاح ينادي زوجته:
«اجعدي يا فاليريا... وجولي لبتك تعجل... معادش ينفع سفرها وحديها... الناس كلت وشنا»
هتفت الأم متأثرة بصدمة ابنتها:
«شويا شويا ردوان... انت واهد البنت على مشمتها... كده مش ينفا»

وهنا لم يستطع الرجل وابنته تمالك أنفسهما فضجا بالضحك حتى دمعت عيونهما... أمسكت زينة بيد أمها قائلة من بين الضحك: «مشمتها إيه بس يا حاجة فاليريا!؟ سمعتي عن اللي جت تكحلها!؟»

ضربت ابنتها على يدها بفم مزموم: «تكهلها إيه أبيطة انت!؟انت أارف زينة... أنا غلطان إني بتكلم مآاك أصلًا... أنا كنت نسيت مشاكسات بتاأك دي... هكوم أشرف ألى تهدير غدا... وانتي هرة مع أبوكي»

أومات زينة تحاول التحكم بصعوبة لتمتنع عن الضحك: «أيوه... قومي يا فال... قومي وخليني هرة مع أبويا»

نظرت لوالدها بعد خروج أمها وأخذت نفسًا عميقًا:

«خلاص يعني كانوا النسوان خلصوا من الصوالحة علشان تروح آخر الدنيا وتتجوز خواجاية تجولك (أنا هرة)... و.. إيه!؟»

أكمل ضاحكًا: «مشمتها...»

ادعت الجدية وهي تصيح:

«خلاص بقى... انت هتتريق على الست الحاجة فاليريا ولا إيه!؟ عيب يا حاج ميصحش»

أمسك يدها بخشونة:

«سيبك من الشويتين بتوعك دول وحطي كلامي حلجة في ودانك... ولينا جاعدة تانية نتحددتوا فيها على رواج»

«ماشي يا حاج... زي ما تؤمر.. إلا هو سيف فين؟؟»

«سيف في...»

«فيه حد بيجيب في سيرتي!؟؟»

«أهه... كيه البسة بياچـي على السيرة والوكل»

دخل سيف بجسده الضخم المهيب يسيطر على المكان وشواربه التي يقف عليها الصقر كما يقولون... يرفل في جلبابه الأسود الطويل متلفحًا باللاسة الحرير حول عنقه وعمامته البيضاء تزيد من هيبته.
ركضت زينة تلقي بنفسها بين أحضانه... ضمها بحنان أخوي... ثم أبعدها يتطلع لها بنظرة ناقمة: «انتي دخلتي البلد بخلجاتك دي؟؟»
نظرت لبلوزتها الضيقة، وبنطلونها الجينز وسألته بضيق:
«أمال عاوزني آجي من فرنسا بإيه... بالملس!؟»
نفض يداه عنها وأمسك أطراف اللاسة حول عنقه يجذبها بعصبية وهو يجلس جوار والده زافراً دخان احتراقه:«اللهم طولك يا روح!»
ربت والده على ركبته:
«اتهادى يا ولدي... شم نفسك وخلي خيتك تشم نفسها من تراب السفر»
«إن شالله عنها ما شمته!»
هب رضوان يلوح بيديه متسائلًا: «هو كان حوصل إيه لدخلتك المزعبة دي!؟»
«اسأل السنيورة... فين السواج اللي بعته بالعربية عشان يـجـيبها من المطار!؟»
التفت رضوان لابنته التي ظهر الارتباك واضحًا عليها:
«بصراحة يا بابا... أنا مشِّيته»
زفر سيف بسخرية:
«شوفت يابوي... المحروسة دخلت البلد سايجة العربية بنفسها... يا سواد وشنا جدام الخلج! خلاص بجينا مسخرة ومعيرة البلد كلاتها اللي يسوا واللي ميسواش»
حدج رضوان ابنته بنظرة عاتبة: «ودا يصوح برديكي يا زينة!؟»
«ماهو يا بابا...»
صرخ سيف بوجه سوده الغضب:

«يعني أشج خلاجاتي منيكم انتم الـچـوز!؟ عاوزين تـچـلطوني!؟ بدل ما تجوم تسفخها جلمين لحد ما تطاطي تحب على رچـلك وتطلب منيك السماح على عملتها المهببة!!»
أطرقت زينة رأسها لتمتص غضب والدها... رمق سيف بنظرة مهددة، وبهزة من رأسه قال بهدوء:
«ملاكش صالح... أنا أربي بتي بكيفي... مش بكيفك انت»
بانفعال زائد هب مرة أخرى ملوحًا بإصبعه في وجهها: «حاضر يابوي... بكيفك... بس يكون في معلوم الـچـميع... وبعد إذنك يابوي طبعًا... سفر بعد اليوم مافيش... بزيداها صرمحة وجلة حيا... خلاص تجعدي زي بجيت البنتة تستني عدلك... وكلام كتير وحديت ماصخ مالهش عازة مش عاوز أسمع»
ضربت بقدميها في الأرض باعتراض:
«بابا... قول حاجة لو سمحت!»
رفع عينيه بدون أن يحرك رأسه قائلًا بلهجة لا تقبل النقاش:«روحي غيّري خلجاتك... وكل وجت وله أدان»
«حاضر يا حاج... أوامرك»
وانصرفت تزغر لسيف بضيق، ثم أخرجت لسانها بحركة طفولية.
كتم رضوان قهقهته ولكن سيف لمحه فثار بعصبية: «انت بتضحك يا حاچ؟ البت بتتمألت علينا وانت بتضحك يابوي!؟»
«يا واد يا غشيم... كم مرة أجولك وانت البعيد مركِّب بولغة جديمة في راسك الناشفة دي... رفجًا بالجوارير لتتكسر في يدك»
زفر نافخًا نيران:
«اكسر للبت ضلع يطلع لها أربع وعشرين»

«يا شيخ دك أربع وعشرين بولغة في نافوخك... انت إيه!! چـنس چـبلتك إيه!! محراج شر مبتفصلش واصل... ياما نفسي أشوف البهيمة دي اللي هتتـچـوزها، وهتمشيك على العجين متلخبطوش»

انتفض سيف منفوخ الأوداج:

«لسة متخلجتش اللي في بالك... دنا سيف البداري على سن ورمح»

«طززززززز!»

«يابويا بلاش جلة الجيمة دي... أنا كبرت على عمايلك دي»

«الكبير كبير بعجله يا ولدي... وانت لسة جدامك المشوار طويل... إلا حتى ما سألت أختك عن صحتها ولا عملت إيه في علاچـها»

«ما زمانك انت والحاچـة جمتوا بالواچـب»

«وانت واچـبك تزعط وتنطح وبس زي الطور اللي محلول لـچـامه!!؟ والله انت خسارة فيك الحديت من أساسه... كيه اللي بينطح راسه بالحيط... رح.. رح شوف أخبار الوكل إيه الواحد معدته نعرت»



٢

«البعض ترفعه الخطيئة، والبعض تُسقطه الفضيلة»

ـ وليام شكسبير

....

معفر متجهم تكاد خطواته تزلزل الأرض أسفلها... ابتعد الخفراء عن طريقه مستغربين، رافع الرحايمي آخر من يفقد أعصابه بهذا الشكل العاصف.

كان والده يجلس في شرفة سراي الرحايمة يراقبه بصمت من لحظة نزوله عن جواده حتى اقترابه مثيراً التراب تحت قدميه.

«السلام عليكم يا بوي»

أخرج مبسم الشيشة من فمه متلذذًا برؤية حلقات الدخان تتشكل سابحة في الهواء: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مالك معفر إكده ليه زي ما يكون والعياذو بالله حنش لافف على رجبتك»

أخذ عدة أنفاس متلاحقة حتى استطاع تمالك نفسه: «مشوفتش الزفت اللي ما يتسماش ده!»

رفع والده مبسم الشيشة متسائلًا بتعجب:«تجصد مين.. چاسر؟»

«ومين غيره سبة كل البلاوي اللي بتحصول واللي هتحصول!؟»

«صلي على البني يا رافع.. واتهادى بالله وفهّمني هبَب إيه المدعوج ده النوبة دي»..

«عملة سودا ومهببة على دماغه... جطع طريج بت من البداري هو والمجاطيع بتوعه»

نفث والده الدخان بغضب:

«أستغفر الله العظيم... إحنا كنا اصطبحنا بوش مين فجري على الصبح!؟»..
تابع رافع بانفعال:
«مش إكده وبس... دا كمان حاول يتهجـم عليها ولولا ستر ربُنا وإني وصلت في الوجت المناسب، كانت الجيامة جامت ومجعدتش من تاني»
«هو الواد دا مش ناوي يـجيبها البر ولا إيه؟»
«ليه يا عمي وانت كت شايفني ماشي في البلد بجطع في خلجاتي!؟»
قفز رافع من مكانه عند سماعه لصوت جاسر... واقترب منه ملوحًا بيده:
«انت البعيد جـبلة ما بتحسش!!؟ ما فهمش والله!»
وضع يده في صديرية جلبابه قائلًا بنبرة مستفزة:
«اسمع يا رافع... أنا خليتك تجول كل اللي عندك جدام الرجـالة، ومرديتش أصغرك وأرد عليك»
«وانت بتسمي المجاطيع اللي انت رايح جـاي وياهم دول رجـالة!؟»
رفع جاسر صوته:
«إيوه يا رافع... رجـالة... وانت صغّرتني جدامهم... وأنا احترمتك ومرديتش أرد عليك»
«انت مرديتش عليا لأنك غلطان والغلط راكبك من ساسك لراسك»
قلب جاسر شفتيه باستهانة: «وهو كان حوصل إيه يعني!؟ بت من البداري دايرة على حل شعرها... جلت أمله لها غلطان يعني!؟... هي لو كانت كانّة في بيتها كيه باجي الحريم المتصانين مكانش حد اتعرض ليها»
«وانت مالك!؟ دخلك إيه!؟ كت بوها ولا خوها... اللي لو كانوا شموا خبر مكناش جدرنا نمنعو بحور الدم اللي هتتهدم سدودها على روسنا كلاتنا»
«وانت خايف يا رافع.. يا كبير الرحايمة للسدود دي تتهد على نافوخك إياك!؟»
حدجه بنظرة ساخرة ثم أهدى لعمه نظرة مماثلة: «سمعت يا عمي... ولدك كبير الرحايمة خايف»

بإصبعه نقر رافع على جبين جاسر بقوة:
«انت البعيد مفاهمش... نجول طور يجوله احلبوه!؟»
أبعد رأسه عن ابن عمه وجلس جوار عمه:
«لع يا ويلد عمي... انت اللي مخابرش... من اليوم ورايح معنخافوش من البداري واصل»
التقط رافع أنفاسه الساخنة بصعوبة:
«لو انت مخايفش على روحك، فيه رچالة كتير بيعولوا نسوان وعيال وأرواحهم مش لعبة عشان تدخل بيهم عركة ملهاش عازة يا... يا چاسر بيه... ولا أنا غلطان يابوي؟»
هم جاسر بالرد، فأخرج عمه دفعة أخرى من الدخان من أنفه رافعًا يده ليمتنع الجميع عن الكلام... وبعد لحظات من الصمت المرتقب أجلى الخشونة في حنجرته قائلًا:«چاسر يا ولدي... مش من أخلاجنا إننا نجطعوا الطريج على حريم»
«بس يا عمي»...
رفع يده بزغرة محذرة فابتلع لسانه ليسمع عمه صاغرًا:
«وانت غلطان زي ما رافع جالك... عركة زي اللي كانت هتحصول دي ملهاش عازة واصل... مش وإحنا غلطانين وجاطعين الطريج على حريمهم... عيبة جوي في حجنا يا ولدي... خلينا لما نضطروا ندخلوا في عركة نكونوا فيها على حج... ماشي يا چاسر؟ وملهاش عازة كلمة (كبير الرحايمة) دي... انت ورافع كبرات الرحايمة ومافيش حد أحسن من حد... فهمت يا چاسر؟»
أطلق زفرة ضيق:
«الجول جولك يا عمي»
«وانت يا رافع... متصغّرش ويلد عمك جدام رچالته مرة تانية حتى لو كان غلطان... الرسول عليه الصلاة والسلام جال إيه.. انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»

بنبرة أهدى رد رافع: «عليه الصلاة والسلام... دا اللي أنا عملته يابوي... بس حاضر... على عيني أوامرك»

«الله يرضى عنيك يا ولدى... ادخل شوف أمك كانت بتنادم عليك من عشية»

وقف رافع باحترام:

«على عيني يابوي... بالإذن»

راقبه أبوه حتى اختفي خلف الأبواب ثم التفت لابن أخيه... ضربه بمبسم الشيشة على عمامته البيضاء موبخًا: «انت يا واد انت مافيش فايدة فيك!!؟ على طول زمجان وروحك مش طايجة خلجاتك!!؟»

أخرج عامود دخان من منخاريه وارتكن برأسه جوار رأس جاسر قائلًا بابتسامة وغمزة خبيثة: «إلا جولي... البت كانت زينة صوح... ولا انت كت بترمرم زي عوايدك؟»

بنظرات متلاعبة وكأنه يتذكرها بشعرها الأحمر المتطاير وعينيها السماويتين الغائمتين وهي تحاول نشب أظافرها المطلية في عنقه بتهور... دفع جاسر العمامة عن رأسه لتظهر رأسه الصلعاء وهو يصيح: «يا بوووووووي! كنها جالت للجمر جوم فز من مكانك وأنا أجعد موطرحك»

«للدرجة دي البت زينة!؟»

«زينة وهي زينة يا عمي»

«مين دي؟... فكرني بيها يا چـاسر.. بت مين من البداري؟»

تلفت جاسر حوله ليتأكد أنهما بعيدان عن أي آذان قد تسمعهما:

«البت زينة... بت الحاچ رضوان اللي كت مسافرة بلاد برة، وبيجولوا جاعدة مع خالتها الفرنساوية... بس كنها يا عمي خدت كل حلات أمها الخوچـاية... ومش أي حلا... حلاوة طحينية جاطعة»

تلاعب عمه بشواربه ببريق خافت في عينيه ومض بالذكرى:

«كني فاكر يوم ما عاود رضوان البلد وهي متشعلجة في دراعه... يومها البلد كلاتها منامتش... مكانش في الزمام كلاته حرمة بحلاتها»

وضع جاسر يده على ذراع عمه متنهدًا: «كنها زينة يا عمي... يا خسارتها في العيلة الهم دي... مش الغفر اللي حدانا، ومحسوبين علينا نسوان»

«وطي صوتك يا مخبل لواحدة من حريم الدار تسمعك!»

تراجع مستندًا بظهره واضعًا يده في صديرية جلبابه قائلًا بأنفة:

«وأنا يهمني!؟ أنا چاسر الرحايمي،، متخلجتش اللي تخليني أحط لساني جوا خاشمي»

قهقه عمه قائلًا فاتلًا شواربه:

«ولا حتى نوارة النورية؟»

اعتدل جاسر في مكانه متوسلًا بصوت خافت: «وطي صوتك يا عمي، الله يستر عرضك، الحيطان لها ودان... بس انت إش عرفك بنوارة!؟»

دفعه مرة أخرى بمبسم الشيشة:

«يا واد... دنا عاچنك وخابزك من يوم ما بوك الله يرحمه مات وچيت تحت طوعي... غير إن مُطرح ما بتعُك عيوني بتچيب لي جرارك... من أول مولد سيدي عبد الرحيم الجناوي لحد مولد ال...»

قاطعه جاسر:

«خلاص يا عمي... أحب على يدك... الله يستر عرضك... انت إيه... متخفاش عليك خافية!؟»

«عيب يا ويلد... دنا وهدان الرحايمي»



«خير يا أما... نادمتي عليا؟»
بعباءتها السوداء المزركشة وأكمامها الطويلة المحلاة بخيوط فضية براقة... وقد لفت طرحتها حول وجهها من نفس قماش العباءة... احتدت ملامحها السمراء وقد التمع بريق عينيها المكحلتين الشديدتي السواد كابنها وهي تقترب منه:
«خير يا ولدي... كنت عاوزاك في موضوع إكده... بس جبله جولي... انت وبوك أصواتكم كانت چايبة آخر ديار الرحايمة... خير يا رافع؟؟»
«خير يا أم رافع... خير... حدوتة إكده خيبانة ملهاش عازة نعيدو ونزيدو فيها»
«يعني بالمختصر مش عاوز تحكيلي... ولد أبوك صوح... المهم خلينا في الموضوع التاني... مش ناوي تفرحنا بيك انت ومعالي!؟ بدي أشيل عيالكم جبل ما أموت يا ولدي»
«بعيد الشر عنك يا أما... خبر إيه الكلام اللي ملهش عازة ده!؟»
هبت باحتداد:
«خبر إيه دا اللي ملهش عازة يا رافع!؟»
«خبر الموت يا أمي، كل شوية تـچيبي سيرته زي ما تكوني بتلوي دراعي علشان أتـچوز بت عمي»
«أنا بلوي دراعك يا رافع!؟ إش حال مكنتش انت اللي چيت حدي وطلبت مني أخطب لك بت عمك!؟ دي أخرتها يا ويلد وهدان!؟»
تهالك جالسًا على أحد مقاعد غرفة المعيشة الفاخر بقوائمه الذهبية، وقماشه الأحمر القاني بلون الدم... ثم زفر متنفسًا بعمق ورمق أمه بنظرة مستكينة:
«عاوزاني أتـچوز معالي؟ حاضر يمَا... عاوزة تحددي معاد الفرح؟ تحت أمرك يمَا... عاوزة إيه كماني؟ تحبي أخلف لك العيال وأرميهم في حـچرك دلوك؟»
ارتسمت ابتسامة رضا على فمها العاصي قائلة وهي تعيد ضبط طرحتها حول وجهها، وتجلس في المقعد المقابل له قائلة بدلال:
«اختشي يا رافع... انت مبتستحيش!؟»

قهقه ضاحكًا:

«يعني خلاص... ست الكل رضيت عني؟»

«أنا عاوزة إيه من دنيتي غير إني أشوفك متـچـوز ومتهني، وأنا على وش الدنيا وأفرح بعيالك بيتنططوا حواليا»

اقترب منها ينحني ممسكًا بيدها وقبلها بقوة:

«ربنا يخليكي لي يا أم رافع وما يحرمنيش منيكي واصل... دنيتنا حلاها بيكي»

وضعت يدها على رأسه تمسد شعره الأسود الغزير بحنان:

«وانت دنيتي وأخرتي وكل حالي ومحتالي يا رافع... لو مكانتش معالي هتهدي سرك وتصونك مكتش چـوزتهالك واصل... ومع إكده... آني مش هفوت لها الهوا... اليوم اللي ألاجيك متكدر، هيوبجى يوم مطلعتلوش شمش... هكدر اللي خلفوها في تربتهم»

«يا حبيبي انت يا ست الدار يا جامدة!»

تأرجحت عيناها وهي تشمخ بأنفها: «أمال انت كت فاكر إيه!؟ دنا هبجى حما واعرة جوي... هو سِبوع مافيش غيره هخليها تتبغدد وتعمل حالها عروسة.. وبعدها... همشيها جدامي بإيد المجشة»

«جولتي لي... بجى هي العوبارة كده... بعد ما حسنات اتـچـوزت وسافرت السعودية مع چـوزها مش لاجية حد تتفششي فيه... بالخصوص وفريدة لا بتهش ولا بتنش ونـچـلا لساها صغار... جمتي جولتي تـچـوزي رافع... آخ منك انت يا ست الدار! لو مكتيش أمي...»

هبت بانزعاج: «كت عملت إيه يا وله!؟»

قبل يدها من جديد قائلًا:

«كت جدمت لك في المخابرات ولا حتى في الـچـيش»

«وهم اللي في الـچـيش ولا المخربرات دول يزيدوا عني في إيه!؟»

«على جولتك... دا حتى دماغك يوزن بلد بزيها.. بجولك إيه يمّا... الكلام معاكي چوّعني... فيه وَكل جاهز ولا...»

«حالًا يا نضري ستيتة هتحضر الوكل، على ما تتسبح يكون كل ما تشتهيه نفسك موچود... ومتنساش جول لچاسر هيتغدى عندينا النهاردة... معالي خرچت مشوار ومحضرتش الغدا»

قبل يدها مرة أخرى:

«تسلمي لي يا غالية، ويخليكي لينا كلنا... چواز إيه وبتاع إيه بس وأنا عندي أم الدنيا كلاتها»

ضحكت بتنهيدة قوية وهي تشيعه بنظراتها حتى غاب عنها وتمتمت له بالدعاء:

«ربي يرضى عنيك يا رافع يا ابن بطني دنيا وآخرة، ويسعدك مع بت عمك وأشوف عيالك عن جريب جادر يا كريم، ويهدي سرك يا معالي يا بت نفوسة خد من جلبي وسِر»

جلسوا على المائدة العامرة بكل خيرات الله ونعمه من طيور ولحوم وفواكه... على صدر المائدة كبير الرحايمة وقد جلس ابنه وابن أخيه عن يمينه ويساره... وبجوار رافع جلست ست الدار تملأ طبقه بالتتابع قبل أن يفرغ... وأمامها جلست فريدة... بانكسار حانية الرأس على طبقها لا تحيد عنه... ملابسها بسيطة، قميص كاروهات قاتم، وتنورة سوداء طويلة رحبة كالخيمة، وطرحة سوداء ملفوفة بإحكام حول عنقها... رمقتها ست الدار بنظرات مبهمة، ثم زغرت لجاسر الذي يكتسح الطعام وكأنه جرار الحصاد... تنحنحت ونادته:

«وانت مش ناوي تتهد يا چاسر وتبطل صرمحة وتلاجي بت الحلال اللي تهدي سرك!؟»

ألقى جاسر الملعقة من يده مستغفرًا: «أستغفر الله العظيم... وليه السيرة العفشة دي يا مرت عمي وإحنا بناكلوا!؟»

هبت فيه كالعاصفة الهوجاء التي تهب بدون إنذار: «هو الـچـواز سيرة عفشة يا وله!؟ ما تجعد عوچ وتتكلم عدل!»

«عمي... أحب على يدك... سايج عليك كل الأوليا خلي مرت عمي تطلعني من نافوخها»

ابتلع وهدان طعامه المحشور في حلقه وأجلاه ضاحكًا: «لحد اهنِه... ومعطلكش... ست الدار لمَّن تحط حد براسها مبيطلعش منيها ولا بالطبل البلدي... وانت خابر مرت عمك زين... نصيحتي... اسمع كلامها واتـچـوز خير الضررين»

«يابوووووي!! أتـچـوز مين بس هي العرايس واجفين على حيلهم طوابير جدام السراية»

هبت باندفاع: «إيوه... وأولهم بت عمتك فريدة أهه... منتظرة إشارة من يدك»

رمق فريدة باحتداد، والتي استحال وجهها كحبة الطماطم الحمراء... وفجأة غصت بدموع القهر وقد أبى الطعام المرور من حلقها... وضعت يدها على فمها وركضت هاربة ولم تجب نداءات زوجة خالها: «مالك يا بت!!؟ بت يا فريدة مالك ردي عليا يا بت!»

«انتي غلطانة يمَا... مكتيش خزيتيها جدامنا إكده... انتي خابرة فريدة زين بتخزى من خيالها»

زغرت لجاسر الذي عاد يكتسح الطعام بانتصار: «هو السبة في المشكل ده... لو مكانش ناحرني واتـچـأر جصادي مكانش حوصل اللي حوصل... طيب يا چـاسر ورحمة أمك نفوسة ما هيعدي سبوع إلا وأنا مـچـوزاك»

«هع... سبوع بس يا مرت عمي!؟ طب بحبحيها هبابة... خليها سبوعين»

«انت بتتحدى ست الدار يا چـاسر !؟ وشايفني مش كدها!؟»

تهكم ضاحكًا: «لا العفو... كدها وكدود... سلام يا مرت عمي... أشوفك بعد سبوع... هع.. هع»

راقبته بغيظ حتى غادر المكان يلوِّح لها وقد تعالت ضحكاته بسخرية.
«أما... يمَا... اتهادي بالله، مالك بس مشعشعة معاكي حكاية الـچـواز اليامين دول... بجولك إيه.. خليكي في فريدة وشيلي چاسر من راسك نوهائي... حرام عليكي فريدة مش حمله هي الغلبانة ناجصة بلاوي لما تبليها بـچــاسر !؟»
«دا بس بيستهيأ لك... هي فريدة لـچــاسر وچاسر لفريدة... وبكرة چاسر ياچـي ويحب على يدي على الجميلة اللي عملتها له»
تنهد رافع: «يعني مافيش فايدة!؟»
جاء صوت والده من جواره: «ريح راسك يا رافع أمك خلاص... مش هتنام إلا لما تعمل اللي براسها... انت بس ادعي لـچــاسر ربنا يصبره على ما بلاه.. أمك و.. هع هع... فريدة هع»
هبت بعتاب:
«انت بتتمألت عليا يا حاج!!؟ ربنا يسامحك... وأنا اللي بفكر في الموصلحة... وأنا كان چـايني إيه من وچـع الراس دي!؟»
«وهو أنا أجدر يا أم الغالي!!؟ بس كلمة بيني وبينك... انتي چـيتي على البت... فريدة متستاهلش منيكي إنك تخزيها جدامنا»
زفرت بضيق وكأنها تشعر بغلطها بدون أن يسمح لها غرورها بالاعتراف: «إيوه... انت عندك حج في دي يا حاچ... أنا هروح وأراضيها»



انفجرت في البكاء الذي كتمته طويلًا حتى اختنقت به أنفاسها... أحكمت إغلاق باب غرفتها بالمفتاح وبدأ نشيجها يعلو حتى كاد يشق صدرها من الألم... ألم اليتم والقهر أكثر وجعًا... ماذا يفعل اليتيم في غابة من أشباه البشر!؟ بداية بوالدها الذي تخلي عنها بعد وفاة أمها، وتزوج فتاة في مثل عمرها، لتجد نفسها فجأة وحيدة، عرضة لكل ذي ناب ومخالب طامع في قطعة لحم سائغة بدون حماية.

وجدت نفسها مجبرة على قبول استضافة خالها.

خمس سنوات منذ هجرها والدها لم تسمع منه خبراً، لم يسأل عنها، وكأنه أسقطها من حساباته، انشغل في حياته مع دنيا جديدة تخلو من همها، وكأنها لم تكن... لم تجد يومًا سببًا للشكوى من معاملة خالها وزوجته... ولكن إحساس اليتم القاحط في كل يوم يزداد توغلًا في ذاتها، يذيبها، يعتصر روحها من الداخل، يحولها لقوقعة فارغة... مجرد هيكل مزخرف من الخارج وخواء مرعب من داخلها تصفر فيه الريح وتعوي... عاشت أوجاعها حتى دجنتها، ولكن في بعض الأحيان يفوق الألم قدرتها على التحمل... كما حدث هذه الليلة، عندما عرضتها زوجة خالها على جاسر، وكأنها كائن طفيلي يعيش على كرمهم وإحسانهم، محروم من حق الاعتراض، أو حتى القبول. تصدرت صرخات الاعتراض حلقها ككتلة من الحجارة، وهي تشهق وتلطم خديها بحرقة:

«رِخصْتي... رِخِصْتي يا فريدة خلاص... بجوا يحدفوكي على بعض كيه الخرجة الدايبة... محدش عاد طايجك... محدش عاوز يطّلع بخلجتك... كبرتي وهمك تجل وياكي... الله يسامحك يابويا.. الله يسامحك»

اعتدلت أمام المرآة تتحسر على جمالها المطمور... شعرها الأسود الغزير المعقود جديلتين... جبهتها العريضة... عينيها الواسعتين المكسورتين بأغلال اليتم الثقيلة... ملابسها التي لم تكن أبدًا لها، تخفي بمهارة قدها الممشوق... أشاحت عن المرآة وقفزت على فراشها المحشو بدموع ليالٍ طويلة من الهموم، لتجهش في نوبة جديدة من الأوجاع.



«هه... خير يا مرت عمي؟ الأخبار زينة ولا عفشة؟»
«بسم الله الرحمن الرحيم! هم بيطلعوا الساعة كام!؟ چعزتيني يا بت المزغودة!»
جلست معالي جوارها تسألها بلهفة:
«متأخذنيش يا مرت عمي... دخلت عليكي من غير إحم ولا دستور... بس اعذريني... ريحي جلبي الله يريح جلبك... كلمتي رافع... هه؟؟»
أمالت ست الدار عنقها بتعالي: «وإن مكتش..؟»
هبت معالي برجاء:
«سايج عليكي كل الأوليا ما توچعي جلبي... كلمتيه... ولا مكلمتهش؟»
بعد لحظات صمت وإمعان في الضغط على أعصاب الفتاة المتلهفة:
«إيوه... اتحددت معاه... و....»
قاطعتها الفتاة بلهفة وشوق لم تكلف نفسها عناء مداراتهما:
«وإيه يا ست الدار، انطجيها بجى أحب على يدك وراسك»
ربتت على ركبتها بشموخ:
«خلاص يا بت يا معالي... زغردي»
شهقت الفتاة من السعادة:
«بالله عليكي صحيح!؟ طب احلفي»
هبت فيها ست الدار تداري ضحكتها بغضب زائف:
«انتي اتخبلتي يا بت!!؟ كلمة ست الدار بعشر رچال... وأنا جولت ومافيش جول بعد جولي»
صرخت الفتاة بجنون وهي تحتضن زوجة عمها:
«ربنا يخليكي يا غالية يا أم الغالي... ربنا ميحرمنيش منيكي ولا من أخبارك الزينة»
حذرتها تلوح بسبابتها في وجهها بتهديد أكثر منه تحذير:

«بس خدي بالك يا بت يا معالي... رافع الحيلة... مافيش لا جبليه ولا بعديه... تحطيه في حباية عينك اليمين... وأمه في الحباية الشمال... وإلا واللي خلج الخلج... اخزجلك عيونك الـچـوز»

أحاطت معالي جسدها بذراعيها بتنهيدة قوية وأخذت تدور حول نفسها، وكأنها لا تصدق السعادة التي تتجمع أطرافها أمامها، وتنعقد خيوطها لتغزل فستانها الأبيض في خيالها، ولم يتبق غير خطوة واحدة فقط... لتجد نفسها تنهل من نبع السعادة الصافي، تمد راحتيها وتعب منه حتى سكرات اللذة... أخيراً.. رافع سيكون حلالها بلالها...



«ما تاكلي يا زينة! مبتاكليش ليه يا بتي الوكل مش على هواكِ!؟ أنادم على مسعدة تعمل لك وكل غيره؟»

وضعت يدها على بطنها بتأوه:

« لا يا بابا... أنا أكلت كتير جدًا، مش قادرة آكل ولا لقمة زيادة»

«فين الكتير دا!؟ انتي الوكل جدامك ولا نبش الزرزور»

شهقت بتأكيد: «الأكل دسم جدًا يا حاج... شوية على ما أتعود تاني... انت سيد العارفين، الأكل في فرنسا عامل إزاي»

رمق زوجته بضيق:

«انتي هتجوليلي!؟ الله يمسيها بالخير أمك، والكلام على سماعها... نشفِّت معدتي في الكام سنة اللي جعدناهم هناك في أول چـوازنا، لما معدتي نسيت الزفر والدهن... فاكرة يا فال؟؟»

ضحكت برقة وقد احمرت وجنتاها شديدتا البياض: «مون ديو... وبأدين مآك يا ردوان!؟ انت مش هتنسى هالص!؟»

قهقه ضاحكًا: «يا بوووووووي! انتي لسة بتخزي يا ولية!؟»

زمت شفتيها بانزعاج وصرت على أسنانها:«ردوان!»

ضحك مرة أخرى: «خلاص متتزرزريش.. مش هجولك يا ولية تاني»

تجاهلته وهي تنادي سيف:

«سيف حبيبي... انت ليه مش بتاكل!؟»

« لا يمّا... أنا أكلت، ولو المحروسة زينة خلصت ممكن نتحددتوا في الموضوع»

زغر له والده:

«اتهادى بالله يا سيف... اصبر يا ولدي الدنيا مطارتش، متبجاش محراج شر على طول إكده... أهدى وشم نفسك»

هب بعصبية يكاد يلقي بالمائدة بعيدًا من شدة غضبه: «لع طارت يابوي... ولازم المحروسة تعرف إنها معادتش تخطي برچليها برات البلد واصل إلا على الجرافة، أو لبيت چوزها»

هلعت زينة فنظرت لأمها تطلب العون... أومأت لها كي لا ترد على أخوها، ثم نادت زوجها متجاهلة سيف:

«تحب أكدم لكم الشاي هنا، ولا في البراندا؟»

وقف رضوان يلملم عباءته حول عنقه:

«لا.. في البرندا يا فال... الجو كتمة إهنة... وچاي على بالي أشم هوا نضيف»

وزغر لابنه بضيق قبل أن يشير لزينة كي تلحق به، ولكنهم توقفوا عندما سمعوا ذلك الصوت الصغير:

«وأنا هاجي معاكم؟؟..»

مد رضوان يده بابتسامة كبيرة ليمسك بيدها:

«طبعًا هي الجعدة تحلى من غير زينة البنتة كلاتهم!؟ تعالي يا هنايا وافتحي نفسي اللي خوكي سدهالي..»

أمسكت بيد والدها ثم التفتت برأسها وأخرجت لسانها لسيف بحركة طفولية... ضحكت زينة ثم قلدتها وهي تمسك بيد والدها الثانية... ضرب سيف بقدميه في الأرض حتى كاد أن يخترقها وهو يتبعهم بصحبة عواصفه المدججة، حاجباه متحدان بعقدة، وكأنهما على وشك شحن معركة ضروس.

أخذ آخر رشفة من كوب الشاي الصعيدي الثقيل... أخرج تنهيدة طويلة، ثم نظر لابنه المنتظر على أحر من الجمر، فرأى عينيه تكاد تتوهج من بين زفراته... ألقى نظرة خاطفة على زوجته... أدرك قلقها مما هو آت، طمأنها بنظرة من عينيه، كما يفعل معها دائمًا، فاستكانت محتضنة ابنتها الصغيرة، بينما صوته يعلو فوق الأنفاس المترقبة: «خير يا سيف... اتفضل احكي؟»

كأنه فوجئ بالطلب رغم كل استعداده، أشاعت نظرات والده النافذة الفوضى في كيانه، وكأنه أفرغ خزنة رشاش آلي في صدره دفعة واحدة... بعد لحظات استجمع فيها نفسه... زغر لأخته المنتشية بحالة الارتباك التي يمر بها... فاحتدت نظراته وبدأ بالهجوم: «يابوي لازمن تكون عارف...»

قاطعه رضوان بهدوء شديد:

«ولما أنا لازمن أكون عارف... چـنابك مكلف خاطرك بتجولي ليه!!؟؟»

اشرأب برأسه يفكر بسؤال والده... ضم شفتيه بقوة وتابع: «يابوي الله يخليك... أنا وانت جبل سابج اتحدتنا في الموضوع ده بالخصوصي؟؟ وزينة معادتش صغار... ولا آني غلطان؟ اللي في سنها عيالهم بجوا في الإعدادية دلوك... ومش دي العوبارة...»

قاطعه والده مرة أخرى بنفس الهدوء:

«أمال إيه العوبارة يا سيف بيه؟ اشچـيني»

زفر منتفضًا متجاهلًا سخرية والده: «العوبارة يابوي وانت سيد العارفين إنه معادش ينفع إنها تروح وتاچـي بروحها إكده... زي ما يكون... زي ما يكون... عيارها فالت»

شهقت زينة تنتفض من مكانها، بينما اعتدل والده في مكانه يكاد يخترقه بسهام عينيه المهددة:

«انت واعي لحديتك الماصخ ده!؟؟ لسة متخلجش اللي يجول على زينة البداري كلمة بطالة»

«يابوي... يابوي... إحنا لسة هنستنوا لما حد يجول!؟ أهه... شوفت عينك، شوف داخلة البلد لابسة إيه؟؟... وسايجة العربية بنفسيها، وشعرها سايح ونايح... لو كان حد من الرحايمة شافها واتراذل عليها، كان الدم هيوبجى للركب وبسبة السنيورة بتك»

ارتكن رضوان على عصاه الخيزرانية يرمقهما، سيف بوجهه الأحمر المتعصب، وعروقه النافرة؛ وزينة بوجهها الشاحب، وعينيها الزائغتين، وكأن مصيرها سيتحقق في هذه اللحظة... أخرج تنهيدة كبيرة وهو ينظر لابنته:

«جولتي إيه يا زينة؟؟ عندك رد ترديه على خوكي؟؟»

تجاهلت وجيب قلبها وهي ترمق أخوها بتحدٍ، بعكس النظرة التي أولتها لوالدها وهي تعاود الجلوس جواره: «بابا... هو مش حضرتك واثق فيا؟؟»

زم فمه بامتعاض:

«مكنتش خليتك تخطي عتبة الدار من أساسه»

هتفت بحماس:

«أهه زي ما حضرتك بتقول... وانت خليتني أسافر فرنسا، وأعيش مع خالتو هناك علشان أتعالج... فين المشكلة!؟؟»

هب سيف بصوت مرتفع:

«دي لسة بتسأل!!؟ وهي حـچـة العلاج دي ملهاش آخر!!؟؟»

زمجر والده بتهديد:

«سيف... اجفل خاشمك لما خيتك تخلص حديتها»

ازدردت لعابها ممتنة للفرصة التي أتاحها والدها، والتي يرجع معظمها طبعًا لأمها الغالية التي كانت ترفع لها إبهامها خلسة لتشجعها:

«دلوقت يا بابا إيه الجديد!؟إحنا زي ما إحنا، وأنا لسة مخلصتش علاجي»

أوقف اندفاع سيف بحركة من يده فابتلع لسانه، حتى كاد أن يغص به، احمرت عيناه وتسارعت أنفاسه وهو يستمع لوالده يحدثها باللين: «اللي اتغير يا زينة إنك كبرتي يا بتي... وزي ما أخوكي جال... چـه أوان تعاودي بلدك وتكملي علاچـك اهنية... وخيوبِ عليا أحسنها دكاترة في البلد كلاتها معبخلش عليكي بحاچـة واصل، من چنيه لمليون لو لزم الأمر»

زمت فمها بغيظ وهي تلمح ابتسامةأخيها الشامتة... فهبت باندفاع غاشم:

«بابا حضرتك عارف إني مش هينفع اتجوز وأنا بتعالج... مش أي حد هيقدّر حالتي، خا صةً لما يكون راجل من المجتمع بتاعنا دا... وأنا... أنا اتعرفت على واحد في فرنسا... عارف بحالتي وموافق إنه يستناني لما أخلص علاجي، ومتفهم تمامًا لحالتي... وهو عاوز يخطبني من حضرتك، وبالمناسبة هو كمان الدكتور اللي متابع حالتي»

أعقبت كلماتها لحظات من الصمت الذي يخفي خلفه ألف سؤال... هربت شجاعتها وهي تشيح بعينيها عن ردة فعل والدها... أما سيف، كما توقعت كل حركة سيقوم بها.

انتفض مهتاجًا ليطيح بأكواب الشاي التي وضعتها أمه منذ دقائق، ولم يبالِ بتحطيم كل شيء عليها وهو يصرخ:

«انتي بتخترفي بتجولي إيه!!؟؟»

تهدج صوت والده بنبرة أعلى:

«اهمد يا سيف خلينا نسمع لخيتك!»

«نسمعوا!؟... نسمعوا إيه يابوي!!؟إحنا سمعنا واللي كان كان، وكل اللي يسوا واللي معيسواش هيتفرچـوا علينا... بتك هتحط راسنا في الطين يا حاچ رضوان!»

صرخت زينة بانفعال:

«ما عاش ولا كان اللي يوطي راسك يا بابا... أرجوك اسمعني... أنا لسة مكملتش كلامي»

اعتصر رضوان مقبض العصا بيده وهو يرمق زوجته بنظرة مختلسة يستمد منها الصبر والتفهم... أمدته بما يحتاج بنظرتها المطمئنة، وكأنها وبعد كل هذه السنوات، ما تزال تحتوي بفطرتها الناعمة همجيته البدائية التي جبل عليها، والتي دجنتها من يوم سارت بأوردته مسرى الدماء.

«كملي يا زينة... كُتِّي بتجولي إيه يا بتي جبل ما يجاطعنا وابور الزلط اللي ملهش فرامل؟»

وضعت يدها على صدرها لتهدِّئ من ضربات قلبها المهتاجة... رمقها والدها بنظرات قلقة، هبّت أمها نحوها بهلع... هدأتها بحركة من يدها أنها على ما يرام... تجاهلت نظرات سيف وركزت على والدها وهي تكمل:

«الحكاية يا بابا أن ضياء هو الدكتور اللي بيعالجني في باريس... وخالتو بتثق فيه تمامًا، وهو حد محترم جدًا، وقبل ما أنزل طلب مني إنه ييجي ويقابل حضرتك علشان يطلبني منك... بس هي دي كل الحكاية»

ضرب سيف كفيه ببعضهما صارخًا: «والله عال! هي حصلت كمان!!؟ المرة الـچـاية ارچـعيلنا بعيل على كتفك»

صرخ رضوان:

«سيييييف! أنا لسة بصحتي على وش الدنيا... لما أبجى أغور من وشك، ابجى علّي صوتك وبيع واشتري في خواتك بكيفك»

«بس يابوي...»

«ما مبسش... الكلام خولص. وانتي يا زينة... جفلي على الموضوع»

«بس يا بابا...»

«هو إيه اللي بيوحصل في البيت دا!!؟لا كبير ولا صغير بيسمع الكلام واصل!؟ ولا أنا اللي معادش ليا عازة في المخروبة دي!!؟»

هبت فاليريا تمسك بيده:

«هسك في الدونيا يا ردوان»

شعر وكأن ناره خمدت بفعل الثلوج المنصهرة من زرقة عيني حبيبته... تنحنح ليجلي صوته نافضًا عن رأسه ذلك الضعف الوشيك: «خلصنا حديت في الموضوع ده... ويكون في معلومك يا زينة... بنات البداري مبيتـچـوزوش من براة العيلة واصل»

بهتت زرقة عينيها الشبيهتين بعيني أمها... وهددتا بتحطيم حصون أهدابها الطويلة وإغراقهم بدموعها... ولكنها تماسكت وهي تعتصر عينيها كي لا تمنح سيف الشعور بالشماتة:

«داكور بابا... أنا مش هعارضك... بس علاجي في باريس لسة مخلصش والدكتور يـ...»

قاطعها: «انتي مش يوم ما طلبتي مني إني أسمح لك تروحي وتتعالچـي في بلاد برة، سمحت لك ومعارضتش، وبجالك سنتين بحالهم!؟ هي الحكاية دي ملهاش آخر!؟ ولا هو العلاچ مليح مع حضرة الدكتور ده بالعنية؟؟؟ أنا عند كلمتي... العلاچ اللي هتحتاچيه، لو طلبت هـچيب لك دكاترة بلاد برة لحديكي اهنية... ولو عاوزة المشتشفى كلاتها هـچيبها... وأنا حدايا كام زينة!؟»

في محاولة التحكم في دموعها التي على وشك إعلان هزيمتها: «أيوه يا بابا بس...»

رفع يده فابتلعت كلماتها وهو يحدجها بتلك النظرة التي تُخرج كل ما في أعماقها فشعرت كأنها مكشوفة أمامه تمامًا: «خليص... الكلام خلص... أنا كد جولي، اعملي اتصالاتك، وشوفي هتحتاچـي إيه وبلغيني، وخيوبِ عليا لو احتـچـتي حاچـة ومـچـتش يوبجى تعملي اللي انتي عاوزاه... أظن عداني العيب... ولا إيه يا فال؟؟»

هزت فاليريا رأسها بحذر: «داكور ردوان... بس لازم زينة ياخد فرصة... وكمان سيفيل أختي آامل حسابه إن زينة هيرجا أنده»

تنهد عاقدًا يديه متقاطعتين على رأس عصاه الغليظة:«والمطلوب؟؟»

هتفت زينة: «وقت... وقت صغير مش كتير لحد ما أرجع، وأخلص ارتباطاتي»

سخر سيف بتهكم:

«تجصد ارتباطها مع الباشمهندز»

اضطرت زينة لتدافع عن نفسها، التصرف الذي لم تضطر له أبدًا في حياتها:

« أولا هو دكتور مش مهندس.. ثانيًا... بابا أؤكد لك إن...»

قاطعها والدها:
«أنا واثج فيكي يا زينة... وهعطيكي الفرصة... هو شهر واحد مافيش غيره، تعاودي تخلصي ارتباطاتك، وتـجـيبي أوراجك وإحنا نستجضوا لك من حدانا داكتور زين وابن ناس»
وهنا لم تستطع كتم ضحكتها أكثر:
«داكتور زين إيه وابن ناس إيه بس يا حاج!؟ هو أنا هخلله!؟»
لوح بيده: «اسمه اللي اسمه، انتي هتعدلي عليا يا بت امبارح انتي!!؟ مش هو اسمه داكتور يا فاليرية؟؟»
أجابته ضاحكة: «داكور يا ردوان... صه يا زينة؟؟»
أومأت ضاحكة: «داكتور داكتور... إش أكون أنا علشان أعدل على حجوجي حبيبي!؟»
تأملهم سيف بغيظ شديد وهب باندفاع: «يا سلام! وخليص... الحكيوة خلصت وكنك يابو زيد ما غزيت!!؟»
رفع رضوان رأسه يتأمل ابنه والضحكة لم تفارق شفتيه: «زيد إيه وعبيد إيه!؟ هو البعيد مبيفهمش!؟ ما جلنا خليص، اللي انت رايده هيوحصل... عاوز إيه تاني يا وش البومة انت!؟»
«يابوي ماهو مينفعش إنها تعاود تاني لحالها لبلاد الخواجـات دي!!»
هتفت فاليريا: «آه سيف هبيبي... مش كنت تكول كده من أول!؟انت آاوز تروه باغي (باريس)؟»
أومأت زينة بتفهم:
«كنت قول كده من الأول يا أخي بدل ما انت قاعد تنخور لنا فيها!»
قهقه رضوان:
«تجولي إيه... خوكي وانتي خابراه زين... محراج شر، أعوذ بالله»
لوح بيده مدافعًا بارتباك:

«لا.. انتم فهمتوني غلط... أنا مجصديش..»
قاطعته فاليريا بابتسامتها الجميلة: «موش فيها هاجة يا سيف... انت رهت لباغي مرة واهد بس وانت صغير... انت رجل ولازم تلف وتشوف الدنيا... مش كده يا ردوان؟»
زفر رضوان بتعب:
«ما ينفعش يا فاليرية... سيف دراعي اليمين... وزي ما انتي خابرة... كل يوم والتاني تجوم عركة مع ولاد الرفضي (الرحايمة).. سعادة البيه يلف الدنيا ويخليني لحالي... وهو أنا كت خلفته ليه؟؟»
«ماهو يابوي... لا الرحايمة هيبطلوا عراك، ولا البدراي هيبطلوا نِجار... وأنا مش عاوز ألف الدنيا ولا حاچـة... يكفيني الشهر اللي زينة هتعاود فيه... أشم نفسي شوية... وأشوف خلج غير الخلج... بيجولوا الحريم هناك بالألوان الطبيعية... ولامؤاخذة يا أم سيف... انتي بجيتي مننا وعلينا»
أومأت فاليريا:
«ياني إيه!!؟ مش فاهم!!»
تنحنح رضوان وهو يزغر لابنه بحنق:
«متاخديش في بالك يا فال... الواد ده أصله ناجص ربايه، ولسانه متبري منيه»
تنهدت تتجاوز الموضوع وتابعت:
«وافك يا ردوان... سيف أول مرة يطلب طلب... اممم... بس فيه مشكل واهد!!»
صاح سيف: «ربنا ما يـچـيب مشاكل»
«لأ يا سيف فيه مشكل واهد... فاكر لما كنت بدرّس انت لغة فرنسي؟ زينة وهَنا بيتكلموا فرنسي، وانت كنت تهرب مني وروه مع إيال في الشاري... إزاي روه فرنسا وانت مش بتتكلم لغة فرنسي!؟»
قهقهت زينة بشماتة:

«مش مشكلة ماما... أنا هبقى أترجم له»

ضم أصابعه في قبضة متشنجة مهددًا، عندما صاحت هَنا: «انتم شكلكو نسيتوني! ولا علشان قاعدة ساكتة ومش بتكلم... وأنا كمان عاوزة أسافر معاهم... ممكن سيف يعيِّني مترجمة خاصة ومش هاخد كتير... خمسة يورو بس في الساعة»

قهقه رضوان:

«والله عشنا وشفنا الحريم بيبيعوا ويشتروا فيك يا سيف، وانت واجف كيه الصنم لا بتصد ولا بترد»



۞ ٣ ۞

«الزمن بطيء جدًا لمن ينتظر.. سريع جدًا لمن يخشى... طويل جدًا لمن يتألم... قصير جدًا لمن يحتفل... لكنه الأبدية لمن يحب.»
ـ وليام شكسبير

....

«السلام عليكم يا أهل الدار»

التفتوا جميعًا ناحية الصوت، وكانت زينة أول المرحبين:

«أهلًا أهلًا بمراة عمي وسمحة كمان... انتم سمعتم إني وصلت ولا إيه؟؟»

أخذتها زوجة عمها بين أحضانها ترحب بها بالطريقة الصعيدية، خمس قبلات طويلة ذات صوت كصفير متواصل على كل وجنة... وهي تتطلع لها بين القبلة والتانية.

«يا مشا الله يا مشا الله... اسم النبي حارسك وصاينك يا بنت سلفي، ألف حمد الله على السلامة... جيت أنا وسمحة ورشاد علشان نسلم عليكي... يا ألف مليون مرحب، البلد كلها نورت»

كانت تعانق سمحة ابنة عمها، وصديقتها منذ الطفولة عندما سمعت اسم رشاد فسألتها باندهاش:

«وهو فين مش شايفاه!؟»

رد أخوها بزغرة قاسية:

«انتي اتخبلتي!؟ عاوزاه يدخل إكده من غير إحم ولا دستور!؟»

ضحكت زوجة عمه بغنج، وطرحتها السوداء المطرزة بالخيوط الذهبية، والخرز الملون تتمايل حول غرتها الصفراء المصبوغة بماء الأكسجين: «ما تآخذهاش يا

سيف يا بني... يظهر إن عشرة الخواجات نسِّتها عوايدنا... معلوم ماهو البعيد عن العين بعيد عن القلب. اسم النبي حارسه وصاينه رشاد ابني عمره ما بينسى الواجب والأصول أبدًا.. دا حتى...»

قاطعها رضوان وهو يجذب ذراع ابنه:

«منورة البيت يا حاجة زينات خطوة عزيزة... أنا وسيف هنروحوا نرحبوا برشاد، وانتي خدي راحتك مع الحريم... كيفك يا سمحة يا بتي؟»

أمسكت يد عمها وقبلتها بحبور:

«نحمدوا ربنا يا عمي... بخير طول ما انت بخير»

ربت على رأسها المغطى بطرحة سوداء:

«الله يرضى عليكي يا بتي... وبوكي فين أراضيه اليامين دول؟»

هبت زينات تجيب سؤاله بالتواء في فمها:

«أهه موجود يا حاج... قاعد في البيت مستني فرج ربنا»

أجلى رضوان حنجرته وهو يحدجها بعدم ارتياح، ثم التفت لزوجته:

«فاليرية.. رحبي بضيوفك»

راقبته زينات حتى غاب مع سيف عن عينيها، ثم حركت شفتيها المذمومتين يمينًا ويسارًا وهي تنحني جوار أذن فاليريا:

«هو جوزك دا مافيش فايدة فيه!؟ دايمًا كده قِتِم ومش بياخد ويدي معايا في الكلام!؟ طايقاه إزاي دا يا فال يختي!؟»

أشارت لها فاليريا بضحكة قائلة بعتاب لطيف:

«وبادين مآكي يا زينات!؟كلت لك مش بهب هد يتكلم ألى ردوان وهش... هو بس مش بيهب يتكلم مع هريم... وانت بترغي كتير... اتفضلي... تشربي إيه؟»

رمقت زينة، التي أخذت جانبًا مع سمحة وهنا، وبدؤوا في ثرثرة البنات الخافتة، ثم التفتت لفاليريا:

«والله يا فال يختي كان نفسي أقولك نشرب شربات زينة ورشاد... بس أعمل إيه!؟ حكم القوي، نستنوا لما الرجالة يفتحوا الموضوع مع بعض...»

وعندما لاحظت وجه فاليريا الذي تخطت ألوانه ألوان الطيف، تمتمت بشفاه ممطوطة:

«هو دا اسمه إيه!؟ هي المحروسة بنتك هتلاقي زي ابني رشاد فين!!؟»

«آه... أكيد يا زينات... رشاد رجل مهترم... وانت كلت بنفسك... لما الرجال يتكلموا... بلاش نسبك هوادث»

أمسكت زينات بصدر ثوبها وبصقت به قائلة:

«تف تف تف.. الشر برة وبعيد... حوادث إيه يا حبيبتي الملافظ سعد!؟ بقولك إيه أنا مش بفهم نص كلامك... هاتي لي أشرب حاجة ساقعة أحسن»

«أخبارك إيه يا سمحة؟؟ ماشاء الله احلويتي وعلى رأي مامتك خرّاط الصبايا شكله عدّى عليكي... سنتين يعملوا فيكي كل دا؟؟»

«وانتي كمان يا زينة... عيني عليكي باردة يا خيتي... الله أكبر في عيني... لو كانت أمك تعرف تبخر كت جولتلها تبخرك»

ضحكت زينة:

«هو انتي يا بنتي اللغوة الصعيدي هتفضل معششة في لسانك!!؟ مامتك إسكندرانية ليه مش بتتكلمي زيها!؟»

تراجعت سمحة في مقعدها بعينين سارحتين: «لأني بحبها... بحب لغوتنا يا زينة... أنا بت صعيدية بوي وخوي وچـدودي صعايدة... هتنكر لأصلي ليه؟؟»

أدركت زينة أن ابنة عمها تخفي أسفل التماع عينيها البراقتين غموض مريب:

«شكلك مخبية عني حاجة يا سموحة... يا ترى إيه؟؟»

أشارت بعينيها خلفها، فالتفتت زينة لتجد أختها متابعة بصمت كالعادة... فأمسكت بيد ابنة عمها: «تعالي نطلع أوضتي نتكلم على راحتنا... هنّا... خليكي هنا حبيبتي»

زمت هنّا فمها حانقة:«من أولها كده!؟»

« هنّا... اعملي لمستقبلك... أو للهدية اللي مستنياكي في شنطتي»

صفقت بكلتا يديها بحماس مهللة:

«جبتيلي إيه يا زينة؟؟ هه.. جبتيلي إيه؟؟»

«أول ما أفتح الشنطة هتطلع لك هديتك... ممكن أنا وسمحة نكون على راحتنا؟»

أومأت هنا بنظرة ماكرة:

«أيوه طبعًا... براحتكم»

ثم أردفت بهمس لم يصل لآذانهما:

«وكأني معرفش انتم هتتكلموا في إيه! دنا هَنا البداري... مساكين! لسة مش مقدرين مواهبي... بكرة تعرفوا قيمتي»



«يا مُرحب يا مُرحب... كيفك يا رشاد يا ولدي؟»
«نحمدوا ربنا يا عمي... متآخذنيش طبينا عليكم من غير إحم ولا دستور»..
«لع يا ولدي متجولش إكده كَنّا أغراب إياك! الدار داركم... ولا انت حاسب نفسك غريب؟»..
قهقه سيف بسخرية: «والله يابوي أنا ماخابرش الواد دي چراله إيه! يابني ما تفكها شوية ربنا يفكها عليك... بجالك مدة كده كانن في نفسك، ومعتش بتسهر ويانا زي زمان... لتكونش عجلت وأنا مش واخد بالي! هع هع هع»
هتف رضوان:
«يمكن ربنا كرمه، وبِعد عن شلة المجاطيع اللي بتتصرمحوا وياهم كل ليلة، ولا فاكرني ماخابرش انت بتعمل إيه من ورايا؟؟»
«يابوي... انت خابر الشباب... لازم ناخدوها بالطول والعرض جبل ما نتجيد إيدين ورچلين.. ولا إيه يا رشاد؟؟ معاوزش تتشاجى شوية جبل ما...»
حاول التماسك كي لا يلاحظ أحد تفصد العرق على جبينه، و معدته التي تقلبت بالغثيان... أخذ عدة أنفاس عميقة، وقاطع سيف بحدة مبالغة: «مش هيوحصل!»
تبادل سيف ووالده نظرات مستغربة، وسأله رضوان بهدوء: «إيه دا اللي مش هيوحصل يا رشاد؟؟»
أخفض وتيرة نبرته، وأردف بهدوء متحكم فيه بصعوبة: «الچواز يا عمي... أنا بفكرش فيه واصل...»
ضحك سيف ضاربًا على ركبته: «ليه يا چدع!؟ دا الچواز نص الدين.. مش عاوز تكمل دينك!؟ عينك موجعتش على بت بنت حلال ومزيونة خطفت جلبك وعجلك؟»
تراقص طرف جفنه بتوتر، وهو يبعد يد سيف عن ساقه بخشونة:«لع يا سيف معاوزش، حد شريكي ياخوي!؟»

استغرب سيف تصرفه، وتبادل مع والده نظرات مرتابة: «لع يا ولد عمي... محدش شريكك... انت حر... بس يظهر والله أعلم إن أمك الحاچـة زينات لها رأي تاني»

«لا تاني ولا تالت... أنا مش هفكر في الـچـواز جبل ما سمحة خيتي تتـچـوز، وبعدها يحلها الحلّال»

هتف سيف:

«أهو على الحالة دي يابوي من يوم ما چـت له الحمى إياها وجعد في المشتشفى سبوعين.... من ياميها معاودتش رشاد اللي نعرفه»

تنهد رشاد وكأنه يستدعي ملكات الصبر:

«أنا زين يا سيف بس ماليش مزاچ أخرچ ولا أشوف حد... أنا حر يا ولد عمي حد شريكي!؟»

تبرم رضوان بضيق:

«بكيفك يا ولدي... كل شي بالخناج إلا الـچـواز بالاتفاج... جولي... تشرب إيه ولا بعد الغدا؟؟»



«يعني مش هتتكلمي يا سمحة؟»

«أجول إيه بس يا زينة... انتي جاعدة تجرري فيا ولا مأمور المُركز... خليكي مني، أنا أخباري كلاتها بايتة وماصخة... احكي لي انتي عن بلاد الخواچات... جولي يختي جولي خليني أتنفس شوي وأنا بتخيل العيشة هناك... النسوان شكلهم إيه... والرچالة عاملين كيه؟؟ زي ما بنشوفهم في الأفلام إكده؟؟ يعني الواحد منيهم بيعبط في الحرمة وسط الشارع جدام الخلايج وينزل بوس فيها ومحدش يجوله جرعة أبوك منين؟؟»

تراجعت زينة بنظرة استغراب:

«لأ طبعًا... الوضع هناك مش كده خالص... يمكن الأفلام بتبالغ شوية... بس فعلًا الناس هناك في حالهم محدش له دعوة بحد... الحب بحرية والعيشة بحرية... الست هناك واخدة وضعها، محدش بيتحكم فيها، وكل واحدة لها حرية تقرير مصيرها... لا أبوها ولا أخوها ليه الحق إنه يحكم عليها، خاصةً في موضوع الجواز»

ضاقت عينا سمحة قائلة بمسحة توبيخ:

«جوليها بالمفتشر... تجصدي رشاد أخوي... صوح؟»

«متزعليش مني يا سمحة... بس رشاد زي أخويا.. ومش بحس ناحيته بأي مشاعر تانية... يعني لو اتجوزنا هتبقى كارثة... أنا مش فاهمة إزاي بابا وعمي يقرروا مصيرنا وإحنا صغيرين بالشكل دا!!»

ضربت سمحة بكلتا يديها فوق رأسها تولول:

«يا سنة سوخة يا ولاد! يا ميلة بختك العفش يا رشاد يا خوي... تكونيش عشجانة حد من بلاد الخواجات؟؟»

تلاعبت زينة بأصابعها تحاول ألا تلتقي بعيني ابنة عمها: «والله... تقدري تقولي... هو مش عشق زي ما انتي فاهمة... بس هي راحة نفسية أكتر... ضياء

رجل چـانتي خالص... أي بنت تتمناه زوج ليها... تفكيره عميق، مؤمن بحرية المرأة... وكمان بحقها في التدليل والحب والحرية»

اعوجت شفتا سمحة باستغراب:

«في إيه!؟؟ تدليل... معناتو إيه الحديت ده؟؟»

أخرجت زينة تنهيدة طويلة:

«يعني... حتى لو قلت لك... مش هتفهمي»

استنفرت سمحة بعصبية:

«ليه!؟ شايفاني بهيمة جدامك!؟»

«لا لا سمح الله... البهيمة تزعل»

«جصدك إيه يا زينة يا بت عمي!؟ حاسبي على حديتك عاد»

تلاعبت زينة بعينيها بشقاوة:

«سيبك من قصدي يا سموحة يا حبيبتي دلوقت، وخلينا في المهم... تيجي نزوغ أنا وانتي في رحلة بالفلوكة؟ اوعي تقولي لأ»

عقدت سمحة ذراعيها على صدرها قائلة بعناد بعد تفكير دام ثواني: «لع.. لع.. لع»

تراجعت زينة وتمددت على فراشها، قائلة بابتسامة ماكرة تشبه لحد بعيد ابتسامة هَنا:

«حتى لو قلت لك مين اللي قابلني النهاردة من الرحايمة وأنا جاية على الطريق؟»

لطمت سمحة مولولة:

«يا خرابي! يا خرابي! مافيش غيره... هو عملها المنكوب على شبابه چـاسر»

اعتدلت زينة متسائلة باستغراب:

«وانتي عرفتي منين!؟؟»

ارتبكت سمحة ودارت عينيها بارتباك عن ابنة عمها: «هعرف منين يعني!؟ هو مافيش غيره سبة البلاوي كلاتها»
أمسكتها زينة من كتفها، لتعيدها مجبرة إياها على النظر في وجهها:
«طب عيني في عينك كده!»
لوحت بيدها لتبعدها عنها باستياء:
«واه يا زينة! ما تبجيش زنانة وحشرية كيه الدبانة الرزيلة! جُلت لك مافيش حاچة... انتي اللي بتوهي في الكلام، ومش عاوزة تجري عن اللي حوصل... وظني إن لا سيف ولا عمي يعرفوا حاچة... صوح الحديت؟؟»
«أيوه طبعًا... انتي هبلة!؟ كان زمان الدم بقى للركب.. ما انتي عارفة المخ الصعيدي بيفكر إزاي»
تنهدت سمحة:
«إيوه خابرة... ربنا يهديهم... وبعد ما جلاب النصايب جطع عليكي الطريج... حوصل إيه؟؟»
استمرت زينة بسرد ما حصل، متجاهلة الانفعالات المتباينة على وجه ابنة عمها، والتي لونته بجميع الألوان، بالإضافة إلى أن فمها لم يغلق مرة واحدة، حتى صرخت فجأة وهي تخبط على صدرها: «يا حومي يا حومي!! يا خرابي يا خرابي!! رفعتي يدك على چاسر الرحايمي!!؟ يا حومي يا حومي!! وجدرتي تعمليها يا بت البداري!!؟»
ترفعت زينة وهي تحلق بعينيها بكبرياء للسقف:
«أعملها معملهاش ليه!؟ مش هو اللي بدأ!؟ بس للأسف... قبل ما إيدي تسلم على وشه وصل اللي أنقذه مني..»
استمتعت بحماس سمحة المترقب وهي بانتظار تكملة الحكاية، ونطقت بالاسم الذي زاد من رعبها: «رافع... الرحايمي»
شهقت سمحة:

«رافع الرحايمي بذات نفسه!!؟ يا حومي يا حومي!! لو سيف ولا رشاد شموا خبر الدم هيوبجى بحور... يا لهووووي!! وبعدين يا خيتي إيه اللي حوصل؟؟»

«ولا حاجة... زي ما كان بيعمل واحنا صغيرين... عامل نفسه الفارس اللي مجابتوش ولّادة... شخط فيهم وهشهم قدامه زي الخرفان... وضحك عليا لما قلت له إني كنت هضرب ابن عمه...»

«وخولصت الحكيوة على إكده؟ الحمد لله... انتي انكتب لك عمر جديد يا خيتي»

«وليه الفزع دا كله!؟ بس قولي لي.. هو جاسر متعود يعمل مشاكل كتير كده؟؟»

التوى طرف فمها وهي تحركه يمينًا ويسارًا مثل أمها: «مش بجولك چلاب النصايب! وغير إكده... بيتمصخر كل ليلة مع الغوازي في الموالد... عياره فالت من يومه»

سألتها زينة سارحة في ملامح الفارس الأسمر التي بدأت تزور خيالها وتفرض نفسها على أفكارها، وترجمه جسدها بقشعريرة غريبة للذكرى:«إلا هو بيشتغل إيه؟؟»

«ولا حاچـة... عواطلي وداير على حل شعره... وبيشج على أرضهم كل حين ومين... چـبران خواطر يعني.. هو هيفوج للأرض ولا للغوازي»

أفاقت زينة من شرودها متسائلة بقرف:

«إيه دا... هو كمان بيجري ورا الغوازي!!؟»

انتبهت سمحة متسائلة:

«هو كمان!؟ هو انتي بتتحدتي عن مين؟»

«عن رافع طبعًا... أمال انتي فاكراني بتكلم عن مين!؟آه... جاسر!!»

ثم غمزت لها بمكر: «مش قلت لك فيه إنّ..»

اندفعت سمحة بعصبية:

«لا إنّ ولا ما إنّاشي... رافع بيدير تـچـارة الخيول تبع عيلته... بيسافر بلاد برة وبيشتري ويبيع الخيول الأصيلة... فوج ده وده... هو العاجل اللي فيهم... خلاص يا ست زينة... ارتحتي؟ هروح أشوف أمي زمانها كلت دماغ أمك»

أوقفتها قبل أن تغادر:

«سمحة... متنسيش... بكرة الضهر... الفلوكة»

أومأت برأسها بدون أن تترك لها الفرصة للمزيد من النظرات التي تكاد تفضحها.

راقبتها زينة تهرول مغادرة غرفتها ثم صفقت الباب خلفها... ضحكت معيدة رأسها على وسادتها، متلاعبة بخصلات شعرها الأحمر، تستعيد تلك اللحظات وهو يحدثها من فوق صهوة جواده الأبيض، وعرفه الأسود يتطاير في الهواء... تحيط بهما مهابة غريبة، يكاد الهواء حولهما يركع لسطوتهما، والأرض تلين تحت حوافر الجواد الدابكة... حتى عيناه... رغم لا مبالاته التي يحاول تصنعها... ولكن عينيه السوداوين استعمرتا زرقة شواطئها في لحظة... لحظة واحدة فقط... اخترقت كل دفاعاتها وأفقدتها السيطرة على تلك اللحظة اليتيمة... ولكن آثارها الجانبية عاثت بها فوضى... ملأت صدرها بالهواء مستعيدة تلك اللحظة مرارًا وتكرارًا وكأنها اسطوانة مشروخة تعيد نفسها بدون كلل.

غلبها النعاس وذراعاها تحتضنان جسدها، مستمتعة بتلك الرجفة اللذيذة وهي تنزلق في عمق سواد عينيه اللانهائي... ربما هي رائحة المكان... غرفتها، الوسادة، الأرض، الوطن... ولكنها نامت كما لم يغمض لها جفن منذ عامين كاملين.

فتحت عينيها تشعر بشفتيها مفترقتين بابتسامة اتسعت عندما رأت أمها تجلس جوارها، تداعب شعرها كما كانت تفعل وهي صغيرة، وعلى الجانب الآخر تمددت أختها الصغيرة تحيط خصرها بذراعيها، كأنها تخشى إن أفلتتها تتبخر كأنها حلمٌ تبدد... تمتمت بكسل: «بونـچـور ماما»

أطلقت فاليريا ضحكة ناعمة:

«كصدك بونسوار بيبي»

هبت من مكانها فتململت هَنا تنوح بصوت ناعس: «انتي هتروحي فين؟؟ خليكي معايا»
أمسكت زينة يدها مطمئنة:
«أنا مش هروح أي مكان حبيبتي»
ثم التفتت لأمها متسائلة بفكر مشوش:
«إحنا الساعة كام دلوقت؟؟»
«الأشا أذن من... وكت كصير»..
«يااااااه يا ماما... وليه سبتيني نايمة كل الوقت دا!؟ وإيه الأصوات دي؟؟»
هزت أمها برأسها وكأنها مستغربة السؤال، فهتفت هَنا ضاحكة: «شكلك نسيتي بلد صوالحة»
ركزت أفكارها للحظة ثم هتفت: «آه... طبعًا إزاي أكون في الصعيد وأنسى كونشرتو الليل العادي!؟ زي ما يكونوا بيتنافسوا مين عنده بارود أكتر من التاني! الدنيا عدت القرن الواحد وعشرين وإحنا لسة واقفين عند القرن التمنتاشر... بذمتك يا فاليريا حد يسيب باغي ويجي الصعيد!؟»
تنهدت فاليريا وعيناها تهيمان بالعشق، فتأوهت هنّا: «يعني كان لازم تيجي على الجرح!؟ أهي عملت زي الحاج رضوان وسرحت في الذي مضى»
زمت الأم شفتيها بتوبيخ:
«إيب بنت... انت ناكص تربية»
توسدت زينة صدر أمها بتنهيدة راحة:
«إلا قولي لي مونشيري... حبيتي الراجل دا إزاي؟؟»
«أنا هكيت لك الهكاية دي كتير زينة»
«ولسة عاوزة أسمعها ماما... عاوزة أصدق إن ممكن في زمانا دا اللي الصوت فيه مش بيتسمع إلا بالبارود والرصاص... ممكن الحب يغلب... ممكن العشق يدخل قلب رجل صعيدي، ويتحدى بيه الدنيا كلها... زي ما بابا عمل معاكي»

هامت عيناها مرة أخرى بدموع الذكريات الجميلة:

« أبوك راجل أظيم... يوم شفته مكدرتش أنزل إيني... وأكدت إنه راجل لي أنا وبس... هو كان مشكل شوية... بس مش أصلج كتير»

شهقت الفتاتان بالضحك وهتفت زينة:

«أصلج يا فاليريا!؟ فيه حاجة في الحب اسمها أصلج»

احمرت وجنتا أمها بشدة بخجل:

«يووووه زينة انت أارف كصدي... أنا بهب ردوان وهو كمان... وهوب زي دا أتمنى تلاقيه انتي وهَنا... بس مش كتير ممكن نلاقي ردوان تاني»

تراقصت حواجب زينة:

«أيوه يا حاجة فاليريا... ومين يشهد للحاج رضوان!»

قرصت أنفها موبخة وهي تسألها:

«انتي بنت شقية هتاخد أنا في دوكة ومش تقولي.. إيه حكاية دياء دي؟ سيفيل تعرف موضوع دا؟؟»

قرضت زينة شفتها السفلى متنهدة باستياء:

«أيوه ماما... هو شخص ممتاز كتير»

«بس هو مش فرنسي»..

«لا ماما... هو من المغرب عاش طول عمره في فرنسا... وكان الدكتور المشرف على علاجي... وعدني يبني لي فيلا في أي مكان أنا أختاره... وتقريباَ سيف فكرني... كنت نسيت تقريباَ المخ الصعيدي بيشتغل إزاي... مش عارفة أعمل إيه!»

ربتت على يد ابنتها مطمئنة بابتسامة افتقدتها زينة كثيراَ، كانت بلسمًا لأيام الغربة التي شققت أحاسيسها وجففتها:

«اطمئن هبيبي... بس واهد واهد... وشوفي مامي هتأمل إيه»

قفزت زينة من مكانها لتقف فوق الفراش، غير عابئة بأختها التي انتفضت فزعة على صرخات أختها تتراقص بصيحات مهللة:

«يا حلاوتك يا فاليريا يا جامدة أوي!»

اتسعت عينا فاليريا متسائلة بصدمة:

«زينة انت كنت فين طول سنتين!؟ في باغي مش بيئملوا كده..»

جلست تحتضن أمها وهنا ضاحكة:

«مش عاوزة أصدمك يا فال، بس باغي اللي انتي تعرفيها تقريباَ مسحوها من على الخريطة»

هتفت هنا بإحباط:

«يعني كل الأماكن اللي ماما بتحكي عنها وشوّقتنا ليها مش هنلاقيها!؟ يادي الحظ!»

«انتي خلاص، حجزتي وقطعتي التذكرة وسافرتي!؟ يا بنتي اصبري على رزقك لما نشوف أخوكي هيعمل فينا إيه.. إلا هي طنط زينات مشيت إمتى؟؟»

أمسكت فاليريا رأسها قائلة بعينين تدوران:

«دي أمل دوشة رهيب في دماغي... رغي رغي.. الست دي هيهصل لها جنون، لو انت مش اتجوزت رشاد»

قهقهت زينة بضحكة رقيقة وهي تحتضن هنا:

«رأيك إيه يا هنون؟»

«رأيي إن طنط زينات تجهز شنطتها... في مستشفى المجانين بيحتاجوا لبس كتير»



تقلّب رافع على فراشه على كل اتجاهاته... ثم استسلم أخيراً ونهض مستغفراً... صورتها لا تفارق خياله.. بشعرها الأحمر الثائر، وملامحها المتمردة وكلماتها كطلقات الرصاص، وجرأتها! بدلًا من مشاعر الاستياء التي توقع أن تغلق كل مشاعره تجاه فتاة مثلها، تدور على حل شعرها في بلاد الخواجات، وقد أعطاها أهلها الحرية الكاملة لتسافر بدون محرم، المفروض أن ينفر منها كما قد يفعل أي رجل يضخ في أوردته الدم الصعيدي الحار؛ ولكنها بكل أريحية متربعة داخل عقله ترفض مبارحته.

لم تتغير كثيراً منذ كانت في المدرسة. اعتاد أن يقف أمام المدرسة ليمنع أي مشاكل يمكن أن تشعل فتيل الحرب، الذي لا يلبث أن تهدأ شراراته حتى تشتعل من جديد... كما اعتاد أن يراها... متمايلة مختالة بشعرها وقوامها وزرقة عينيها... وكل ما ورثته عن أمها الخوجاية... كانت كياسمينة بيضاء برية نبتت في حقل برسيم... ولكن وصفها بالياسمينة أجحفها كثيراً... فهي كشعلة النار المهددة بإحراق أعصاب كل وأي رجل يراها ويتمناها... ولكنها كانت أبعد من السماء عن الأرض لأي شارب فكر باحتواء تلك النارية... ولكنه لم يفقد عقله كغيره ليعذب أحلامه بتلك المشعوذة الحمراء... ما الذي حدث له الآن!؟ كيف حدث وأحرقت كل دروعه الآن!!؟ ما الذي زاد عليها منذ أن كانت بمريول المدرسة!؟

لماذا تغتال عالمه وتقض مضجعه!؟ يتخيلها على وسادته كما في فيلم الوسادة الخالية... كان يسخر من رواية إحسان عبد القدوس، لم يتخيل رجلًا بكامل قواه العقلية يعشق امرأة لدرجة أن تسكن وسادته... استرق نظرة خلفية على وسادته، فطالعته ملامحها المريدة، وزرقة عينيها المهددتين بإعصار ثلجي لم تذيبه خصلاتها النارية. أمسك بالوسادة يشبعها ضرباً بقبضاته حتى اختفت صورتها... هز رأسه بابتسامة ساخرة: «أبشر يا رافع اتـچننت خلاص!»



سألتها سمحة بتشكك وهما تتسللان خفية بدون أن يراهما أحد:
«زينة.. ما بلاها الحكيوة دي.. لو رشاد ولا الألعن لو سيف شم خبر هنروحوا فطيس يا خيتي»
جذبتها زينة من يدها موبخة دون أن تتوقف:
«انتي بقيتي جبانة كده امتى!؟ ما أنا وانتي ياما خرجنا بالفلوكة... إيه اللي جد النهاردة!؟ وكمان البلد وحشتني أوي... نفسي أحضن النيل وأشم هواه... مدي بأة بلاش لكاعة»
« يا مُرّك يا سمحة! والله شكلك هتودرينا يا بت الخوچاية!»
ضجت زينة بالضحك:
«آه لو سمعتك! مش بتكره حاجة في دنيتها أد إن حد يقول عليها خوجاية!»
أثار انتباهها سيدة عجوز تفترش الأرض في الطريق جالسة، أمامها قفص قديم من أقفاص الفاكهة رصت عليه مجموعة من الحلويات الرخيصة الثمن. جذبت ذراع ابنة عمها هامسة: «سمحة.. مين الست دي؟؟»
رمقتها سمحة ثم مصمصت شفتيها بشفقة:
«إيه مفكراهاش!؟ دي الولية أم شندويلي... والبت اللي جاعدة على حچرها دي توبجى بت ابنها»
أومأت زينة بتفهم:
«آه مش دي الست اللي جوزها مات باين بعد ما اتجوزها بأسبوع؟»
«إيوه.. اسم الله عليكي.. هي دي... ولجت نفسها حامل بعديها وخلفت شندويلي، وجعدت عليه زي ما انتي خابرة ومدخّلتش عليه راچل واصل لحد ما چوزته... وزي ما يكون الفرح مش مكتوب لها.. أول الواد ما خلّف البت دي مات بعديها بسنة واحدة... وحصلته مرته حسرة عليه... وجعدت البت مع ستها تنضرها وتتحسر على شباب ابنها وشبابها اللي متهنتش بيه»
طفرت الدموع في عيون زينة:

«لا حول ولا قوة إلا بالله! مسكينة! إحنا لازم نساعدها يا سمحة»
«رچالة البداري مجصروش معاها، بس هي راسها كيه الحچر، مبدهاش مساعدة من حد واصل... ومش عاوزة حسنة من حد، والجول جولها إنها هتصرف على بت ابنها لحد ما تچوزها، لو ربنا كتب لها عمر»
«الست دي المفروض يتعمل لها تمثال... لو كانت في فرنسا كانت الدولة اتكفلت بيها»...
«الله يستر عرضك خلينا في مشكلتنا، وادعي ربنا اليوم يعدي على خير»
«بس ما تتزرزريش كده أهه! وصلنا... تعالي ساعديني نجر الفولكة للمية»
«يا وجعتك المطينة يا سمحة! چرّي يختي چرّي لما نشوف هيچرالنا إيه من چرايرك.. زينة.. زينة...»
«إيه!؟ مالك!؟ انتي مش هتبطلي نق!؟»
«لع.. بس... مخبراش.. الفلوكة دي منزلتش المية من زمان الزمان... متوكدة إننا مش هنغرجوا؟»..
كانت الفلوكة قد وصلت للمياه، ووقفتا لاهثتين تراقباها تتمايل بترقب... ثم قفزت زينة مهللة بفرحة: «دلوقتي أنا متأكدة... اتفضلي يا خوافة هانم... اركبي.. مش عارفة ملبستيش بنطلون ليه.. إيه الكركبة اللي انتي فيها دي!؟ ملس وطرحة وبلاوي من تحت كمان!؟»
زغرتها سمحة بحدة:
«بجولك إيه يا زينة... بكفياكي انتي يختي بزعطلونك اللي انتي شامطاه ده... والله لو رشاد خد خبر إني لابسة زعطلون ليشنجني بيه.. بكفاية النصيبة اللي چراني وراكي فيها.. اتفضلي يختي... اركبي..»
راقبتها زينة ضاحكة ترفع طرف جلبابها وتخوض في المياه حتى استقرت في القارب بصعوبة، بينما لحقت بها زينة بخفة تسترجع أيام الشقاوة، عندما كانت هي وسمحة تخوضان هذه المغامرة كل شهر تقريباً... ولم تدر ما الذي أصاب

ابنة عمها لتصاب بهذا الخوف فجأة لمجرد نزهة في النيل، بدون أن يشعر بهم أحد!

أمسكت زينة أحد المجدافين، بينما أمسكت سمحة بالمجداف الآخر. بدأت تتخلى عن قلقها، وتستعيد روحها المرحة، وإن كان بصعوبة بالغة، والمجداف يتلوى بين طيات الماء الأزرق... ويرتفع في الهواء ناثرًا رذاذًا منعشًا على وجهيهما... سرت عدوى الضحك والانطلاق في الفتاتين، واستمرتا بالتجديف حتى وصلتا لبقعتهما المنعزلة، التي اعتادتا الوقوف فيها لتأمل جمال المكان. استرخت زينة وهي تتمدد على حافة الفلوكة العريضة نسبيًا وتنهدت:

«تصدقي يا سمحة... مش أنا سافرت فرنسا... ولفيتها مدينة مدينة؟ وبيني وبينك رحت بلاد تانية كتير، بس ما تقوليش لحد أحسن سيف يجيله سكتة قلبية»

ضحكت سمحة وتوردت سمرة وجنتيها بفعل الشمس والماء، بينما أكملت زينة:

«رغم جمال كل البلاد دي.. بس محستش براحة زي اللي حساها دلوقت... يااااااااااه يا سمحة! شوفي السما حلوة ازاي!»

تطلعت سمحة لأعلى واضعة يدها فوق حاجبيها لتمنع أشعة الشمس من مضايقة عينيها، وهتفت بشفاه مقلوبة: «مالها السما!؟ عادية يعني.. هي السما عنديكم لونها إيه؟؟»

«زرقا طبعًا... بس مختلفة»..

سخرت سمحة:

«يعني الشمش عندينا مدورة وعنديكم مربعة!؟ والله انتي بتجولي كلام عـچـيب يا خيتي»

«انتي مش هتفهميني... بقولك إيه.. هو متجوز؟؟»

«هو مين ده؟؟»

« هكون بسأل على مين يعني!؟ رافع طبعًا»

«رافع الرحايمي.. وبتسألي ليه؟؟»

«يوووووه يا سمحة... ماتردي وخلاص!»

«لع.. مـچـوزش... بس بيجولوا جاري فاتحة بت عمه معالي... البت السَوْ دي... تجوليش ماچـابتهاش ولّادة»...

سألتها بمكر ونبرة ملاوعة: «طب وجاسر.. خاطب ولا قاري فاتحة؟»

تعصبت سمحة وانقلبت ملامحها وهتفت بعصبية: «لا دي ولا دي... البيه مش بتاع چـواز.. بتاع غوازي ومصاخر وبس...»

«مش البت فريدة السهتانة دي... فاكراها؟ اللي كانت معانا في المدرسة... مش هي بنت عمته؟»

ضربت سمحة يديها فوق بعضهما على صدرها بزفرة متحدية:

«إيوه يا زينة... هي بت عمته... بس معيتـچـوزهاش... عارفة ليه؟ عشان مملياش عينه الفارغة... والبت انكسرت بعد ما ماتت أمها، وأبوها راح اتـچـوز ورماها حدا خالها... حاچـة تانية يا زينة؟؟»

أغمضت عينيها مستمتعة بنسمات الهواء الناعمة، قائلة بابتسامة:

«لو افتكرت حاجة تانية هسألك... آه بالمناسبة.. أخبارك انتي وسيف إيه؟؟»

بنظرات أكثر مكرًا، استغلت سمحة عيني ابنة عمها المغمضتين، وانحنت على طرف المركب لتملأ كفها بالماء، ثم نثرته على وجهها، لتقفز زينة صارخة من المفاجأة، بينما ضحكات سمحة تعلو في الصمت المقدس حولهم، إلا من حفيف أوراق أشجار الكافور التي تدلي أغصانها باستحياء تغسلها في النهر.



«على فين العزم إن شا الله يا فريدة؟؟»
وقفت مطرقة بارتباك... ثم تطلعت لزوجة خالها الجالسة في مكانها المعتاد في الشرفة الكبيرة: «بعد إذنك يا مرت خالي... الخرز خلص من عندي... هروح لحمدون السروجـي أجيب غيره»
«لهو انتي يا بت مش هتبطلي تمجيج عينيكي في المخروبة المفارش دي!؟ دا انتي يا حبة عيني جاطمة رجبتك عليها ليل نهار!»
أجابتها فريدة بتنهيدة طويلة:
«وأنا كت لجيت شغلة ومشتغلتهاش!؟ أديني بسلي وجتي يا مرت خالي بدل مانا لا شغلة ولا عملة... »
«طيب يا نضري.. بس متعوّجيش. بت يا فريدة! ماتنسيس تـجِـري غفير من الغفرا اللي متلجحين برة دول معاكي».
تأوهت من تحت ضروسها:
« ولزومه إيه بس يا مرت خالي!؟»
«الأمر ما يسلمش يا بتي... يمكن حدا من عيال البداري يتعرض لك إكده ولا إكده الأمر ميسلمش... انتي أمانة عندينا يا فريدة ولازمن نحافظوا عليها»..
أمالت فمها لأحد جانبيه ممتعضة، وهزت رأسها بدون اقتناع:
«أوامرك يا مرت خالي... حاجـة تانية؟»
«ميؤمرش عليكي عدو يا ست البنتة... يا رب أفرح بيكي عروسة عن جريب إن شالله. فريدة.. متعوجيش لخالك يعمل لنا نصيبة»

أخيراً! الهواء يدخل ويخرج من رئتيها بشكل طبيعي! له مذاق الحرية. تجاهلت طلب زوجة خالها، وانطلقت بدون أن تصطحب أحد الخفراء كما أمرتها؛ فهذه اللحظات اليتيمة تستجديها بصعوبة من بين أيامها المماثلة في ألوانها الكالحة... وعليها استغلال كل لحظة فيها. لم تبالِ بالنظرات الفضولية التي لاحقتها في

طريقها، انشغلت بالتطلع بفرح للسماء الزرقاء، لا تشعر بالاكتفاء أبدًا وهي تعب من الهواء المتاح بقدر ما تستطيع. تنهيدة يأس تخللت انطلاقتها، تفكر لو تستطيع اختزان بعض من هذه الحرية».

كما كل شيء جميل ينتهي بسرعة، كذلك تلك اللحظات الضنينة أبت أن تمتد لأمد أطول، بتمرد اتخذت طريقًا مغايراً لطريق عودتها، فلم تكن على استعداد بعد للتسليم ولو بحفنة من هواء.

قبضة مؤلمة اعتصرت قلبها... وذكرى وجه جاسر يرمقها بسخرية، عندما عرضت عليه زوجة خالها الزواج بها... وكأنه لم يتخيل أبدًا أن تكون هذه السندريلا المنكسرة زوجة له. واشتدت القبضة المؤلمة عندما تذكرت عاداتهم... بين يوم وليلة قد يستطيع خالها أن يغصب على ابن أخيه، وتجد نفسها زوجة مهملة في دار جاسر الرحايمي... حتى شرف الاختيار أو الاعتراض لن تناله؛ فاليتيم تموت حقوقه بالتدريج، حتى حق الحياة بكرامة يعتبر ترفًا المطالبة به. يكفيه نفساً يعبّئ صدره بالهواء حين يستطيع، ولقمة مغمسة بالهوان إن وجدها، وكسوة عار تستر جسده، ولكنها تكشف كل عوراته على المتفضلين عليه.

بحدة مسحت دمعتها الذليلة الوحيدة بكم قميصها، وعيناها تبرقان بإصرار... لن تصبح للإهمال وجبة هنيئة أبدًا... كل ما عانته في حياتها من بعد وفاة أمها سيكون مجرد ماضٍ... ولن يعود... ستتحكم بكل خيوط مستقبلها، لن تأخذ من حياة السندريلا إلا نهايتها السعيدة، نعم هذا ما سيحدث... وقفت فجأة تتلفت حولها مذعورة. وجدت نفسها خارج حدود البلد، وحدود الرحايمة.

جفت الدماء في عروقها وهي توبّخ نفسها عائدة للخلف، عندما ظهر من العدم ملثمٌ يرتدي السواد، شاهراً سلاحه الآلي في وجهها!

تراجعت مرتبكة:

«انت مين انت!؟ خلني أمر... أنا من الرحايمة... الله يستر عرضك خلني أمر بلاش تودر نفسك يا ولد عمي»



۞ ٤ ۞

«من خلال أشواك الخطر نحصل على زهور السلام»
ـ وليام شكسبير

....

«زينة... يا زينة.. انتي نمتي ولا إيه!؟ مش هنعاود جبل خوكي وأخوي ما يرچعوا»

هبت زينة من مكانها تتساءل بتوهان:

«هي الساعة كام؟؟»

ثم نظرت في تليفونها المحمول لتصرخ:

« دي هَنا وماما... بيتصلوا بينا من الصبح!!»

شهقت سمحة برعب:

«بس أنا مسمعتش صوته!»

أجابتها زينة بخجل وهي تضع التليفون على أذنها: «كنت عاملاه سيلانسيو "silencieux"»

«عاملاه إيه يختي!؟؟»

« ششش.. ماما بترد... وي ماما... داكور... حالًا هنكون عندك»

كانت سمحة تولول، عندما وبختها زينة:

«بطلي اللي انت بتعمليه دا ويلا بينا... جدفي معايا... إيه دا!؟ هي المية دي دخلت منين!؟»..

حدقت الفتاتان بالمياه التى تراكمت في قاع الفلوكة، لتصرخ سمحة من جديد بصوت مجلجل.

۞۞۞۞۞

«انت مسمعتنيش!؟ بجولك أنا من الرحايمة... وسع لي طريج أحسن لك»
ولأول مرة يتنازل بالرد عليها:
«ولو موسعتش، هتعملي إيه يا فريدة الرحايمي؟»
شهقت عندما ميزت نبرة ذلك الصوت... كان الغريب زائر أحلامها لفترة كبيرة... ثم انقطع عنها كما انقطع عن رؤيتها. أزاح اللثام عن وجهه لتتألق عيناها بفرح لم تستطع مداراته وهي تهتف:
«حمادي الدهشان!؟»
ارتفع أحد حاجبيه الكثين، بينما مسح شاربه بطرف إصبعه مدركًا فرحتها الخفية برؤيته، وقد لانت ملامحه المدموغة بختم القسوة، التي تبدو لأول وهلة وكأنها منحوتة من منحوتات الجبل:
«إيوه... أنا حمادي.. شكلك منستينيش.. لساكي فاكراني»
سيطرت بصعوبة على أسباب سعادتها، لتجبر ملامحها على العبوس وهي تتقدم بخطواتها:
«ومن ميتى بتجطع عليا الطريج يا حمادي!؟»
«ما عشت ولا كت لما أجطع طريجك... بس يظهر إنك كتي سارحة مشايفاش على فين رايحة... لو مكتش نضرتك من بعيد سارحة معرفاش بتخطي فين، كان زمان ديابة الـچـبل خدوكي تسلايتهم، ولا همهم رحايمة ولا بداري... ولا انتي مخبراش إن دا طريج ديابة الـچـبل؟»
تلفتت حولها بخوف، ثم رفعت رأسها بثبات:
«أنا فريدة الرحايمي، لازمن انت وكل ديب من ديابتك يعرفوا زين إن لحمي مُر... مش آني اللي أكون نهيبة لأي كلب مسعور فاكر حاله ديب صوح»
رمقها بإعجاب:
«وهو دا اللي مشعلجني بحبال هواكي الدايبة يا بت الرحايمة»
ارتبكت تداري عينيها بحياء:

«تجصد إيه يا حمادي؟»

«كلامي واضح.. وانتي خابراني زين.. ورغم شچاعتك ووجفتك كيه السبع جدامي... رغم إن أكبرها شنبات في البلد دي يعمل لحمادي الدهشان ألف حساب... بس انتي مهمكيش... خابرة ليه يا فريدة؟؟ أجولك... علشان عشجي معشش في جلبك، كيه ما عشجك سارج النوم من عيني».

اتسعت عيناها مصدومة، وضاعت الكلمات من لسانها. حاولت الاعتراض أو الابتعاد عنه، أو حتى صفعه كما تتوق لتمسح تلك الابتسامة عن وجهه الأسمر المليح، وثقته بنيل رضاها عن عرضه الفج. وفجأة تذكرت انكسارها، وحلم السندريلا، وحياتها التي قررت أن تخرج بها من عتمة المعاناة... أعادت نفسها التي فقدتها بين كلمات حمادي، التي سيطرت على حواسها العطشى للحظات فقط.

عقدت ذراعيها على صدرها، ورمقته بتلك النظرة التي اعتادت أن تنظر بها لحياتها المهيضة:

«انت بتتحدت معايا آني يا حمادي!؟ عاوزني آني فريدة الرحامي... أبص ليك انت... حمادى الدهشان ديب من مطاريد الچبل... حرّاج أراضي وسرّاج محاصيل، ويمكن جتال جتلة»

أوقفها صارخًا باحتجاج:

«وجفي عندك! أنا عمر يدي ما اتغمست بالدم!»

«والحرج والسرجة دا يوبجى اسمه إيه!؟ هو مش دم الغلابة دا اللي انت بتمصه انت ومجاطيعك!؟ البيوت اللي بتخربوها دي مش بيوت ناس عمرانة!؟ خلني معاك للآخر... وجلنا إن كل اللي بتعمله حلال... هتشد طولك وعرضك دا وهتاچي تطلبني من أبو.... من خالي!؟ هتدفع مهري وتبني لي دار تليج بمجامي!؟ ولا هتسكّني كهف من كهوف الچبل أعيش معاك كيه الوطاويط... فتّح عيونك زين يا حمادي وشوف انت بتتحدت مع مين، وبعدين احلم، بس

النوبة الـچـاية استغطى زين عشان تحلم على كدك ومن توبك... ودلوك ممكن توسع لي طريج، ولا لسة حداك كلام ماصخ تاني كيفك چـايبك تسمعهولي؟»
تنحى عن نهر الطريق مطرقًا بغيمة غطت بريق عينيه، وأشار لها بيده:
«اتفضلي يا... فريدة هانم... ومتأخذينيش لو كت جليت مزاچ چـنابك»
شمخت بأنفها تتجاوزه باستعلاء، وعندما أصبح ظهرها له، هتف فاستمعت له بدون أن تلتفت:
«محدش يجدر يتعرض لك وأنا حي على وش الدنيا يا فريدة... هانم... أي مكان رچـليكي تخطيه لازم تعرفي إن محرم على أي مطرود أو ديب سعران إنه بس ينضرك»..
لم تجد ما ترد به عليه، فاستمرت بطريقها... تغشى عينيها سحابة من الدموع حبستها طويلًا... لم تكن ترى طريقها عندما اصطدمت بجبل آخر ظهر فجأة في نهر الطريق... صرخت بفزع وهي تمسح عينيها بقوة، تتطلع للرجل الذي يرمقها بنظرة ساخرة... هتفت باسمه رغم أنها لم تره منذ سنوات: «رشاد!!؟؟»
تطلع خلفها وهو يعيد رمقها بتلك النظرة المحتقرة: «خلص مشوارك يا بت الرحايمة!؟»
بارتباك شديد: «تجصد إيه!؟انت بتراجبني يا ويلد البداري!؟»
«عاودي في طريجك يا بت الناس... وبلاش اللعب مع الديابة... سكته واعرة..»
تسارعت أنفاسها تتخيل ما يقصده رشاد، والمصيبة الأكبر أن يخبر أهلها بما رآه. وضعت يدها على فمها تكتم نشيجها، عائدة بخطوات شبه راكضة، وكأن ذنبها

يلحق بها. عاتبت نفسها على الخطأ الذي جرها لطريق الديابة، وانتهى مشوارها بشعور متراكم من الخوف والندم.



«يا وجعة مهببة... يا يوم مطلعتلوش شمش!! شوفتي... شوفتي أخرة اللي يمشي وراكي يا ست زينة هانم!!؟»

«دلوقت بقيت زينة هانم!؟ ما انتي كنتي مبسوطة من شوية! اهدي وفكري بس هنخرج من هنا إزاي»

«ودي فيها فكر دي!؟ امسكي المخروب اللي في يدك دا، وجولي لمرت عمي تلحجنا جبل ما نغرجوا!»

هزت زينة رأسها بتفكير عميق:

«مش هينفع... ماما ممكن من خوفها هتقول لبابا، أو المصيبة الأكبر تقول لسيف!»

صرخت سمحة بولولة:

«لا وانتي السادجة، النصيبة الأكبر إننا نغرجوا في مكانا... لا وحضرتك مبتعرفيش تعومي كمان... الحل إيه بجى دلوكيت يا ست زينة؟؟ كات شورتك طين»

تلفتت حولها تمعن التفكير في مخرج. الوقت يداهمها بسرعة رهيبة وقد وصل مستوى الماء لركبتيهما! بدأت بالارتعاش والمياه ترتفع بسرعة كبيرة... أخذت سمحة نفسًا عميقًا وهتفت بثبات:

«اسمعيني مجدمناش حل تاني... أنا هعوم لحد الشط»..

قاطعتها زينة صارخة:

«لأ.. مش هينفع تسيبيني لوحدي... سمحة أنا بفكر وهلاقي حل... بس اصبري»...

وأثناء استغراقهما في التفكير، وعيونهما تجول حولهم لعل الإنقاذ ينزل من السماء، أو من تحت الماء، تهللت أسارير زينة وهي تسمع من بعيد هدير موتور: «سمحة اسمعي... في لنش جاي من بعيد... أنا هشاورله»

حاولت إثناءها متأخرة؛ فقد أخذت ابنة عمها تهلل وترفع يديها لأعلى ليراهما سائق اللنش... وعلى ما يبدو أن الحظ حليفهما؛ فقد بدأ اللنش يغير اتجاهه

ناحيتهما... وعندما ازداد اقترابًا صرخت سمحة مولولة: «يا وجعتنا المطينة!! يا خراب بيتنا المستعجل!! يا خسارة شبابنا!!»
«فيه إيه يا بومة!!؟ الإنقاذ وصل أهه... هنروح البيت من غير ما حد يحس»
«انتي خابرة مين اللي جاي بريحنا ده يا بت عمي؟»
«هيكون مين يعني!؟ صياد من الصيادين»
«لا يا فالحة.. دا رافع الرحايمي»
بهتت زينة، وهي تعيد التحديق بوجه سائق اللنش الذي يزداد اقترابًا... ازدردت لعابها بصعوبة في محاولة المحافظة على رباطة جأشها: «طب وإيه يعني!؟»
«وإيه يعني دي توبجي تحاولي تفهميها لخوكي... إنما رشاد أخوي معندوش غير تفاهم واحد بس... وأنا لساتني صغيرة ومدخلتش دنيا... أنا رايحة أموت غرجانة أحسن ما موت مجتولة»
فوجئت زينة بابنة عمها تقفز للماء وتسبح مبتعدة مع اقتراب اللنش.
حاولت مناداتها لتتراجع، وتعيد تفكيرها في منطقها الأعوج، خاصةً وقد أصبح الإنقاذ قاب قوسين من الموت غرقًا، أو قتلًا. بدأ هدير محركه ينخفض مع اقترابه المطرد الذي أثار موجات متوترة على صفحة المياه أدت لتأرجح الفلوكة... لم تكد تهلل لوجوده عندما وجدت نفسها تسعى للمحافظة على اتزانها على سطحها المترنح. اتسعت عيناها هلعًا، لتتحقق في ثوان أسوأ مخاوفها... كان يراقب ما يحدث بعدم تصديق، ابتداء من هوية صاحبة الفلوكة الغارقة، وحتى سقوطها المدوي في الماء، وذراعاها تخبطان في الماء بعشوائية هستيرية.
في أقل من لحظات، أدرك أنه لا يملك الكثير من الوقت قبل أن تغرق تلك المجنونة الحمراء، وقبل أن يفكر بصواب تصرفه، خلع جلبابه وقفز خلفها يحاول تقييد ذراعيها لحملها ودفعها لسطح اللنش، ثم قفز عائدًا برشاقة خلفها يراقب صدرها اللاهث، وأنفاسها التي تتردد بحشرجة عالية، وكأنها تعاني صعوبة في

التنفس. مسح وجهه بيديه معتصراَ عقله عن سبب واحد فقط دعاه لهذا الطيش، أمام آلاف الأسباب المنطقية التي كانت تدعوه للعكس.

ثوان وبدأ الهدوء يعود إليها. فتحت عينيها على نظراته الغريبة.. تلفتت حولها لتستعيد إدراكها في ما حدث... حاولت الجلوس باعتدال متجاهلة الألم الذي ينغز صدرها بقوة.

بحياء مثير أدركت التصاق ثيابها المبتلة، نكست رأسها كي لا يلاحظ توردها، كتفت ذراعيها على صدرها متمتة بنبرة متحشرجة:

«انت... انت.... أنقذت حياتي... شكـ »..

قاطعها بحدة: «ويا ريتني خليتك تغرقي!»

بهتت تسأله، وقد زاد ارتعاش شفاهها المزرقة رغم الجو المائل للحرارة: «يعني إيه؟؟»

انحنى فوقها مدمدمًا بنبرة بالكاد متحكمة في قوتها:

«لو واحدة زيك ماتت فطيس، أهلها هيزعلوا عليها، وهيدفنوها والحكاية هتخلص؛ بس بعد اللي أنا عملته وندمان عليه فعلًا... إيه مستغربة!؟... مفكرتيش في المصايب اللي ممكن تحصل نتيجة إنقاذي لحياة حضرتك؟؟»

احتدت زرقة عينيها متمتمة بشفاه مرتعشة رغم حرارة الجو: «انت فاهم غلط... لما أهلي يعرفوا إنك أنقذتني هيشكروك... ويمكن الخصومة اللي بين العيلتين تـ...

قاطعتها ضحكته الساخرة الرنانة... اشتدت عروقها من الغضب، وهو ينحني بقربها مرة أخرى ليزداد ارتجافها، ولكن هذه المرة لأسباب بعيده عن البرد:

«انتي عارفة التصرف الصحيح إيه دلوقتي؟؟إني أرميكي في المية وأكمل طريقي... وبالطريقة دي أجنّب نفسي مشاكل ملهاش أي داعي»

ارتعشت تتخيله يرفعها وكأنها ورقة شجر لا وزن لها بين ذراعيه المعضلة، ويعيد إلقاءها في النهر وكأنها لا تشكل له أي أهمية. أدركت بذعر أن هذه هي الحقيقة

فعلًا... اختلست النظر لمياه النهر شديدة الزرقة... شتان الفارق بين نظرتها لها منذ ساعتين فقط، والآن!
تخيلت نفسها كإحدى عرائس النيل العذارى، اللواتي كانوا يضحون بهن كقربان في عهد الفراعنة. شهقت عندما نطق بما يجول بأفكارها:
«تنفعي قربان مناسب (ناريسا)... هتدفعي حياتك تمن للسلام بين العائلتين.. هتكوني آخر عروسة نيل... ولأسباب نبيلة بحتة»
توجست رعبًا، والعزيمة والشر يسكنان عمق سواد عينيه الحادتين، كعيني ذئب مفترس، يعبران عما يجول داخله من أفكار سوداء. صرخت توقف اقترابه منها لتنفيذ ما عزم عليه:
«استنى عندك.. انت مش هتقدر ترميني!»
وقف معتدلًا بتساؤل متفكه، وكأنه يتعجب من قدرة هذه الفتاة، التي تبدو من أول نظرة كأنها أنثى مهيضة الجناح... ولكن أشواكًا حادة مؤذية تظهر عند حاجتها... سألها باستهانة: «وليه إن شاء الله؟؟»
أجابته بأسنان مصطكة، وذراعيها تحاولان بث بعض الدفء في برودة جسدها:
«علشان... علشان.. سمحة بنت عمي كانت معايا.. وشافتك جاي على هنا؟؟»
بحركة حادة التفت ناحية الشاطئ، وضاقت عيناه بتفكير عميق... ثم زفر عدة أنفاس مدمدمًا ببعض الشتائم، معيدًا تصفيف شعره الأسود للخلف بأصابعه، أثارت هذه الحركة انتباهها، لتدرك أنه هذه المرة لا يرتدي عمامته.
ضاقت عيناه بقلق عندما لاحظ ذراعيها تضغطان على صدرها، وتصدر صوتًا كأنه أنين مكتوم، عندما اعتقدت أنه غافل عنها، مد يده يقترب منها، فصرخت تدفعه بذراعيها الملوحتين... زم فمه بعبوس ويده تكمل طريقها جوارها لتفاجأ ببطانية خشنة ولكن نظيفة يلقيها عليها، هادرًا بصوته الغاضب:
«على عكس أهلك.. أنا مش بقتل الناس للمتعة... اتفضلي دفي نفسك... أنا عارف إني هدفع تمن كل اللي بعمله دا غالي أوي»

بصعوبة بدأت تستعيد هدوءها، بعد أن وصلت للحافة باعتقادها أنه قادر على قتلها بدم بارد. بأصابع متجمدة لفت أطراف البطانية حولها، عندما بدأ يقود اللنش باتجاه الشاطئ... وجدت نفسها مضطرة للدفاع عن أهلها، فتمتمت بأسنانها المصطكة:

«على فكرة... لما يعرفوا اللي انت عملته... هيشكروك... إحنا مش ناس همج»

التوى جانب فمه بابتسامة مقيتة: «لو كانت الحكاية كده... كانت بنت عمك استننت معاكي لما أنقذكم سوا... بس هي طلعت أعقل منك»

أشاحت بعينيها عنه قائلة بصوت باهت:

«أنا مش بعرف أعوم»

حدجها بنظرة مستعرة، ثم هز رأسه بأسف: «متستاهليش نقطة دم واحدة من اللي هتسيل النهاردة»

تظاهرت أنها لم تسمع تمتماته الغاضبة.. وعقدت العزم على تحقيق فكرتها؛ فلا يمكن أن يجازى العمل الخير بالأذية... حتى لو كان في كفر الصوالحة. مجرد أن تخبر أبوها عن ما حدث... ربما سيلومها على مغامرتها المتهورة، ولكنه لن يلقي اللوم على رافع الرحايمي أكيد... نعم... هي متأكدة... وسيجازي رافع، ووقتها ستنظر بعينيه في لحظة انتصارها المذهل، ولن تتركه حتى يعترف بخطأ اعتقاده!

زاد ارتعاشها، وثقتها بنفسها تهتز كلما اقترب اللنش من الشاطئ... كما زاد امتقاعها عندما سمعته يطلق المزيد من الشتائم، وعيناه المستعرتان تفقدان تألقهما بقتامة مخيفة... ثم صرخ بها:

«اتفضلي قومي الحقي أهلك اللي مش همج... لو واحد فيهم لمسني بس، الدم هيبقى بحور النهاردة... »

استدعت كل شجاعتها محاولةً الوقوف بركبتين مرتعشتين، وليس من البرد... وما لبثتا أن تحولتا لقالبين من الهلام، عندما تطلعت لمنظر رجال عائلتها المنتظرين

على الشاطئ وكل منهم يحمل شومة في يده بطول رجل. استرقت نظرة لرافع فهتف:

«هحاول أوقف اللنش بعيد عنهم، يمكن حضرتك تقدري تقنعيهم إني معتديتش على عفافك المصون»

أومأت متجاهلة رنة السخرية في صوته بدون أن تستطيع الكلام؛ فقد التصق لسانها في سقف حلقها وهي تسمع هدير الجموع الغاضبة... أوقف اللنش بجوار رصيف خشبي قديم... ترنحت وهي تحاول الخروج بدون مساعدته... سمعت زفرته المتأففة وهو يمد يده ليساعدها، وكأن آخر ما يفكر فيه في هذه اللحظة هو الاقتراب منها. صرخ بها:

«اتحركي بسرعة.. قربوا يوصلوا!»

قفزت من الرصيف الخشبي، تلتحف بالبطانية حولها كأنها تحتمي بها من شر تستشعره قادم لا محالة سيجتاح كل أخضر ويابس... كانت خطواتها ما تزال مترنحة، قوّت عزيمتها وهدير الجموع الغاضبة يقترب. رفعت عينيها ترصد شوارب تهاب الصقور الوقوف على أعشاشها، وعيون حمراء تتفجر منها حمم، وكأنها تغلي في مراجلهم منذ ولدوا بانتظار هذه اللحظة، يلوحون بعصيهم المرعبة التواقة لشج الرؤوس وزهق الأرواح.... استرقت نظرة للخلف، كان ما يزال واقفًا مرتكنا على اللنش يرمقها بنظرة مستخفة سرّت الرعشة في أوصالها... كان بإمكانه العودة باللنش ولن يصلوا إليه... ولكنه وقف بانتظارهم بشجاعة نادرة وكأنه لا يهاب التحدي، وعلى استعداد للمواجهة ولو كان وحيدًا لا يملك سلاحًا إلا تصرفه النبيل، الذي قد يدفع ثمنه حياته. ازداد وجيب قلبها الموجوع... نظرت أمامها ليقل يقينها بقدرتها على درء الكارثة القادمة كلما اقتربت... استفحل شعورها بالمسؤولية؛ فدماء الأبرياء التي على وشك أن تهدر تستحق شرف المحاولة.

كان أخوها يتصدر موكب الرجال... لم تتغير ملامحه المسعورة لدى رؤيتها، وإن ازدادت ظلامًا وهو يلمح البطانية التي تلتحف بها... هل خاب أملها فعلًا!؟ هل ظنته سيأخذها بين أحضانه مهنئًا لها بسلامة العودة!؟ تشبثت بكوفيته الحرير وبصوت متقطع:

«سيف... استنى... الوضع مش زي ما انت فاهم... رافع...»

قبض بيده الشبيهة بجرافة آلية على ذراعها حتى شعرت وكأنه سينخلع من مكانه، دمدم بهدير كاسح: «أما انتي حسابك بعدين.. لما أشرب من دم ويلد الحرام اللي مسح بكرامتنا التراب ودس روسنا في الوحل!»

صرخت بأعلى نبرة في صوتها المبحوح ليسمعها من هدير الأصوات المنددة:

«اسمعني يا سيف... رافع معملش حاجة... أرجوك افهم»

دون أن يترك يدها أخذ يلوك الكلام بين أسنانه كمن يمضغه: «بعّدي من طريجي!»

وبيده الحرة، لم ترها ولكنها شعرت وكأن حمولة عربة نقل تهوي على وجهها. دارت بها الأرض، والنجوم تطايرت فوق رأسها، قبل أن تفقد الوعي.

احتار سيف في جسد أخته المتراخي بين ذراعيه، فزاد إحكام البطانية حولها حتى غطى رأسها، ولم يهتم بترك متنفس للهواء، وهو يدفعها لابن عمه:

«رجـعها السراية يا رشاد، جولهم يجفلوا عليها السرداب لحد ما أعاود وأدفنها بيدي.. دلوك حسابنا هنصفوه مع ويلد المحروج ده»

حملها رشاد بين ذراعيه حائرًا:

«اسمع بس يا سيف... مسمعتهاش جالت لك ما حصولش حاجـة؟»

«چـرالك إيه يا رشاد!؟انت مشوفتهاش نازلة من المخروبة وكان معاها!؟ عاوز إيه أكتر من إكده!؟ رچـعها البيت وتعالى حصلنا!»

وحث الخطى، وخلفه الرجال يهمهمون، ويدكون الأرض التي اعتادت زلزلات أقدامهم، وزلات عقولهم، ودماءهم التي تروي شقوقها.



يقف على مدخل السراية يدق الأرض بعصاه، وكأن اتفاقًا مبرمًا بينهما بدون عقد مكتوب، ولغة خاصة لا يفهمها إلا من عركها وتمرغ في طينها، أن تستشعر منه دبيب الحياة كلما التقت منسأته بترابها، مقابل أن تروي له ما يحدث بعيدًا عن عينيه... أفاق من شروده على صوت زوجته وسمحة تهبان من مكانيهما، عندما التقط رادارهما القوي (الكارتة) تنهب الأرض بعجلاتها، والسوط بيد رشاد يلهب ظهر الجواد يحثه على السرعة.

«بنتي! زينة!»

وسمحة تضرب رأسها بكفيها:

«يا لهو بالي!! دا رشاد! لحاله!!»

حدجهما رضوان بنظرة محذرة:

«سدي خاشمك منك ليها! معاوزش أسمع نفس واصل، ولّا هحبسكم مع هَنا فوج!»

وضعت سمحة يديها فوق فمها، بينما انسابت دمعات فاليريا... انكسر البريق الحازم بعيني رضوان، ثم زفر وهو يشيح بوجهه عنها ليرى (الكارتة) وقد تخطت البوابات الحديدية وتوقفت أمام القصر... ترجل ابن أخيه يحمل تلك اللفافة التي لا يظهر منها غير قدميها، وعندها لم تستطع فاليريا أن تكتم نحيبها:

«مون ديو.. زينة.. بنتي!!»

ولولت سمحة تلطم خديها:

«غراب الشوم ونعج على ديارنا!! يا خسارة شبابك ياخيتي!! يا شماتتة العدوين فيكي!!»

صرخ رشاد ينهرها بحدة:

«طبي ساكتة، لاجصف عمرك!»

وقف أمام عمه بحمولته، رأى ظهره الذي يكاد ينحني، فهتف بلهفة:

«اطمن يا عمي.. زينة بخير... دي بس غميانة.. خليني أدخلها.. اطمني يا مرت عمي»

واخترق الواقفين المسمرين في مكانهم تتملكهم الحيرة، هل يهللون فرحًا أم ينزفون دموعهم حزنًا!؟

أسرعت سمحة برفع الغطاء عن وجهها وصرخت:

«حد يغيتنا يا ناس!! هاتي بصلة ودشيها يا مسعدة... البت مسورجة»

صاحت فاليريا باستياء:

«بصل!! بصل إيه !!؟ روهي سمهة... أنا هفوّك زينة.. روهي!»

جر رضوان ابن أخيه على جانب وسأله بقلق:

«إيه اللي بيوحصل يا رشاد!؟»

«مش خير أبدًا يا عمي... زينة جبل ما تسورج جالت لسيف محوصلش حاچة... بس سيف مسمعش... وضربها وخلاني أرچع بيها... لازمن أحصلهم دلوك... النصيبة واعرة جوي المرة دي يا عمي... ربنا يلطف بينا! بالإذن هروح يمكن ألحجهم جبل ما يوجع المحظور»

التفت رضوان لزوجته التي ما تزال تحاول إفاقة ابنتها بصوت فاقد الصبر:

«خلصوني وخلوها تفوج، جبل ما يفيض بي وأدخل أچيب البارودة، وأطخها عيارين وأخلص»

عاد رشاد من فوره بعد أن غادر لاهثًا:

«عمي... أخبار عفشة... مأمور المركز جبض على كل رچالتنا، ورچالة الرحايمة اللي كانوا بيتعاركوا... الويلد فَضْل لسة متحدت معايا على المحمول دلوك... بس هو جدر يهرب ومتمسكش»



«بتجول إيه يا وش النصايب؟؟»

«زي ما سمعت حضرتك يا چـناب البيه... سي رافع بيه وسي چاسر بيه وكل رچـالة الرحايمة مع رچـالة البداري، الحكومة كمشتهم كلاتهم... والإسعاف شال الباجي على المشتشفى... »

جحظت عينا وهدان، وزوجته ومعالي وفريدة يولولون ويلطمون خلفه... التفت لهم صارخًا بأمر زلزل الأرض من تحت أقدامهم:

«اخرسوووووا!! طبي خاشمك انتي وهي وهي... أحسن جسمًا بالله العظيم لودركم واحدة ورا التانية وملاكمش عندي دية.... ست الدار.. خديهم وغوروا من خلجتي الساعة الغبرة دي... لحد ما نشوفوا حل في النصيبة اللي وجعت على روسنا من غير مناسبة»

ثم التفت للغفير:

«جولي يا چـلاب النصايب... سبب العركة مين؟؟»

ارتعشت فصائل الغفير وهو يردد بصوت مرتعش:

«والله مانا يا سيد الناس... ورب المعبود أنا كت...

قاطعه وهدان بصوت جلل:

«الله يجطعك ويجطع اليوم الاسود اللي نضرتك فيه... وانت يا هباب البرك انت هتكون سبب عاركة بين الرحايمة والبداري ليه!!؟ انطج وجولي يا غراب البين... مين اللي بدا اللول؟؟»

«الله أعلم... بيجولوا إن سيدي رافع بيه خطف بت من البداري في اللنش بتاع حضرة چـنابه... جام البداري سمعوا بالخبر راحوا أخدوا البت ملفوفة في بطانية من لنش البيه رافع... ومن وجتها الجيامة جامت ومهمدتش، إلا لما الحكومة وصلت وكمشتهم كلاتهم»

أطرق وهدان مفكرًا بصوت عال:

«بس مين اللي بلغ الحكومة؟؟ مش معجول يكونوا البداري... وأكيد مش واحد من الرحايمة»

ثم رمق الغفير الذي انهار على ركبتيه باكيًا متوسلًا: «ورحمة سيدي عبد الرحيم الجناوي مانا!»



وقفت الكارتة الخاصة برضوان البداري، بنفس الوقت الذي نزل فيها وهدان الرحايمي من الكارتة التي تنافس البداري عظمة وهيبة بجواديها الأصيلين.

رمق الرجلان بعضهما بعداء غير مستتر، عندما دخلا سويًا المركز يرجان الأرض تحت أقدامهما هيبة وجلالًا.. ولكن ما شاهداه أوقفهما مذهولين مصدومين.

رجال الرحايمة، ورجال البداري، يقفون محشورين في قفصين متقابلين أمام مكتب المأمور... وجلس خلف المكتب رجل أشيب مهيب... وقد وقف جواره مأمور المركز يرمق عميديّ الرحايمة والبداري بأسف:

«اتفضلوا يا بهوات... طبعًا حضراتكم تعرفوا حضرة نائب الدايرة بتاعتنا... سيادة المستشار زيدان البرهامي..»

نهض المستشار وصافح الوجوه الواجمة، ثم طلب منهم أن يتفضلا بالجلوس... انتفض وهدان الرحايمي: «أنا مش هرتاح إلا لما رچـالتي يخرچـوا من الحبس... إيه جلة الجيمة دي!؟ دي طريجة تعاملوا بيها الأعيان!؟ تحبسوهم في الزنازين كيه جطاع الطرج والمجاطيع!؟»

وافقه رضوان: «وكمان رچـالة البداري... دي عمرها ما حوصلت المعاملة دي! زي ما يكونوا جتالين جتلة..»

صفق المستشار بسخرية: «أول مرة الرحايمة والبداري يتفجوا على موجف واحد... إيه رأيك يا حضرة المأمور؟»

«فعلًا يا فندم... حاجة غريبة»

تبادلا النظرات المواربة... فلم يطق سيف من محبسه... صرخ موجهًا اتهامه لرافع في القفص المقابل:«المفروض يتعلج على حبل المشنجة هو وكل ويلد الرحايمة... ومش إكده وبس دا كل سلساله لازم ينخسف بيه الأرض»

وافقه أقاربه، فهب جاسر من القفص الآخر:

«بس نطلعوا من إهنه يا ويلد البداري، وأتخن تخين فيكم يوبجى يوريني شنباته دي على حرمة ولا على راچـل»

وبدأت المبارزة بين رجال العائلتين بالكلمات والشتائم والتهديدات، حتى خرسوا جميعًا بعد سماعهم لطلقات رصاص أصمت آذانهم، وأقفلت سيول الشتائم المتبادلة من أفواههم، وشخصت كل العيون نحو المستشار الذي أشار لمسدسه الميري.

«لسة حداكم حديت تاني عاوزين تلكلكوا فيه؟ على راحتكم.. حداي في المسدس خزنة محشية تكفي تخرس الكل... اللي شايف حاله زمجان من الدنيا وبلاويها يـچـرب حنكه، ويتحدت مرة تانية بدون إذن»

هم وهدان بالاعتراض، فقاطعه المستشار وهو يشير لكلا الرجلين:

«اتفضلوا واشربوا جهوتكم... الجعدة لسة هتطوّل يا بهوات والكلام هيحَلو... وريحوا حالكم أنا مش هخرّچ أي واحد من هنا، إلا لما أجول كل اللي عندي..»

تبادل رضوان ووهدان النظرات الحاقدة، ثم تنهدا وجلسا متقابلين... دخل عسكري الدرك يحمل صينية قد رصت عليها فناجين القهوة وكوب من الماء... أشار له المستشار فوضع الصينية أمامهم على المكتب، وانصرف بإشارة أخرى من يده..

امتنع الرجلان عن مد أيديهما لفناجين القهوة... ولكن نظرة المستشار الصارمة أجبرتهما على الإسراع لأخذ المبادرة لتناول فنجانيهما... ارتشفا أول رشفة، قبل أن يصدح صوت المستشار بين جدران الحجرة الصامتة إلا من زفرات الوعيد، والعيون تتبادل إطلاق قذائف الموت...

«خابر يا حاچ رضوان، ويا حاچ وهدان حصيلة النهاردة من المـچـروحين كام؟أربعين واحد بإصابات مختلفة... وكل واحد من المحـچـوزين جدامه عقوبة ما بين سنة، وخمس سنين، مع استعمال الرأفة طبعًا... أظن لو نفذت الجانون بحذافيره البلد هترتاح من العراك والخناج فترة طويلة»

هم سيف بالحديث، فرفع المستشار يده القاطعة بحدة ليخرسه فورًا:

«جسمًا بالله لو عملتها تاني لألبسك چناية وانت جاعد موطرحك... والإنذار للچميع... من الساعة دي محدش فوق الجانون»
ارتشف رضوان من فنجانه، وزغر لابنه قائلًا بهدوء منافي لحالة الغضب المستعر التي تكوي جنبيه:
«ضب خاشمك الساعة الغبرة دي، لما نشوف آخرتها إيه يا ولدي! اتفضل يا سيادة المستشار كمل حديتك»
تجاهله زيدان وأكمل:
«أجولكم على حاچة كمان؟ أنا معايزش أعرف السبب... ساوت بعضيها... واحد من العيلة دي حمارته وجعت في غيط العيلة دي... ولا واحد من العيلة التانية بهيمته شربت من جَناية بهايم التانيين... حاچة تجرف.. وعجول ناجصة... الدنيا اتنورت، الأمريكان طلعوا الجمر وانتم زي ما انتم مبتشغّلوش روسكم الغفيانة دي... ولا يمكن بتشغلوها بس بعد فوات الأوان. طبعًا المطلوب مني إني أعمل جعدة صُلح... ونشربوا الشربات وندبحوا لنا عچل ولا عچلين، ونروّحوا بيوتنا واللي مات مات، واللي عاش عاش، ويوم ولا يامين ترچع ربما لعادتها الجديمة»
سرت همهمة بين الجميع، ضرب بيده على مكتبه ليصاب الجميع بالخرس مرة أخرى، وتتعلق العيون بنجم العرض يصول ويجول دون أن يردعه رادع. كان يزغر لكل واحد منهم على حدة وهو يكمل:
«تعبت منكم خلاص... ومبجاش جدامي حل تاني.. يا أسچنكم وأخلص من بلاويكم.. يا أمتًا... تجبلوا بحكمي على الچميع، وطبعًا مش هيكون حكم هين... هيكون جاسي وصارم. وغير جابل لأي تفاوض»
وضع رضوان ووهدان فنجاني القهوة الفارغين بعد أن تبادلا نظرة أخرى، وبدأ وهدان الهجوم بهدوء يحسد عليه: «مع احترامي لحضرتك يا چناب المستشار... بس حضرتك مافيش في يدك حاچة تعملها... أصغرها محامي بجرشين، يجدر يخرّچ الولاد في ساعة زمن»

تنهد المستشار بابتسامة هزت ثقة الرحايمي:
«لساتك بتتكلم بنعرة كدابة، وولدك وابن أخوك تحت يدي.. رغم إني مش مصدج... ابنك رافع اللي كت معول عليه يعجّل ولد عمه وباجي مخابيل العيلة، ألاجيه وسطيهم اليوم.. دلوك... مستعدين تسمعوا حكمي؟ ولا نخلوها في المحكمة، وكل واحد ياخد نصيبه؟ وخلي المحامي أبو جرشين بتاعك يا وهدان لو جدر يـچـيب لهم سجن مخفف... أجَلّها تلات أربع سنين... لأني متأكد إن كام واحد من المتلجحين في المستشفى عنده عاهة مستديمة... وانت سيد العارفين العاهة المستديمة بتاخد لها مش أجل من تلات سنين...»
شحب الرجلان، يتبادلان النظرات الصامتة، صاح المستشار مرة أخرى:
«عاوز أسمع رأيكم دلوك... هتسمعوا حكمي وتنفذوه ولا نروح المحكمة، وكل واحد ونصيبه؟؟»
دق الرجلان بعصيهما على الأرض بتوتر... نظراتهما تتلاقى تارة، وتارة تسافر للأقفاص الممتلئة بعصاب رجالهم.
هدر صوت جاسر من خلال القضبان، وقد ابيضت مفاصله عليها وكأن بإمكانه خلعها من مكانها:
«متوافجش يا عمي... ميجدرش يعمل حاچـة... ديتها الليلة دي، ومن بكرة الصبح المحامي هيطلعنا ومن غير ولا مليم كفالة»
وافقه سيف من القفص الأخر:
«وانت كمان يا بوي... المرة دي زي غيرها محدش يجدر يسـچـنّا، ولا حتى المستشار ده... وانت خابر زين الأمور بتمشي كيه»
قهقه المستشار: «قصدك بالرشاوي.. مش كده يا سيف؟ والله أنا مستغرب لأمرك.. انتم المرة دي اللي بدأتو بالتعدي على الرحايمة... ورغم دا متوكد إنك هتخرچ»

«إيوه يا سيادة المستشار... هنخرج.. لأننا كنا بندافعوا عن شرفنا اللي ويلد الرحايمة مرغه في الطين... ومش راح ننساه واصل... دا شرفنا يا حضرة المستشار.. ولا كرسي البرلمان نساك كيه تكون صعيدي بيغير على شرفه من الهوا الطاير!؟ وعلشان تكون بس معانا في الصورة... المحروس ويلد الرحايمة... الچبان خطف أختي و...»

صوت غريب غير متوقع هز المكان من رقته:

«لأ.. لأ.. كفاية كده بأة!! انتم إيه مش بتشبعوا دم!!؟»

انحسرت الدماء عن الوجوه وجحظت العيون، وصرخ سيف بهستيريا وهو يضرب القضبان بقبضتيه: «انتي چاية تهببي إيه إهنه وسط الرچال!!؟انتِ البعيدة معندكيش خشا ولا حيا!!؟ والله لأشرب من دمك!»



۞ ٥ ۞

«لا تلعب بمشاعر الآخرين؛ لأنك قد تربح اللعبة، لكن الخطر أن تخسر هذا الشخص مدى الحياة»
ـ وليام شكسبير

....

ركضت زينة تلقي نفسها بين أحضان والدها، الذي وقف يتلقاها بنظرة حائرة ومشاعر متضاربة، يجد صعوبة شديدة بين ما جُبِل عليه، وبين الفهم الآخذ طريقه لعقله الصلد رغم الطريق الوعر... خلع عباءته يلفها حولها بحماية، وهمس في أذنها:

«مكانش لازم تاچي إهنه يا بتي..»

تمتمت بعيون غاربة بالدموع:

«حضرتك عارف إني مش ممكن أسكت عن الحق»

ثم التفتت للمستشار وهي ما تزال بأحضان والدها وبين ذارعيه الحاميتين:

«أنا هقول لحضرتك على كل حاجة»

صوت سيف المتحشرج من الصراخ:

«يابوي!! ناولني البت دي أخنجها وأخلص من عارها...»

حدجه والده بنظرة صارمة:

«اخرس يا ويلد... بتي في حمايا!»

ابتلعت لعابها بنظرة ممتنة... ومن بين الوجوه الكثيرة المشحونة في الغرفة الضيقة، شعرت بعينيه، يرمقها باستغراب مغمس بإعجاب حاول جهده أن يخفيه، ما لبث أن توهج بشذرات حادة غاضبة رشقتها كالزجاج المكسور، لتسبب لها آلامًا لا تدري سببها، ولكنها تعي جيدًا مصدرها، وكأنه فجأة اتفق مع

أخيها على رغبته بقتلها لتواجدها بين الرجال، عيونهم تسلخها بالنظرات الجائعة. ثم أنهى الاتصال الوجيز معها قبل أن يتراجع في محبسه ببريق ساخر... أغمضت عينيها تختزن هذه اللحظة في مكان ما من عقلها، ثم التفتت للمستشار قائلة بشفتين جافتين مرتجفتين:

«أنا هقول لحضرتك عن اللي حصل»

وبعد أن أنهت روايتها صفق المستشار بجذل:

«رائع! دليل كمان على غباء كل الموچـودين... أنا مجدّر شـچـاعتك يا بتي، وأنا عارف هتكلفك كد إيه... خاصةً مع أخ زي أخوكي دا، معندوش وسيلة للتفاهم إلا بسلاحه... علشان موصلحتك وموصلحة الـچـميع... أنا هستمر في حكمي اللي نويت عليه، حديتك دلوك زاد من إصراري على حكمي... أنا تلفنت لباجي الأعيان من العيلتين، وأول ما يوصلوا كلاتهم هيبصموا على الحكم»

هب وهدان بزعابيبه:

«إيه اللي انت بتجوله ده يا حضرة المستشار!؟ انت مسمعتش ولا كلمة من اللي البت جالتها!؟»

شهقت زينة باعتراض: «لو سمحت حسِن ملافظك! بت إيه دي اللي بتتكلم عنها!؟ أنا اسمي زينة.. زينة البداري»

اتسعت ابتسامة رضوان بفخر، بينما احتقن وجه وهدان: «لِم بتك يا رضوان! الحرمة بتتطاول على الرچـال!»

هب رضوان بغضب مكبوت من بين أضراسه المتطاحنة: «بتي حرمة بمليون راچـل من عيّنتك وعينة ولدك»

وضع وهدان يده على سلاحه ليسحبه، فهب المستشار: «انتم اتـچـننتوا ولا إيه!!؟ عاوزين تشرفوا مع أولادكم في الجفص!؟ اتفضلوا معنديش مانع... كل واحد يضب خاشمه ساكت لحد ما أخلص حديتي كلاته... شكرًا يا آنسة زينة، وممكن تتفضلي دلوك غفير الدرك هيوصلك بالكارتة الخصوصي بتاعتي»

نظرت لوالدها ثم هزت رأسها بالرفض:

« شكرًا، أنا جيت مع السواق بتاعي، وهروح معاه»

لم يبعد والدها ذراعه المحيطة بها، وكأنه يزود عنها نظرات الرجال التي تكاد تجرفها، ونظرات أخوها التي قتلتها ودفنتها مرارًا... قبّل رأسها بحنان قبل أن يساعدها بصعود الكارتة:

«بابا.. حضرتك زعلان مني؟»

تنهد بصعوبة: «مش وجته الحديت دا يا زينة؟»

أمسكت يده لتمنعه من الابتعاد:

«بابا... كان لازم أعمل اللي عملته... أنا كنت السبب، وكان لازم الكل يعرف إني بريئة، وإن رافع معملش حاجة»

أخرج زفيرًا آخر من صدره لعله يبرد من أجيج نيرانه التي كادت تحيل أحشاءه لرماد:

«عملتي اللي فيه الكفاية يا بت فالبرية!! بس أجول إيه وأعيد إيه!؟ الغلطة غلطتي من اللول... ارچعي الدار متخرچيش منيها واصل، إلا لما نعاودوا وسيف خوكي معايا إن شاء الله... لما نشوف المشتشار دا خبره إيه على المسا.. اللهم طولك يا روح!»

بعينين مغرورقتين بالدموع: «بس يا بابا...!!»

بصوت غاضب لم يسبق أن حدثها به من قبل:

«غوري الساعة دي يا زينة من خلجتي! بدل ما أعمل عملة تخليكي تكرهيني طول عمرك! الله يسامحها أمك ويسامحني أنا كمان! اطلع يا سعدون... من غير لكاعة طوالي على السراية، متوجفش حتى لو أبوك طلع من جبره ولجيته جدامك»

أومأ الغفير: «تحت أمر سعاتك»

راقبها حتى غابت عن الأنظار تتبعها عاصفة من الغبار... بحثت يده لتلملم أطراف عباءته يلتحف بها، ثم تذكر أنه لم يستعدها من ابنته بعد أن سترها بها عن عيون الرجال التي أشاطت عقله... دق بعصاه في الأرض معلنًا عودته.

كصمت القبور تنعق فوقها الغربان المحلقة... ولو كانت النظرات تسن لها الحروب، لكانت حروب عالمية نشبت وأبادت الأرض ومن عليها مرات.... جلس مكانه أمام قرينه وهدان يتبادلان النظرات المتحدية، والتي زادت شفراتها حدة بعد اقتحام زينة المكان وإلقائها القنبلة غير المتوقعة.

بعد طول انتظار على أسنة الحراب، أخيراً وصل الأعيان... وبعد المشاورات اتفقوا جميعًا على الخضوع لحكم المستشار الداهية... والذي لم يترك الاتفاق ممهورًا بكلمتهم فقط، بل أجبرهم جميعًا على التوقيع بالموافقة على حكمه قبل الإعلان عنه... وهو التصرف الذي لم يندموا في حياتهم قدر ندمهم على التوقيع على تفاصيل لم يدرسوها مسبقًا... فلم يتوقعوا ولو في أحلك أحلامهم أنهم قد يفضلون السجن المؤبد على الموافقة على هذا الحكم!

أمسك المستشار الورقة يدقق في التوقيعات والأختام، ثم أومأ برضا تام، وناولها للمأمور:

«اتفضل يا هشام بيه... ده توقيع كل أعيان الرحايمة والبداري... وشرط جـزائي لو حد منهم موافجش على الحكم اللي هجوله دلوك على مسامعهم، هيدفع نص أملاكه للمركز المحلي للبلد، ويطلع من الاتفاج»

أمسك الرائد هشام الورقة بتقدير:

«تمام يا سيادة المستشار.. أنا هتحفظ على الورقة عندي»

«شكرا يا حضرة المأمور... ودلوك يا حضرات جـينا للمهم والمفيد... في اليوم ده... والساعة دي... كل الخلافات بين الرحايمة والبداري هتختفي كنها ما كانت...»

سرت همهمة بين الجميع، فأخرسهم بنظرة صارمة من عينيه المتبلدتين، ثم أكمل بعد أن عم الصمت من جديد: «والسلام هيعم على البلد... بس طبعا زي ما انتم

خابرين، الكلام ده مش ممكن يوحصل... ياما عملنا مـچالس مصالحة وفرضنا غرامات ونرچـعوا من أول وچـديد وكنك يابو زيد ما غزيت... أنا مش هستنى لما لا سمح الله حد يصور له جتيل، والحكاية تكبر لتار... لع... مش هيوحصل في الدايرة بتاعتي... ولا وأنا على وش الدنيا... يوبجى لازم نربط بين العيلتين بالدم»
انتظر لحظة حتى استوعب الجميع كلماته... ويبدو أنهم حفظوا الدرس، فلم يعلق أحد، ربما لشعورهم بهول ما سيلي... ودارت مباراة غير معلنة لحبس الأنفاس، عندما دوت أصداء كلمة «الدم» في الآذان.. وترقبوا.
أكمل بنبرة حازمة، ونظرات جامدة، وملامح أقل ما يقال عنها ملامح جبل صخري لن يلين:
«كل عيلة هتكتب أسماء الشباب والبنات اللي على وش چـواز في ورجة، وبكرة بعد صلاة الـچـمعة هنتجابلوا في ملعب البلد... هنعملوا جُرّعة... من كل عيلة رچـلين وبتين، هنـچـوزوهم لبعض... العيال اللي هيخلفوهم هيكونوا رحايمة على بداري... أو بداري على رحايمة... وبعدها السلام هيعم البلد ومعادش حد هيرفع السلاح على ولد عمه، علشان ظنه الخيبان إنه خطف أخته يا سيف بيه»
ضرب سيف رأسه بحديد القضبان صارخًا عندما بدأ يستوعب ما يقال:
«انت لازمن انـچـنيت!!انت واعي لختاريفك دي!!؟ چـواز إيه ونسب إيه!!؟ انت عاوز بناتنا يتـچـوزوا من الرحايمة!!؟ دي توبجى على چـثتي»
صرخ جاسر من القفص الآخر:
«وعلى چـثتي أنا كمان... انت لزمن انـچـنيت ولا شارب منجوع البراطيش وچـاي تتسلى على حسابنا»
لم يبالِ المستشار بالرد عليهم، وحدج كبراءهم بنظرة ذات معنى:
«وانتم كمان معترضين على الحكم؟؟ يا صلاة الزين! خزينة المركز المحلي هتدعي لكم الليلة باينها... هه.. مين أول واحد هيتبرع بنص أملاكه؟؟ المعترض يرفع

يدّه.... يا حضرة المأمور.. چهز لو سمحت وصولات التبرع.. يظهر إن الخزنة هتتعمر الليلة»

ضرب وهدان على طرف المكتب بقبضته حتى شعر كل الموجودين أن خشبه الزان تشقق:

«انت بتتمهزج بينا يا زيدان!؟»

رفع المستشار حاجبيه لأعلى:

«عيب يا وهدان.. متخليش غضبك يعميك... أنا كنت بتفج مع رچالة مش مع عيال صغار... ولا إيه يا رضوان؟»

صمت رضوان لحظات ليزن الكلمات:

«بس انت فاچئتنا.. نسب... صعبة جوي يا حضرة ال... مشتشار... وانت صعيدي وعارف؟»

«وعلشان أنا صعيدي هو دا حكمي... انتم بيدكم حتحطوا أسماء كل رچالتكم اللي مش متچوزين... والبنات اللي مسبجلهمش الچواز...»

زمجر وهدان: «انت عارف دا معناتو إيه!؟»

أجابه المستشار ببساطة:

«معناتو انت حر... ترفض توافج... أنا مش هچبرك... بس اتشاور مع كبرات عيلتك... زي ما انت عارف، أراضيكم كلها مع بعضيها... محدش فيكم يجدر يتبرع بنص ثروته من غير رأي الباجي... وانت كمان يا رضوان... اتشاور مع رچالتك»

صرخ سيف: «الحكاية مش عاوزة مشاورة... ارفض يابوي.. محدش يجدر يچبرنا»

قهقه المستشار محدجًا سيف بنظرة انتصار:

«چهز الوصولات يا هشام بيه... سيف البداري هيكون أول المتبرعين»

هب سيف مرة أخرى:

«شبر واحد من أرض البداري أبعد عن شنباتك يا زيدان بيه»
وجه المستشار حديثه للكبراء:
«هخليكم تتشاوروا ربع ساعة وهعاود... ويا ريت أسمع رأي واحد... يا موافجين... يا خزينة المركز هتزغرد الليلة»
تحولت الألسنة المشفرة مرة أخرى لحوارات خرساء، تتبادل فيها العيون الاتهامات... ولكنهم مدركون جيدًا أنهم في سفينة واحدة... ربما الشجاع المغامر فقط من سيغنم النهاية السعيدة... ولكن المخاطرة صعبة.
اقترب وهدان من ابنه الحبيس:
«رأيك إيه يا رافع؟؟»
زفر رافع وهو يقضم شفاهه بغيظ: «حاجـة واحدة بس لازم تعرفها يابوي... أرضنا هي عرضنا... ومحدش يفرط في عرضه واصل»
«وبناتنا يا ولدي... مش عرضنا كمان؟؟»
أطرق رافع رأسه متمتمًا: «هفضل طول عمري ندمان على اللي عملته... يا ريتني خليتها تغرج»
هتف جاسر ساخرًا:
«دلوك ندمان!؟ بعد إيه!؟ بعد خراب مالطة!؟ أنا من يوم ما شفت البت دي و...
قاطعه رافع محتقن الأوداج:
«اخرس يا جـاسر! مش وجته حديتك الماصخ خلينا في المصيبة دي! وبعدين لينا حديت»
أطرق وهدان قائلًا:
«النصيبة دي ملهاش إلا مخرج واحد... هو اللي اتفجنا عليه مع كبرات الرحايمة»
ضرب جاسر القضبان بيديه بهدير غاضب:
«لع يا عمي... لع... أكيد فيها تصريفة تانية... المشتشار بيتمسخر بينا... رد عليا يا عمي»

تطلعت العيون بأجيجها المشتعل نحو الباب، عندما دخل المستشار يتبعه المأمور... جلس مكانه وجال بنظراته بينهم: «خبركم إيه يا رچالة؟؟ هنشربوا الشربات.. ولا الخزنة هتاكل الليلة؟؟»

رأى أيديهم تعتصر مقابض عصيهم، وقد شحبت الوجوه وزاغت العيون... ثم رفع وهدان رأسه:

«خليك فاكره المغرز دا يا زيدان بيه... خليك فاكره زين عشان مش هيعدي بالساهل إكده»

قلب شفتيه: «مفهمش حاچة... جصدك إيه يا وهدان؟؟»

أطلق وهدان زفيراً مشبعًا بنيرانه المتفجرة:

«من نواحينا.. إحنا موافجين... بس لو البداري عنديهم اعتراض»

هب رضوان بغيظ:

«وأنا كمان يا وهدان... اتشاورت مع رچالة البداري... ومعنهدمش مانع... إلا إذا كان انتم عنديكم مانع؟!!»

تناطح الرجلان بنظرات التحدي، وسادت المكان رائحة احتراق شديدة... صفق المستشار بارتياح: «ألف ألف مبروك يا رچالة... بالرفاه والبنين إن شاء الله... هشام، هات لي ورجتين فاضيين بسرعة»

وكأن هشام بانتظار الطلب، فمد يده بما طلب.. وبدوره قدمهما المستشار للرجلين:

«اكتبوا أسماء الرچالة والبنات في سن الـچواز... وأولهم طبعًا اللي في الجفص»

اعترض وهدان: «بس رافع جاري فاتحته على معالي بت أخوي»

«خلاص يا وهدان... بلاش رافع... وانت عندك اعتراض يا رضوان؟»

لم يرد، وأمسك الورقة بغيظ، وبدأ بكتابة الأسماء... عندما قاطعهما المستشار:

«على فكرة... أنا عندي مصادري، وهراچع على كل الأسماء اسم... اسم...»

۞۞۞۞۞

«زينة هبيبي.. انت كدا كتير أيّط أيّط!؟»
«خليها تعيط يا مرت عمي... ما هو اللي حوصل مش جليل... دي الدنيا اطربجت فوج روسنا بسبتها»
رفعت زينة رأسها لتحدق في ابنة عمها بغيظ مستشيط: «بسببي أنا!!؟ ما هو انتي لو كنتي وقفتي معايا مكانش حد قدر يتكلم!»
«والله!؟ كانت النصيبة بجت تنين... لو كان عمي رضوان يجدر يحميكي من سيف، أنا مكانش حد هيجدر يحميني من رشاد وأبوي»
تنهدت فاليريا بانزعاج:
«سمحة... انت مش شايف انك أتأهرت كتير على ماما... زمانو كلكان أليك..»
لوت سمحة فمها يمينا ويسارًا:
«والله!؟ دا طرد بالحداجة ده ولا اسمه إيه!؟»
هبت زينة: «اسمه اللي اسمه يا سمحة... روحي بيتك دلوقتي»
«طيب... فتكوا بعافية، جال خيراً تعمل.. شرَا تلجى»
لوحت فاليريا بيديها بصبر نافذ:
«الله يآفيك... مآ السلامة»
شيعاها بنظراتهما حتى تأكدا من خروجها... شعرت فاليريا بحمل ابنتها الثقيل، فضمتها بقوة لصدرها:
«مش تهاف زينة... بابا رجل مهترم ومش ممكن يزأل زينة أبدًا»
رفعت رأسها عن صدرها لتهمس بانتحاب:
«هي دي المشكلة ماما.. بابا زعلان مني أوي المرة دي... وأنا مش عارفة هصالحه إزاي؟»
قاطعتهما هنَا، تثبت وجودها بفكرة براقة:

«أنا هقولك... بابا له طريقة واحدة بس بيتصالح بيها». التقت نظرات الأم والابنة الصغيرة بلحظة تفاهم، ثم نظرتا لزينة المتابعة الموقف بحيرة، وقالتا في وقت واحد: «صينية الكنافة بالقشطة!»

تجمدت ملامح زينة للحظات، ثم هتفت وآثار الدموع لا تزال عالقة بأهدابها:

«انتم بتهزروا صح؟ أنا مموتة نفسي قدامكم، وانتم بتهزروا!!»

هزت فاليريا رأسها بابتسامة رقيقة:

« هنّا هبيبي... اكعد مع أهتك، وأنا هروه آأمل الكنافة بنفسي... انت آارف بابا بيهبها من إيدي أنا بس»

«داكور ماما»

نظرت زينة بذهول لأختها: «انتم بتتكلموا جد!!؟؟»

قهقهت هنّا: «أيوه يا بنتي.. مش بيقولوا مفتاح أي رجل هو معدته... مفتاح الحاج رضوان البداري هي صينية الكنافة بالجشطة من إيدين الحاجة فاليرية.. دلوقتي تشوفي»

مسحت دموعها هاتفة: «هنّا... أنا سامعة صوت برة... شوفي كده!»

غابت هنا للحظات، ثم عادت تهتف بحماس:

«رجعوا... بس مش بابا وسيف بس... دي رجالة البداري كلهم... يظهر والله أعلم في مصيبة جامدة؛ لأن بابا دخلهم على المندرة على طول، وسيف وشه زي قفاه»

«بنت.. اهتشي... إيب قول ألى أهوك كده»

أطرقت هنّا باعتذار: «باردون ماما»

أشارت لها فاليريا: «روح مطبك هضري هاجات كنافة، وأنا جاي وراكي»

تهدلت ذراعي هنّا بإحباط وهي تنفذ الأمر:

«داكور ماما» جلست فاليريا جوار زينة تضمها:

«انت لسة زالان زينة هبيبي؟؟»

«خايفة يا ماما.. الاجتماع دا معناه إيه؟»
«هبر بفلوس... امممممم.. مش فاكر باقي»
ضحكت زينة وهي تقبلها:
«بكرة يبقى ببلاش يا حاجة فاليريا... آه لو آلان ديلون شافك دلوقتي!»
«آلان ديلون مين يا أبيط!؟ ردوان بمية راجل زي ديلون»
«سيدي يا سيدي.. يا رب اوعدنا»
«انت لازم يتجوز عن هب زينة، زي ما اتجوز أنا وبابا... الهب هاجة جميلة كتير»..
«والله يا ماما حكايتك انت وبابا دي، لو كتبت بالإبر على آفاق البشر لأصبحت عبرة لمن يعتبر»
ضاقت عينا فاليريا: «انت بتقول إيه بنت؟؟»
«متاخديش في بالك يا فال»
«انتي بتهبي اللي اسمه...؟»
«قصدك ضياء»
«وي.. ديا»..
«يعني... هو مش حب أوي... تقدري تقولي ارتياح... اقتناع... أكيد الحب هييجي في وقته»...
انفتح الباب فجأة لتقفز المرأتان جزعتين. وضعت فاليريا يدها على صدرها تهدئ من ضربات قلبها السريعة، عندما رأت المقتحم المتجهم:
«بسم الله الرهمن الرهيم! في هد يدهل كدا من غير ما يامل إهم وداستور!؟»
ارتبك لحظة قبل أن يعود لتجهمه وهو يشير لزينة:
«لا مؤاخذة يمّا... انـڃـري جدامي يا ڃـلابة النصايب!»
أمسكتها فاليريا من يدها باعتراض:

«أولًا أنا مش اسمي يمّا... ماما يا سيف.. اتنين... زينة مش هيروه أي مكان إلا مآيا»

من بين أسنانه بصريرها المسموع، مد يده محاولًا التحكم بأعصابه: «يمّا... يا ماما... لو سمحتي... بكفاية اللي حوصل النهاردة بسبتها»

لوحت زينة بذراعيها من خلف أمها الواقفة حاجز بينهما: «أنا معملتش حاجة... لو كنت بتستعمل مخك زي ما بتستعمل إيديك مكناش وصلنا للي إحنا فيه»

حاول الوصول لها بيده ليضربها صارخًا وقد انفلتت أعصابه: «انتي كمان ليكي عين تفتحي خاشمك!!؟ البعيدة معندهاش دم!»

«سيف!»

صوت والده أوقفه عن محاولته، فأسرعت تحتمي به: «بابا.. أنا معملتش حاجة... هو اللي اتهجم علينا»

«أنا يابوي»..

أسرع وأمسك بذراع ابنه بخشونة لم تؤثر بجسده الضخم، ولكنه خضع لوالده بإطراق:

«إياك تتهـچـم على أختك وأمك، وأنا النفس لساه بصدري... لما أبجى أموت ابجى بيع واشتري فيهم»

«يابوي... چـلعك ليها ده هو اللي وصّلنا للبلوة اللي كلنا متعاصين فيها»

«مش هي بس يا سيف... تسرعك... ولا مخك اللي عاوز مخ تاني جطع غيار... لو كت سمعت لأختك وجت ما جالت لك محصولش حاچـة، مكناش واجفين الوجفة دي»

«كت عاوزني أعمل إيه يعني وكل الرچـالة شايفينها خارچـة من لنش الزفت ويلد المحاريج، وهي متلفحة بالبطانية وحالها ما يسر عدو ولا حبيب!؟؟»

«وآخرة تفكيرك الواطي باختك إيه يا سبع الرچـال!؟ عرفت مين السبب في الفضيحة؟؟»

«ماهي لو مكانتش...»
«خلاص يا سيف... خلاص... زينة..»
«نعم بابا...»
«الواد ده اللي جلتي إنه عاوز يخطبك... كلميه وجوليله ياچـي يطلب يدك مني»
اتسعت عيناها وتبادلت مع أمها النظرات المذهولة، ثم سألته غير مصدقة:
«انت قصدك... أكلم ضياء!!؟»
أجابها بزهق: «أيوه يا زينة... بس جوليله بسرعة... لازمن يكون حدانا بكرة بالكتير»
ارتبكت وضاعت الكلمات من رأسها... ثم فوجئت بالسرعة المطلوبة لحضوره..
«بابا... بس بكرة مش هيلحق... ممكن يقدر ييجي في fin de semaine.. قصدى آخر الأسبوع»..
ضرب بعصاه الأرض فانخلعت قلوبهم: «أنا جُلت بكرة يعني بكرة... يتشجلب ولا يتعدل... يطول ولا يجصر مش شغلتي... لو مـچـاش بكرة مافيش حدايا بنات للچـواز»
ابتلعت ريقها بصعوبة وسألت:
«بابا.. هو المستشار حكم عليكم بإيه؟؟»
خطوات بالكاد تلامس الأرض، تسللت بقدميها الصغيرتين بعد أن تصنتت على الباب، وسمعت بأذنيها ما سيقلب خريطة بلدها الصغيرة للأبد... دخلت غرفتها وأحكمت إيصاد الباب تتطلع حولها خوفًا من أي عيون تكون قد رصدتها بدون أن تشعر... زفرت بارتياح عندما اطمأنت أن الوضع على ما يرام... أخرجت تليفونها المحمول من جيب بنطالها الجينز، وطلبت الرقم... ثم انتظرت حتى جاءها الرد في الجهة المقابلة: «ألو... نجلا... عندي أخبار فظيعة... وانتي كمان!؟ طيب نتقابل في نفس المكان... أوك... نص ساعة وأكون عندك... محدش هياخد

باله الدنيا مقلوبة هنا فوقاني تحتاني... وأكيد عندكم كمان... بقولك إيه... جهزي قايمة بأسماء كل شباب عيلتكم وأنا هعمل زيك.... هقولك لما نتقابل... سلام»



في قلب عتمة الليل الساكن، إلا من هسهسات حشرات الظلام، تتقافز متسترة بغطائه الثقيل الآمن بين عيدان القصب المتمايل مع نسمات طقس الصعيد الشحيحة... ولكن أمنها المؤقت تبدد تمامًا وهي تتخبط مع بعضها، فزعة باحثة عن مخبأ يقيها الموت القادم مسرعًا على عجلات خشبية، يمتطيها فارس قد ألهب ظهر الجواد المسكين بلسعات سوط من لم تعرف الرحمة طريقها لقلبه، ولا لانت عيناه يومًا بإحساس بشري... تدفعه قوى ظلامه الطاغية بتعذيب جواده وحثه على الطيران بالكارتة، حتى انشق الطريق عن ساحة كبيرة من الخيم البالية من الخيش، وقد استطاع ساكنوها قهر الظلام بعشرات المشاعل البدائية الصنع.

داخل إحدى الخيمات... دقات طبلة ونغمات ناي... اقترب مختلسًا النظرات، ليراها تتمايل بجسدها المغناج على دقاتها، وكأن جسدها اللدن هجرته العظام، وتركتها لتعيث فسادًا بعقول السكارى حولها... أسرعت نحوه عجوز كانت تصفق للراقصة بحماس، رحبت به بعينيها الملطختين بالكحل بوقاحة وجرأة:

«يا مُرحب يا مُرحب بسيد الناس... اتفضل الموطرح موطرحك يا حبة عيني..»

رمق الراقصة بنظرات لو تحولت لشفرات لقسمتها نصفين... تجاهل المرحبة به وهو يتجاوزها مغادرًا الخيش: «جولي لها تاچـي في التو واللحظة... أنا معستناش حد...»

ضحكت العجوز بمياعة لا تناسب سنواتها الخمسين: «وإن مكتش تتلوع في انتظار نوارة يا نضري... هتتلوع على مين أمال!؟»

تأمل باحتقار جسدها المستور بقماش أسود، لم يستر الكثير من لحمها المكتنز، ثم جذب طرحتها حتى كاد أن يخلعها عن رأسها مدمدمًا:

«اسمعي يا ولية يا خرفانة انتي... دجيجة واحدة... لو نوارة محصلتنيش في كوم الزبالة اللي انتم متخبايين فيه ده... في ساعة زمن هيوبجى كوم تراب بعد ما أولع فيه!»

لطمت صدغيها السمينين مولولة:

«يا خرابي... وليه بس يا سي چاسر بيه!؟إحنا كنا عملنا إيه بس!؟ جال يا جاعدين يكفيكو شر الـچـايين!»

رمقها باحتقار وتجاوزها... عادت تلطم وهي تنادي على إحدى الفتيات:

«بت يا حميدة... انتي يا بت يا مزغودة!»

تلوّت الفتاة بوجهها المصبوغ بكافة الألوان وهي تقترب منها: «خبر إيه يا خالة مجبورة؟»

«تعالي أجولك... ارمحي وحضّري الوصاية يا بت.. الـچـوزة والمزة والعرج لسيدك چـاسر... عفاريت الليل بتتنطط في خلجته... على ما أروح أچـيب نوارة، جبل ما يطربجها فوج روسنا.. همي يا بت انتي لساتك واجفة جدامي يا مخبلة!؟»

بمياعة تحركت حميدة:

«خلاص يا خالة... مانا رايحة أهه... اركب طيارة يعني.. ولا أركب طيارة!؟»

«يا خراااااابي منك بت... بورييييه منك... الله يجطع البنتة وخلف البنتة!»

تتلوى وتتمايل على دقات الطبلة بمجون... وبكحلتها تتراقص وتجرح قلوب مريديها، تذبح برمشها الفتاك، من يعشق رنة خلخالها، تدق على الأرض بكعبها الغزلاني، فتخطف العيون، خيطان ثوبها المشقوق من الجانبين حتى... وقبل أن تشبع ثورة الجياع، تتلوى من الجديد مؤرجحة عصاتها العاجية، فتدور وتدور، حتى تستقر من يرسو عليه المزاد، ليكون ضحيتها إلى أن تشرق شمس النهار.

كانت حائرة بمن تختاره عصاتها الليلة، عندما لاحظت غمزات مجبورة، أدركت أن في الأمر خطب جلل، مجبورة لا تتخلى عن هذه الفقرة بالذات في العرض إلا على موتها.

غمزت لجمهورها المجنون، وترجلت عن المسرح البدائي الصنع من صناديق خشبية متراصة ومغطى بسجادة مهترئة، بإشارات تعرفها جيدًا. عرفت السبب، فتركت مجبورة تحاول تهدئة الجمهور الصاخب وهي تعدهم براقصة أجمل منها. رنت ضحكتها الساخرة وقد زاد ضجيج جمهورها باعتراض... دخلت تتلوى بدلال:

«سالخير يا سيد الناس كلاتهم، وسيد جلبي وعجلي»
نفث دخان الجوزة في الهواء، ورمقها من بين سحب الدخان ولم يرد... مطت شفتيها باستغراب وهي تقترب. أمسكت مبسم الجوزة ووضعتها بين شفتيها الغنيتين... أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقت دخانها في وجهه. تلقى نفحة الدخان كالمسطول، فبادرته ضاحكة بتلك النغمة الشعواء التي تحرق أحشاءه:
«خير يابو عمه... مزاچـك معفر ليه!؟ ماعاش ولا كان اللي يعفر مزاچـك»
استولى على مبسمه مرة أخرى، ليضعه بين شفتيه رامقًا عينيها الناعستين بنظرة مبهمة... ثم أخرج نفسًا آخر وخلع عمامته ليظهر رأسه الأصلع. هتف بصوت أجش: «عاوزك تنسيني كل اللي حوصل يا نوارة... الليلة دي معاوزش أتفكر في أي حاچـة واصل»
جلست جواره تسأله بدهشة؛ فلم تر جاسر كبير الرحايمة بهذه الحالة من قبل:
«وإيه اللي حوصل؟؟»
دفع بعصا الجوزة فانقلبت مريقة ما فيها من ماء: «بجولك عاوز أنسى، تسأليني إيه اللي حوصل!!؟»
«خلاص... خلاص... روّج دمك..»
ثم نادت بصوت عال:
«بت يا حميدة... بت يا حميدة!»
دخلت الفتاة تتلوى: «خير يا نوارة؟»
زغرت للفتاة بحدة:
«اوجفي عوچ واتحدتي عدل يا بت، يا أجوم أچـيبك من شعرك... بتتجصعي كده ليه زي عود الجصب الممصوص!؟»
وضعت حميدة يدها على صدرها هازة رأسها لتصدر صوتًا بالقروش الذهبية التي تزين منديل رأسها: «مليح إكده يا أبلة نوارة؟ عزنا في مدرسة... خير كتي عاوزة حاچـة؟»

«عازك عزرائيل يا بعيدة... هاتي چوزة تانية وعمريها تعميرة البشوات... مش التعميرة اللي بالك... الغالي عاوز يسلطن مزاچه الليلة»
تمايلت حميدة بدلال وهي تطالع جاسر الغائب في أفكاره عما يجري حوله، وقد اتكأ على مسند المجلس العربي متربعًا: «بس لاچل عيون سي چاسر... أحلى چوزة بأحلى تعميرة هتكون حداه هوا»
تضارست أسنانها وهي تشيّع الفتاة بنظراتها وتتوعدها سرًا... تمايلت على جاسر تربت على صدره: «خير يا سيد الناس... مين استچرا يكعر مزاچك!؟»
زغرها بنظرة شاردة:
«حاچة مكانتش على البال ولا على الخاطر يا نوارة... يا بوووووي! مغرز طالع من نافوخي... والأكادة.. إني معرفش أعمل فيه حاچة... ومالوش مخرچ»
«مغرز إيه ده اللي يبرچلك ويخلي حالك حال؟؟ خير يا سيد الناس؟؟ لأ... دا انت شكلك والعياذُ بالله واخد عين موكن... ولازم أرجيك اسم الله عليك يا خويا من عين شافتك ومصلتش على النبي... هي مافيش غيرها عين حميدة بت ناعسة الهبلة... أجولك، هعملك زار»
بصوت ملول: «نوارة»
«عيون نوارة.. وجلب نوارة.. وعجل نوارة»
«تعرفي تجفلي خاشمك وترجصي لي وحدي؟»
«بس إكده؟ غالي والطلب رخيص يا سيد الناس... وأچدعها رجصة لچاسر بيه الرحايمي»
ضغطت على زر مشغل الموسيقى المعد دائمًا لمثل هذه السهرات الخاصة، وبدأت تتلوى بجسدها المتمايل الماجن.
تابع خصرها المتمايل بدلال ولم تتخل عنه همومه... وفجأة تلاعبت تعميرة الجوزة بعقله، فتخيل زينة البداري مكانها... وشعرها الأحمر يتراقص حولها،

وعيونها الزرقاء السماوية تغمز له... تتوسله الوصال بابتسامة مغناج توقظ الموتى من قبورهم.

ضرب رأسه بيده متمتمًا:

«يا بوووووي... لو حوصل اللي في بالي.. كنها هتبيض لك في الجفص يا چاسر، وزينة هتكون من حدك ومن نصيبك! بس أعملها كيه دي؟؟ وزفت الطين ده اللي اسمه زيدان.... بيجول هيعمل جرعة... هدبرها كيه دي؟؟»

كانت نوارة قد توقفت عن الرقص لتجده شاردًا عنها، تسمرت تراقبه ثم سألته بغيظ:

«سلامتك يا سيد الناس... سلامتك... انت بتتحدث مع روحك!!؟»



هتفت زينة بانزعاج شديد:

«ولكن دا مستحيل!! مش ممكن الناس تتجوز بالطريقة دي!! إحنا فين بالظبط!!؟ وانتم إزاي توافقوا على حاجة زي دي!!؟

اعتصر سيف قبضته بغلٍ شديد، ضاغطًا على أسنانه لدرجة الألم:

«الملعون زيدان الزفت... كنه حية من تحت تبن... مسك عليهم ورج لو رچعوا في كلامهم وموافجوش على حكمه هيدفعوا نص أملاكهم... وهو صعيدي عُجْر وخابر زين... الأرض عرض منفرطوش فيها واصل»

أومأت زينة بتفهم:

«علشان كده انتم وافقتم على ضياء!»

بانفعال شديد صاح سيف مرة أخرى:

«أنا أچوّزك للچن اللزرج، ومچوزكيش بيدي لنفر ملهش عازة من الرحايمة!»

رمقت فاليريا زوجها المكتفي بمراقبتهم شاردًا في أفكاره... ربتت على يده بنعومة:

«مالك ردوان.. انت كويس؟؟»

ربت على يدها بدون أن ينظر إليها:

«أنا بخير... بس اللي حوصل اليوم مكانش سهل... وكله بسبة ابنك... بس نجول إيه... جدر الله وما شاء فعل»

انبرى سيف مدافعًا عن نفسه بتحويل دفاعه لهجوم:

«وبتك اللي عيارها فالت!؟ أخدت بت عمها وراحت تتفسحوا في الفلوكة... فاكرة نفسها في بلاد الخواچات... فضحتنا وچرّستنا وخلت سيرتنا على كل لسان... يا ريتك كتي غرجتي ولا ورطتينا الورطة دي!»

وقفت زينة تلوح بيدها في وجهه:

«انت كمان ليك عين تتكلم!؟ أنا كنت هبوس إيدك وأنا بقولك رافع معملش حاجة... بس الحشرات اللي بتمشي في دماغك هي اللي مسيطرة عليك... مش ممكن تكون بني آدم طبيعي!»

وقف أمامها تلوح علامات التوحش والهمجية على ملامحه: «انتي واعية للختاريف اللي بتخترفيها!!؟ والله لو مكانش أبويا جاعد لكت شربت من دمك!»
«لا يا راچـل! على أساس إنك عامل اعتبار لوچـودي!»
«يا بووووي!!...»
«بلا أبوك بلا بطيخ... بزياداك بجى انت خليت فيها بوك ولا خوك!؟انت سبة كل البلاوي ولساك بتكابر!؟ ربنا ستر وهنجدروا نشيلوا اسم أختك من الكشوف اللي طالبها سي زيدان الزفت بحـچـة إنها مخطوبة... الدور والباجي على حضرتك شوف مين هتطلع في جرعتك!»
شهق سيف وكأنه لم يتوقع أن يكون اسمه من ضمن الأسماء: «أنا يابوي!؟»
«إيوه يا سبع البرمبة... وانت فاكر إيه!؟ زيدان ده عيل صغار وبيلعب معانا!؟ الراچـل دا دماغه واعرة جوي... ولسة اللي مخبيه أوعر من اللي حوصل»
لوح سيف بيده بعنجهية:
«والله أكتله وأتاويه... ويلد صريخ ابن يومين معرفش طريجه»
تنهد رضوان معلقًا عينيه بالسقف:
«صبرني يا رب على ما بليتني!! ما هو يا تصبرني يا تاخدني أغور من خلجته!»
حدجته فاليريا بنظرة عاتبة:
« سيف هبيبي... إيه كلام فارغ بتكوله دا!!؟ كول باردون لبابا فورًا!»
ارتفعت الحواجب حتى اصدمت بالعمم، ثم تنهد سيف مطرقًا، ولم يستطع رضوان منع نفسه من الضحك، وهو يضم زوجته من كتفيها قائلًا بتنيهدة راحة شقت الهموم المكومة في صدره أخيراَ:
«والله انتي يا فاليرية أجدع حرمة في البلد دي كلاتها... وكل يوم بحمد ربنا إنه رزجني بيكي»
حدجتهما بنظرات مستغربة.. ثم نظرت لزينة المستمتعة بمنظر والديها بكل هذا الحب العامر بعيونهم: «زينة... أنا كُلت هاجة غلط؟»

«لا يا ماما... الدنيا هي اللي غلط يا حبيبتي... لو الناس كلها تفكر زيك كده ببساطة وحب... مكانش كل اللي بيحصل دا هيحصل... يلا بينا ننام، ونخلي بابا مع سيف يفكروا في اللي هيحصل بكرة»

رمقت زوجها بنظرة أخرى:

«ردوان هبيبي... إيه يأني لما سيف يتجوز بنت رهايم!؟ وإيه يأني لما نأيش مبسوطين!؟؟ اامل راهة لدماغ انت هبيبي... مافيش هاجة هتهصل غير كل هير.. بس توكل على الرب»

هز رضوان رأسه ثم نظر لسيف: «سمعت بودانك حديت أمك العاجلة الراسية!؟ بتجولك: توكل على الله.. يسلم فمك يا فاليرية»

٦

«النبلاء: هم الأشخاص الذين يفعلون أشياء جيدة دون أن يعرف أحد بذلك»
ـ وليام شكسبير

....

«يا نهار اسود! يا نهار مطلعتلوش شمش! يا خرابي يا خرابي! مكانش يومك يا رحايمة! الحديت اللي بتجوله دا... صوح يا وهدان... ولا أنا اتخبلت على كبر!؟ جولي يا ولد عمي يستر عرضك يا خوي... جولي إني مكوبسة وفوّجني بسرعة الله يخليك!»

هب وهدان واقفًا ملوحًا بيده:

«بزياداكي بجى يا وليه! البوم عشش في الدار من نواحك اللي مبيخلصش ده... هي نافورة مچاري وطفحت!؟ وعلشان ترتاحي... لع كل اللي رافع جاله حوصل يا ست الدار... ومن بكرة رچالتنا هيتچوزا بناتهم، وبناتنا هيتچوزا من خيالات المجاتة اللي حداهم»

وعادت تصرخ وهي تشد طرحتها السوداء حول عنقها: «يا خراب ديارك يا رحايمة!! يا ريتك ما جولتها في وشي!»

أمسك وهدان أطراف عباءته ولفها حول عنقه هادرًا بعصبية: «رافع يا ولدي أنا مطايجش خلجاتي... هروح أشم شوية هوا وأغور من وش أمك... تاچي معايا يا ولدي؟»

«لا يابوي... أنا جاعد... ههدي أمي»...

نظرت له أمه بذهول:

«تهديني من إيه ولا إيه يا ولدي!!؟ كيه توافجوا على المسخرة دي!!؟ وهم البداري وافجوا؟؟»
« مكانش حد يجدر يرفض يمَا... اللي يرفض يدفع نص أملاكه للمركز»
«يادي الخراب المستعـجـل! كان مستخبي لنا فين داكلاته!!؟ استرها معانا يا رب»
«وبكرة كمان اللي يرفض الـجـوازة منينا، ولا منيهم هيدفع نص أملاكه»
«يعني ملهاش مخرج الوجعة المهببة دي يا ولدي!؟؟»
«لا يمّا... أتاري زيدان ده رجـل عُجْر صوح... لعب بينا كلاتنا وعمل اللي براسه لما وجعنا في الخية... ومحدش جدر يجوله تلت التلاتة كام»
«رافع يا ولدي.. إوعاه بوك يكون كتب اسمك في كشوف الغبرة دي!»
« لا يمَا اطمني... بوي جالهم ولدي رافع جاري فاتحة معالي».
تبرمت ست الدار:
«منها لله زينة الخراب والشوم! يجطعها ويجطع سيرتها! هي سبة كل النصايب اللي بتتحدف علينا دي! يا ريتك كت خليتها تغرج ولا تغور في عشروميت نصيبة تاخدها، هي وكل البداري في ساعة واحدة»
«خلاص يمَا... اللي حوصل حوصل... ما تندميش على الخير يا ست الدار.. انتي خلفتي راجـل مش... ولا مؤاخذة»
«راجـل وسيد الرجـالة كمان... ربي يحميك يا ولدي ويهنيك، ويسعدك دنيا وآخرة»
«الله عليكي وعلى دعوتك يا ست الحبايب.. أنا بجى أروح أحط راسي وأنام وأنا مرتاح... وانتي كمان يا ست الدار... ارتاحي.. بكرة يوم طويل... سي زيدان بيه طالب كل الرحايمة والبداري من أكبر راجـل فيهم لأصغر عيل لازمن يكونوا متـجمعين في الملعب بكرة من صباحة ربنا»
«والحريم كمان يا رافع؟»

«إيوه يمّا والحريم كمان... والعيال... بيجول العيال هم اللي هيختاروا ورج الجرعة... زغرتي يا ست الدار الرحايمة هيتـچـوزا من البداري بالجرعة... دحنا هنشوف أيام أسود من جرن الخروب.. يلا تصبحي على خير»

❂❂❂❂❂

أخذت تقلب الوسادة تارة، وتلكمها بقبضاتها تارة أخرى... ولكن النتيجة تظل واحدة في كل مرة... ما إن تضع رأسها عليها وتغمض عينيها يتراءى لها، بنظراته المفعمة بكل المشاعر المتناقضة؛ حب وكره، أمان، وخوف... الغريب أنها خبرت معه كل هذه المشاعر داخل إحساس مخدر من الاحتواء اللذيذ... كلما تلاعبت بهم الظروف في لقاء غير مخطط... قامته الطويلة، نظراته الباردة، وشخصيته القوية تفرض نفسها في كل مرة... عندما تلاعب بأعصابها، وهددها أن يلقي بها في النيل... رغم رعبها من كل لحظة صدقت فيها ادعاءه، ولكن من داخلها لفها إحساس الاحتواء بغلالة رقيقة قوّت عزيمتها باستقبال نتائج ما سيحدث بثقة... كان معها... لفت ذراعيها حول جسدها تتخيلها ذراعيه... تمتمت باسمه بخفوت وغياهب النوم تعتلي عرش وعيها «رافع».

❂❂❂❂❂

شلالات من الشعر الأحمر عابق برائحة النيل، مع عيون حالمة تنافس السماء في زرقتها... ولسان متمرد في مزيج سحري لخنوع أنثى.

خلطة مذهلة أسالت الغضب في عروقه... فكر بغيظ شديد: «ترى من سيستطيع الإمساك بلجامك أيتها المهرة الحمراء؟؟ من سيروض تلك النظرة الشيطانية في عينيكِ؟؟ من سيحكم الطوق على عنقك ويسمك باسمه؟؟ أي رجل هذا سيستطيع احتواء كل هذه النار الحارقة في أجيجها، وكالبركان الخامد في هدوءها..(ناريسا)».

ضرب وسادته يلعن أفكاره التي سكنتها، ثم ألقاها على طول ذراعه وأمسك بواحدة أخرى... ولم تكن أفضل من سابقتها.

❂❂❂❂❂

تطلعت للقادم بذهول، ثم ألقت بنفسها على صدره بشهقات باكية. ربت عليها بحنان هامسًا:

«اطمني... رافع راجـل جوي هيجوم منيها»

«يا رب يا سيف.... يا رب... أنا مش عارفة الدكتور اتأخر ليه!! بقالهم كتير أوي جوة»...

«خير يا بت أبوي.... كل تأخيرة وفيها خيرة».

نظرت خلفه متسائلة:

«هي معالي جاية معاك ولا إيه؟؟»

التفت بحدة ليرمقها بمزيج من الاحتقار والغضب، ثم سلخ عينيه عنها وكأنها لا تهمه بشيء.

«كيفك يا زينة؟؟ ورافع أخباره إيه؟؟»

كانت تحدث زينة ولكن عينيها لم تفارقاه، وكأنها تتوسله نظرة... نفض ثوبه وكأنه لم يسمعها:

«زينة... أنا رايح أجـيب لك عصير ووكل... شكلك هتوجعي من طولك».

شيعتاه بنظراتهما حتى غاب في آخر الردهة... التفتت لها مجهدة، تربت على ذراعها:

«أنا متشكرة أوي يا معالي»

لم تسمعها... كانت ما تزال عيناها معلقتين حيث اختفى طيفه: «هو خوكي دا جلبه إيه!؟ حـجـر صوان!؟ دا حتى متطلّعش بوشي»

«الزمن بيداوي الجراح يا معالي... اصبري»

بلهفة وقفت تستقبل الطبيب الذي أزاح اللثام عن وجهه، وقد تراقصت حبات العرق على جبينه، وتجعدت ملامحه بالإجهاد... لم يستطع رسم الابتسامة المطمئنة للوجوه المترقبة أي انفعال منه يطمئنهم قبل أن ينطق... أزاح الصعيدي الفتيات عن طريقه، وعندما امتدت يده يدفعها هي الأخرى، أوقفته بتحديجة ثاقبة، باردة أعادت ذراعه مكانها. تصلبت ملامحه عبوسًا، وتضارست أسنانه في معركة غير معلنة، لم تلن ولم تتراجع قدر بوصة، دفعته وتجاهلت كل مراجله التي تغلي، وفي غمرة انشغاله بكبريائه المجروح، اغتصبت منه المبادرة:

«دكتور أرجوك طمنا.. أخباره إيه؟؟»

تنهيدة الطبيب كانت كالوقود الذي زادها اشتعالًا... لو كانت في أي موقف آخر لاستسلمت لتلك الإغماءة التي تهدد وعيها برغبة دفينة للتخلص من هذا الموقف المستحيل احتماله... هب الرجل الغاضب خلفها يحث الطبيب على الكلام: «ما ترد علينا يا داكتور... هو چراله حاچة لا سمح الله؟؟»

«لأ.. اطمنوا... بس للأسف هو نزف كتير أوي... حاولنا إسعافه بس...»

صراخ من الخلف وانهيار من الفتاتين:

«لااااا يا حبيبي يا خوي... يا نضري!! مكانش يومك يا زينة الشباب!!»

«إيه اللي حوصل يا ولاد؟؟ بتصرخوا ليه؟؟»

التفتوا مشدوهين للقادمين، وقد اكتسى الهلع وجوههم... رجال ونساء. هب الرجل الأكبر سنًا:

«إيه اللي حوصل؟؟ الأخبار اللي سمعناها صوح؟؟؟»

وعندما طال الصمت ولم ينطق، صرخت السيدة الأكبر سنًا تلطم خديها:

«يا حبيبي يا ضنايا!! مكانش يومك يا نضري!!»

التفت لها الرجل المهيب:

«اسكتي يا حاچة لما نسألوا الداكتور... متجدريش البلا جبل وجوعه»

«ماهو باين أهه يا حاج... مش شايفهم السواد مالي وشوشهم، وعيونهم مبتطلعش في عيونا!؟ باجي نسمعوا إيه تاني؟؟»
ثم التفتت للفتاتين الصغيرتين:
«كل النصايب دي بسباتكم انتم يا مجصوفة الرجبة منك ليها... اللي يطولني على رجابيكم دلوك أجطعها بسناني»
ولم تنتظر، وهجمت على الفتاتين بوحشية... وقف الرجلان حائلًا بينها وبينهما... فركضتا تختبئان خلف الطبيب.
صرخت بكل قوتها الخائرة:
«خلاص!! كفاية!! اللي بتعمليه دا مش هيرجع اللي راح... مش هيرجعه.... مش هيرجع.... يا ريت كل اللي حصل مكانش حصل... يا ريت»
التقت كل العيون الدامعة ببعضها، ليعودوا بذكرياتهم لذلك اليوم الذي بدأت فيه كل الأحداث الحقيقية.

❂❂❂❂❂

كان ملعب البلد مكتظًا رغم عدم وجود مباراة كرة القدم اليوم... المشهد كان يستحق مُعلّقًا يتابع الأحداث ويذيعها على الهواء؛ فما يحدث اليوم حدث تاريخي، ولن يتكرر خلال المائة سنة المقبلة على الأقل. اتخذ البداري الجانب الأيمن من الملعب، بينما اتخذ الرحايمة الجانب الأيسر... وبباقي الجهات جلس مشاهدون لا يقربون بصلة للعائلتين... يدفعهم فضولهم لمشاهدة الحدث غير المسبوق.
في وسط الملعب امتدت مائدة مستطيلة مغطاة بمفرش أبيض... فوقه تراصت أربع حاويات زجاجية شفافة، وقد امتلئت كل منها للنصف تقريبًا ورقًا مطويًا... على كل جانب من المائدة حاويتان لكل عائلة... وفي منتصف المائدة دفتر مميز الشكل، وقد جلس أمامه شيخ الجامع بعمامته البيضاء المميزة، وقفطانه الأسود اللامع... سرت همهمات فضولية فور جلوس الشيخ ومجاذبته لأطراف الحديث

مع المستشار زيدان، الذي أومأ برأسه ثم رفعها ليراقب الجميع بعين يطل منها الحزم وعدم التهاون... ثم نادى كبراء العائلتين ودعاهم للوقوف أمامهم عبر الميكرفون الذي تم تجهيزه خاصة للمناسبة.

أمسكت زينة بيد أمها... فالتفتت لها فاليريا مدهوشة من يدها المثلجة تنتفض بين يديها:

«زينة هبيبي... انت كويس؟؟ مش كان لازم يهضر وانت تأبان»

« متقلقيش ماما... أنا بقيت كويسة.. ومينفعش مجيش... هي هَنا فين؟»

قلبت فاليريا شفتيها:

«مش آرف... كالت هتروح تكابل نجلا... أكيد بيرغي سوا سوا... شوفي... بابا وسيف بيتكلموا... وشكلهم زألان كتير»

أومأت زينة وهي تزدرد ريقها بصعوبة لرؤيتها وجه والدها مكفهراً... ولم تكن بحاجة لاستفسار عن السبب؛ فوجود شيخ الجامع بدفتره يعني أن المستشار لا يترك لهم منفذًا واحدًا للهروب من الاتفاق... وهذا طبعًا لن يروق لأي من العائلتين... وها هو رافع وجاسر أيضًا يلوحان بأيديهما باعتراض... سرحت أفكارها في تلك الملامح العابسة بمزيجها المذهل بين القوة والحنان الغامض.

سراَ حسدت معالي عليه، ارتعشت تفكر... لابد أنه يلوم نفسه آلاف المرات على إنقاذه لها... لو لم يفعل لما كان لهذا اليوم وجود... على الأقل بدون أن يكون ذنبها... جذبتها سمحة من يدها:

«زينة يا بت عمي... إيه اللي بيوحصل ده؟؟ حلم ولا علم ده ياخواتي!؟»

تراقص حاجبا أمها قائلة بصوتها الجهوري:

«أنا مش عارفة هم إزاي يوافقوا على الحكاية دي!! هو الجواز لعب عيال، ولا كان لعب عيال!!؟ قال بطلوا دا واسمعوا دا... حِكَم.... انتي شايفة أخوكي يا بت يا سمحة؟؟»

«إيوه يمّا... أهه واجف فِريح عمي كانن زي عوايده»

«أمال ليه يا بت مش عامل هيصة زي رافع وجاسر وسيف!؟»

«ابنك ولا هتشتريه!؟أهه واجف يزغر وبس، وسايب الخناج لاصحابه»

«عيب يا بت متقوليش كده على أخوكي... دا زين الشباب... بس تقولي إيه هو البخت... منورة يا بنت سلفي»

مالت شفتا زينة بتهكم، متعجبة من تلميحات زوجة عمها، ثم تجاهلتها وعادت تتابع ما يحدث رغم أن أصواتهم لا تصل إليها.

وفي الجانب الآخر، لم تكن درجة الغليان أقل:

«بت يا معالي... هم بيجولوا إيه يا بت؟؟»

« والله مخبراش يا مرت عمي... أهم جاعدين يشوّحوا بدراعاتهم»

«وچبتي إيه من عندك يا فصيحة!؟ ما هو دا اللي أنا شايفاه كمان... مش يعلوا أصواتهم شوية!؟ سامعة حاچة يا بت يا فريدة؟؟»

أجابتها فريدة متململة بقلة اهتمام:

«حالي حالكم يا مرت خالي»

التفتت لها ست الدار باندهاش:

«انتي مالك يا بت!؟ وشك ميتفسرش وشايلة طاچن ستك على راسك ليه!؟»

زغرت لها معالي بتكبر، وشبح ابتسامة ملتوية يداعب شفتيها المكتنزتين:

«خليكي منها دي بت وش فجر... يمكن خايفة لجرعتها تطلع في غفير من حداهم»

«عيب يا معالي... بلاش حديتك الماصخ ده... يا ريت چاسر كان وافج... كان زمانه هو وفريدة برات لعب الصغار ده»

أشاحت فريدة بوجهها كي لا تلمحا دموعها. عقدت ذراعيها على صدرها بقوة لتمنع ارتجافها، ورغبتها المسيطرة عليها لتركض هاربة عائدة لغرفتها كما تفعل دائمًا... أغمضت عينيها تتوسل للوقت ينقضي بسرعة.

وضع وهدان كلتا يديه على أطراف المائدة المعدّة وسط الملعب، أدنى رأسه من رأس زيدان متمتمًا بحروف كالرصاص: «جصدك إيه بعمايلك دي يا زيدان بيه!؟؟ ما إحنا وافجنا وخلصنا... لزومه إيه تتعب شيخ الـچـامع معانا!؟»

بابتسامة هادئة وواثقة أجابه المستشار:

«وإيه اللي مزعلك يا وهدان!؟ أنا مهمشيش الليلة إلا لما يكون الاتفاج على يد حضرة الشيخ... ميزعلكش فحاچـة... وخلصنا منه الحديت ده.. اللي عنده اعتراض يجول من دلوك جبل ما نبدؤوا الجرعة... وحضرة المأمور چـاي بنفسه علشان يستلم التبرع من أي حد معاچـبوش الوضع... ودي آخر فرصة... متى ما اتمدت يدنا واخترنا مافيش تراچـع... واللي مش عاچـبه كمان هيدفع نص أملاكه... مش انتم راضيين على كل الأسماء الموچـودة، و كاتبينها بخط يدكم؟؟»

أومأ الجميع، فعاد يسأل:

«فيه أي اعتراض جبل ما نبتدي؟؟ بعدين مافيش تراچـع دا آخر تحذير... أي تراچـع ولّا اعتراض... زي ما انتم خابرين... خلاص... بسم الله نبتدي. يا ريت أطفال يـچـولي من العيلتين علشان يختاروا العرايس والعرسان»

سرت همهمات كثيرة لم تخل من نبرات الاعتراض العالية... وأمام العيون المحدقة اقتربت فتاتان تقتربان في الطول والعمر.... صافحهما زيدان وسألهما عن أسمائهما... ردت الأولى:

«(هنّا رضوان البداري)»... «(نـچلا وهدان الرحايمي) »

سألهما زيدان بابتسامته المعهودة:

«خابرين هتعملوا إيه؟؟»

أومأت الفتاتان بنعم... فأشار لهما لتشرعا في وضع أيديهما في الحاويات الزجاجية... وفي كل مرة تسلمان له الورقة بدون أن تفتحاها، حتى تمت كل الاختيارات وأصبحت بين يدي زيدان... صافحهما شاكرًا وطلب منهما العودة

لمكانيهما... عادت كل فتاة لعائلتها تصحبها نظرات محتقنة من كل الاتجاهات... انتبهوا لصوت زيدان يصدح في الميكرفون:

«أسماء الزوج الأول... رشاد البداري...»

صمت رهيب حاكي صمت القبور، ووجه رشاد المتصلب تكاد الدماء تنفجر من عينيه المحتنقتين.

تابع زيدان وهو يفض الورقة الثانية:

«فريدة محمود الرحايمي.... فريدة ووكيلها ورشاد يتفضلوا جدامي»

لم تصدق فريدة أنها سمعت اسمها... نظرت حولها فلم تجد غير نظرات الشفقة والشفاه الممصوصة تطقطق بانفعال مشفق... عاد زيدان ينادي في الميكرفون على اسمها. صاح وهدان يناديها:

«همي يا فريدة خلي اليوم دا يعدي على خير... همي يا بتي»

ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتيها، وفكرة واحدة تدور في رأسها كحجر الطاحون.. «أخيرا چاتكم على الطبطاب الفرصة لتخلصوا مني»

دفعتها معالي بابتسامة ساخرة:

«همي يا حلوة... حظك من السما... رشاد البداري... والله وباضت لك في الجفص يا فريدة!»

تجاهلتها فريدة وهي تنزل مسرعة قبل أن تخونها دموعها... وقفت بجوار خالها.. يرمقها جاسر بنظرة غريبة... ورافع يومئ لها بإحراج وكأنه يعتذر لها عن ذنب لم يقترفه.

في الجانب الآخر كان رشاد يكاد يشد شعره لاهثًا، يحاول إفهام أبوه وعمه بشتى الطرق:

«مين جالكم تحطوا اسمي!!؟ أنا مأكد عليكم إني مش بتاع چواز ومعايزش أتجندل وأتـچـوز!»

ضرب رضوان بعصاه في الأرض مخاطبًا أخاه:

«چرى إيه يا محمود!؟ هو كان حديت عيال صغار!؟ لما الراچل يدبدب في الأرض ويعمل كيه العيال، الحريم يعملوا إيه!؟ مستعدين تدفعوا من أملاكّكم؟؟ رد يا محمود!»

زغر محمود لابنه بضيق وهتف بصوت حازم:

«اعمل اللي انت شايفه ياخوي... رشاد ابنك ما هيعصاش لك أمر واصل»

رفع رضوان رأسه لرشاد:

«جولت إيه يا رشاد؟؟ سمعني صوتك»

بعد لحظات من الصمت المطبق، رفض أن يرفع عينيه المنهكتين بعيني عمه:

«اللي تشوفه يا عمي... اللي تشوفه»

جاء الصوت الساخر من خلفهم:

«خبر إيه يا رضوان؟ معايزنش الـچـوازة؟ العريس حرنان ولا إيه!؟»

التفت رضوان لوهدان قائلًا بصوت حازم:

«مين جال الكلام ده!؟ رشاد أهه مستعد لكتب الكتاب... إلا إذا كانت المحروسة بت أختك معايزاش»

ألقى وهدان نظرة مطمئنة على فريدة المطرقة برأسها وتابع: «واحنا كمان... چـاهزين»

هتف زيدان: «على بركة الله... اكتب يا سيدنا الشيخ»

رفعت فريدة عينيها لأول مرة تتطلع لعريسها، فجمدتها عيناه شديدتا الاحمرار وقد احتقنتا بغضب أعمى... نكست رأسها بحداد، ترى باقي أحلامها تتساقط أسفل قدميها... تدوسها النعال الفاخرة بدون أن يأبه أحد لها، أو لأحلامها المدهوسة»

تم كتب الكتاب، وأصبحت على ذمة رجل لا تعرفه ولا يعرفها... دفعها رافع لتعود مكانها يتبعها صوت زيدان: «في آخر اليوم هنحددوا معاد الدخلة»

وعاد صوته يصدح في الميكرفون لاختيار الزوج الثاني، فض الورقة، علت شفتيه ابتسامة ماكرة، ثم جال بعينيه في الوجوه المترقبة حوله، أجلى صوته وأعلن بصوت مجلجل: «سيف رضوان البداري»

احتدت ملامح سيف، وأسنانه تتخبط في بعضها باحتقان مكبوت.. أومأ له أبوه ليهدأ، علا صوت زيدان مرة أخرى بالقنبلة التي فجرت صرخات الاعتراض:

«معالي الرحايمي»

اندفعت الدماء تغلي في مراجل عروق رجال الرحايمة، يتدافعون كل واحد بجملة كلمات صاخبة معترضة... انتظر زيدان عشر دقائق كاملة حتى هدأ الصخب ثم رفع رأسه مخاطبًا وهدان:

«تصدج بإيه... أنا مسمعتش ولا كلمة... ومخابرش انتم معترضين على إيه»

التقط وهدان أنفاسه وهتف بأنفاس باحتداد:

«يا چـناب البيه... معالي بت أخوي مخطوبة لولدي رافع»

مط زيدان شفتيه: «يعني معترض على الاختيار... انت عارف معناتو إيه اعتراضك ده؟»

هب رافع ضاربًا بيديه على المائدة:

«بيجول لـچـنابك إن بت عمي مخطوبة... ولا أنا مش مالي عينيك يا زيدان بيه؟»

ضرب زيدان بدوره على طرف المائدة بقوة أكبر، وتعمد أن يرفع صوته ليعلو على كل الهمهمات في الملعب، حتى أصبح صوته هو الوحيد المسموع:

«وأنا كلامي واتفاجنا كان واضح... لو كانت المحروسة بت عمك مخطوبة لحضرتك، اسمها موچـود في الورجة ليه؟؟»

رفعوا أكتافهم جميعًا بعدم المعرفة، فتابع زيدان:

«يوبجى مش غلطتي.. حضراتكم معترضين؟ ادفعوا الغرامة، ونعيدوا الجرعة...»

حملقوا ببعضهم، ثم ارتفعت أنظارهم لعائلة البداري، ابتساماتهم تعلوها شواربهم... هتف سيف برعونة:«واحنا متمسكين بالاتفاج... المعترض يدفع الغرامة»

كانت معالي تصرخ وتولول وهي تضرب على صدرها: «يا لهوي!! يا خرابي!! مكانش يومك يا معالي!! الحجيني يا مرت عمي! الحجيني! دي كانت نصيبة إيه دي اللي حطت على راسي!!؟أنا.. أنا أتـچـوز واحد تاني غير رافع!!؟ يا دي النهار اللي مطلعتلوش شمش!»

«اتهدي يا معالي... الرچـالة بيتحدتوا... ورافع يا حبة عيني شوفي عامل إزاي كيه الفروچ الدايخة..»

«لا يا مرت عمي... لا... المشتشار الزفت ده ناوي على نية سودة... شوفي كيه بينضر لهم ولا كنهم بيتحدتوا معاه... يا وجعتك السودا يا معالي!!»

التفتت لتجد الابتسامة المرسومة على وجه فريدة بتشف واضح:

«انتي شمتانة فيا يا فريدة!؟»

أجابتها فريدة بتأكيد:

«إيوه... عشان لو منفذوش الجرعة، يا أمتًا يعيدوها ويدفعوا نص أملاك الرحايمة... يا أمتًا تتـچـوزي سيف البداري يا معالي... ومظنيش إنك عند رافع أهم من أرضه... ولا إيه يا مرت خالي؟»

أشاحت ست الدار بوجهها تتابع ما يحدث قائلة بوجوم: «بلاش نجدروا البلا جبل وجوعه... شوفي هيوحصل إيه اللول... كملها علينا بالستر يا رب»

«هيييييع.... جولتوا إيه يا كبرات الرحايمة؟؟ هتدفعوا الغرامة ولا نتمموا الـچـوازة؟؟»

تمتم رافع في أذن والده: «جولت إيه يابوي؟؟ هنعملوا إيه في المصيبة دي؟؟»

«العمل عمل ربنا يا رافع... مسمعتش كلام رچـالة العيلة؟؟ محدش مستغني عن شبر واحد من أرضه... وزيدان الزفت راسه وألف بولغة جديمة... وكلاتنا

باصمين على اتفاج الغبرة... مكانتش إيدينا انجطعت جبل ما نوافجوا على الورطة السودا دي... مافيش جدامنا غير حل واحد... وانت خابره زين... وما تنساش إن دورهم چـاي وبناتهم في الجرعة الـچـاية، وكله سلف ودين يا ولدي»

التفت الرجلان لزيدان وتمتم وهدان:

«خلاص يا زيدان بيه... هنتمموا الـچـوازة»

نزلت معالي منكسة تغسلها دموع حسرتها، اختلست نظرة مقهورة لرافع... أشاح بوجهه عنها يحتقر عجزه وقلة حيلته... مشاعر لم يختبرهما في حياته... تم كتب الكتاب وعاد زيدان يقرأ الأسماء مرة أخرى... عمّ الصمت الرهيب، قد تلقَى إبرة في وسط الملعب فيُسمع صوت رنينها، يكاد الفضول يلتهمهم أحياء، واحتبست الأنفاس، وصوت زيدان يصدح من جديد:

«چـاسر الرحايمي»

رمقه جاسر بنظرة متهكمة وعينين متراقصتان بتفكه... ثم سرح بعينيه تجاه مدرج البداري، وتنهد بعمق منتظراً بشوق اسم العروس تسبقه أمنياته الدفينة.

تابع زيدان منادياً على عروس البداري:

«سمحة محمود البداري»

تصلبت سمحة مكانها لا تصدق ما تسمعه بأذنيها... أشرقت عيناها بتوهج لم تستطع مداراته، وأمها تخبط على صدرها مولولة:

«يا سوادك يا زينات!! البت والواد الاتنين يروحوا في غمضة عين!! يا شماتة العدوين فيكي يا زينات!! حتى البت وقعت من طولها! بت يا سمحة... انطقي يا حبيبتي... بت يا سمحة... يا لهوي ياني البت هتروح مني يا ناس!!»

أمسكتها زينة من يدها: «سمحة.. انتي كويسة؟؟»

هزت رأسها بدون أن تنطق وهمست:

«هم ندهوا على اسمي... اللي سمعته صوح يا زينة؟؟»

«أيوه يا سمحة... انزلي قبل ما عمي يزعق»

وقفت بسرعة وأسرعت بالنزول تسابق ساقيها الريح للوصول.
تابعتها أمها بعينيها مذهولة:
«البت مخها اتلحس... يا حبيبة أمك يا بنتي... منه لله اللي في بالي!!»
أشاحت زينة بوجهها تتابع ما يحدث.
رمقها جاسر غير مصدق حظه الخائن... ضاع حلمه قبل أن يمسك به.... تسرب من بين أصابعه بعد أن أوشك على امتلاكه... أشاح بوجهه، وقد أدرك أن الاعتراض لن ينجم عنه أي تغيير.
للمرة الأخيرة... أمسك زيدان بآخر ورقتين ورفعهما لأعلى: «آخر چـوازة... بصراحة انتم خيبتم أملي... كت متعشم أروح داري وخزينة المچـلس المحلي مليانة شيكات... يمكن حظي يضحك المرة دي... مين عارف... چـاهزين تسمعوا؟؟»
أشاحوا بوجوههم بامتعاض، فضحك ساخرًا وأمسك الميكرفون يفض الورقة المطوية ليقرأ الاسم:
«رافع وهدان الرحايمي»
عقد رافع ذراعيه حول صدره بنظرة متهكمة، وهو يومئ برأسه قائلًا:
«مش هتطول مني ميلم واحد... اللي تجول عليه يا حضرة المستشار»
حياه زيدان باحترام، وتابع قراءة الورقة الأخيرة:
«زينة رضوان البداري»
بزاوية حادة لف رأسه يطالع وجهها، وقد ظهر جليًا امتقاعه رغم بعد المسافة. ظنت أن شهقتها قد طرقت كل آذان الناس المجتمعين في الملعب... وأمها تمسك بيدها تهدئها، بينما الألم بصدرها يشتد... هتفت أمها: «زينة هبيبي.. انت كويس؟؟»
تمتمت بشفاه تعتصر الكلمات:
«ماما... ما ينفعش... مش هينفع»

«اهدي زينة.. بابا آارف... وهو هيتصرف»
سأله زيدان ببرود:
«يعني إيه مينفعش يا كبير البداري!؟»
«يعني مينفعش يا زيدان بيه... زينة بتي مخطوبة»
«نفس الكلام جالوه الرحايمة عن معالي... وهسألك نفس السؤال.. اسمها موچود ليه!؟»
«مخابرش...»
«وأنا كمان يا رضوان، واللي رسي على معالي هيرسي على زينة... ادفعوا الغرامة ونعيد الجرعة أو نكتبوا الكتاب فوري»..
«مافيش غرامة هتندفع يا بابا... أنا موافقة»
التفت رضوان وسيف مذهولين، وأسرع سيف يمسك بذراعها يهزها بقوة:
«انتي مافيش فايدة فيكي!!؟ كل البنتة چروهم چر من مكانهم، وانتي چاية تجدمي روحك... انتي چنس چبلتك إيه!!؟»
ضاقت عينا رافع لشعور بدائي غريب يحتله، يدفعه ليهاجم ذلك الجلف وينتزع ذراعها من يده. استيقظ شعوره نحوها بالحماية وهو يراها كزهرة صغيرة تواجه عاصفة عمياء... وقبل أن يبدأ التحرك نحوهما، انتبه رضوان فدفع سيف عنها وحماها تحت عباءته. كم بدت خاملة ضعيفة وهي تحت حماية والدها، مما دفع تساؤلًا غيورًا بداخله: هل ستكون بهذا الخنوع تحت جناحه؟؟
مسح شعرها يبعد العرق عن منابته وهمس:
«بتعملي إيه يا زينة؟؟ وليه يا بتي!؟؟ أنا كت هدفع كل اللي حيلتي ومتتچوزيش چوازة مش على كيفك»
«أنا السبب يا بابا في كل اللي بيحصل.. ومش عدل إني الوحيدة اللي تهرب... أنا كنت عارفة إنك هتدفع الغرامة؛ علشان كده جيت ألحقك... أنا هبقى كويسة... صدقني»

قبّل قمة رأسها ثم أحاط كتفيها والتفت لزيدان قائلًا بنبرة وجدتها غريبة على أذنيها، وكانت أصابعه تعتصر كتفها بتشبث، وكأنه يرفض التخلي عنها رغم استسلامه: «هنتمموا الـچـوازة... لو الرحايمة عندهم اعتراض...»
هدر رافع بشموخ:
«واحنا كمان.. هنتمموا الـچـوازة»
طحن جاسر ضروسه ببعضهما وهو يراقب أحلامه الوردية تتسرب من أسفل عمامته، تتساقط حجراً حجراً، من قصوره الوهمية التي اجتهد في بنائها طوال الليل، إلى... ابن عمه!!! زفر بغلٍ وهو يراقب ما يحدث صامتًا.
وبعد عقد القران، عاد صوت زيدان يجلجل في الميكرفون: «ألف مبروك للرحايمة والبداري... الفرح الأولاني هيكون عشية بكرة إن شاء الله... وبعده في الليلة التانية الفرح التاني... وكل ليلة فرح... المهر والشبكة آني هتكفل بيهم»
هب الرجال من كلا العائلتين باعتراض، فضحك زيدان: «خلاص... هاتوا الدهب وأنا عليا الخواتم هدية مني... بس الأفراح عليكم... أنا خابر انتم مبتجصروش... بس يا ريت نخفف من البارود... مرة تانية ألف مبروك وإن شاء الله الأحوال تتحسن من اليوم ورايح»
هم بالنهوض عندما أوقفه جاسر:
«حاچـة واحدة باجية يا چناب المشتشار»
«خير يا چـاسر؟»
وضع يده في صديريته وعيناه تجول حوله ببلادة... ثم توقفت عند زينة لدرجة أقلقت رافع... وهمّ بدفعه عنها وكأن نظراته هذه اخترقت كل ذرة عقل برأسه...
تابع جاسر عندما طال الانتظار:
«لازمن نتأكدوا إننا منتلطخوش على جفانا... بناتنا زي الـچـنيه الدهب معمرهمش هوبوا نواحي عتبة الدار... وكل الناس خابرة»

رمشت عينا رضوان بقلق، بينما استنفر سيف باستعداد ليقفز عند أول بادرة يمسك بخناقه، عندما أكمل بوقاحة: «بس الدور والباجي على اللي بتهم دايرة على حل شعرها، وميعرفوش هي باتت فين ولا...»

قاطعه زيدان وقد شعر أن الموقف سيتفجر في أي لحظة: «جصدك إيه يا چاسر!؟؟»

بنظرة أكثر وقاحة من سابقاتها رمق زينة باستخفاف مردفًا:

«المنديل يا چناب المستشار... لازمن كل عروسة نتوكدوا من طهارتها، وترفع راس عيلتها بالمنديل»

هب سيف يحاول النيل منه، ولكن الرجال حالوا بينهم، لتنطلق الشتائم من فمه كدانات المدافع:

«والله لأشرب من دمك!!انت ميت الليلة يا چاسر الكلب!!! هي حصلت تخوض في شرفنا!!؟»

قهقه جاسر بشماتة:

«زعلان جوي يا سيف!؟إيه مش متوكد من شرف المحروسة!؟»

صرخ رضوان:

«وهدان! يا تخلي ويلد أخوك يخرس، يا هنخرسوه بطريجتنا... هي حصلت يخوض في أعراضنا!!؟»

عاد جاسر يصيح ضاحكًا:

«وانتم زعلانين ليه!؟ بناتنا مستعدين للمنديل... وانتم... أخباركم إيه!!؟ ولا انتم شنبات وبس!!؟»

عدة أعيرة نارية انطلقت في الهواء لتعلو فوق أصوات الهرج والمرج. التفتوا نحوه ليصيح في الجميع:«خلاص... المنديل هو اللي هيجطع كل الألسنة علشان محدش يخوض في أعراض حد بدون بينة... حد عنده اعتراض؟؟»

هب رضوان باحتقان ونظرات الغل تكاد تقسم جاسر اللامبالي لقطع مغمسة بدمائه:

«إحنا محدناش اعتراض»

رفع جاسر يده:

«ولا احنا كمان.. صوح يا عمي؟»

أومأ وهدان وتبعه رافع بحذر، يحاول التحكم في نفسه بكل ضبط نفس ممكن كي لا يقتل جاسر بيديه العاريتين.

رفع زيدان يده:

«يوبجى اتفجنا... كل ليلة محدش يروح بيته إلا بخروج المنديل... الله يعينكم على عجولكم»



٧

«لا توجد مبادئ.. يوجد كلام عن المبادئ»
ـ وليام شكسبير

....

«ولدي راح خلاص... ولدي راح مني يا ناس... حد يرد عليا... حد يجولي ولدي بخير وغفيان شوي وهيصحى تاني...»

نكست الرؤوس، وانهمرت دموع الفراق.

اقترب الطبيب وربت على كتفها: «ادعيله يا حاجة... دلوقتي هو محتاج دعواتك أكتر من أي وقت تاني... ادعيله ربنا ياخد بيده ويفوق من الغيبوبة على خير»

اتسعت عيناها بذهول، وتعثرت الكلمات على لسانها، فهتف الرجل الذي جاء بصحبتها:

«جصدك إيه يا داكتور!!؟ ولدي لساته عايش!!؟ مماتش!!!»

عدة شهقات ملتاعة في الخلف... رمقهم الطبيب باعتذار: «أنا آسف... بس انتم اتسرعتم... المريض لسة عايش... بس في غيبوبة»

صرخت السيدة بلوعة:

«غبوبة دي يعني إيه!!؟ يعني ولدي عايش ولا ميت؟؟»

تنهد الطبيب بأسف:

«عايش يا حاجة، بس مش هيفوق إلا لما ربنا يأذن»

شيعته بعينيها الغاربتين بالدموع حتى اختفى خلف أحد الأبواب، ثم التفتت للعيون الدامعة حولها تصيح بتوهان: «يعني إيه!!؟ ولدي فين؟؟ فهموني يا ناس حرام عليكم»

ثم التفتت إليها تشير لها بأصابع الاتهام:

«انتي... انتي بتعملي إيه إهنه!!؟ وليكي عين!!؟ يا چبايرك!! كل اللي حوصل بسبتك انتي يا چلابة النصايب.. غوري من وشي معاوزاش أشوفك، غوري وعاودي من النصيبة اللي اتحدفتي علينا منيها»

وقفت تجابه هجومها بتحدي:

«أنا مكاني هنا... أنا مراته ومن حقي أكون هنا أكتر من أي واحد فيكم... واللي مش عاجبه يتفضل يمشي»

وقفت أمام النافذة الزجاجية تراقبه من بعيد... لا تكاد تصدق كل هذا العنفوان والقوة ممدد على فراش تحوطه الأجهزة من كل جانب... وهو لا حول له ولا قوة... أغمضت عينيها بقوة تتوسل دموعها ألا تستسلم الآن، ما تزال بحاجة لقوتها، وكل ذرة تملكها من التحمل، ولو تركت لها العنان لغرقت في بحور أحزانها... ربتت يد على كتفها، وانحنى أخوها بجوار رأسها يطبع قبلة حانية على شعرها بحنان:

«هيكون بخير... إن شاء الله هيكون بخير»

تمتمت بدون أن تلتفت نحوه: «بابا... وماما؟؟»

«ميعرفوش... لما يعاودوا هيعرفوا.. ملهش عازة نجلجوهم وهم على سفر»

أومأت برأسها موافقة... ثم ارتعشت شفتيها بابتسامة: «يا ريتنا ما اتجوزنا!! يا ريت كل دا محصلش من البداية!!»

«الفكر في اللي فات نجصان عجل... خلونا نفكروا باللي چاي يا خيتي... وعلى يدك كله كان مجدر ومكتوب... والمكتوب مافيش منيه مهروب...»

تصدرت معالي طريقه لتجبره على النظر بوجهها... تجاهلها وهم بالابتعاد... أمسكته من ذراعه، فتطلع ليدها بقرف، وكأنها حشرة لزجة، ثم ثقبها بنظرته الحادة، فابتعدت فورًا دون أن تفقد شجاعتها، وأصرت على أن يسمعها: «سيف احنا لازم نتكلمو»

شمخ بأنفه باستعلاء:

«همليني.. معادش فيه بينا حديت يا معالي... ولا انتي ناسية انتي عملتي إيه؟»
ضربت بقدميها في الأرض منتحبة بدموع الندم:
«وغلطت... كلاتنا بنغلط يا سيف... شاور لي على بني آدم مبيغلطش»
التفت يرمقها بحدة، وأمسك بمرفقها يهزها بعنف:
«مش كل الغلط نجدروا نسامحوا عليه يا بت الرحايمة... مش كل الغلط! لما تجتلي ابني في حشاكي جاصدة متجصدة؛ عشان يخلالك الجـو مع حبيب الجلب... ما يوبجاش غلط وبس يا معالي، توبجى جـريمة ومش أي جـريمة!!! البسة في الشارع بتحايي على عيالها، بتاكلهم لما تحس عليهم بخطر، وانتي مهمكيش غير إنك تخولصي من ولدي... كنه عار ولد حرام»
شهقت تحاول وضع يدها على فمه لتمنعه من إطلاق رصاصاته القاتلة... دفع يدها عنه بضربة موجعة كي يتحاشى لمسها... أطرقت رأسها خجلة تغسل ذنبها بدموعها السخية.
رمقها هازئًا، وزاغت عيناه في ذكريات الماضي، كما لو كانت الروح قد دبت فيها، وعاد يعيش تلك الأيام مرة أخرى بخياله.

❂❂❂❂❂

«مالك يا سيف يا ولدى؟؟ مشرج ومغرب في إيه؟؟»
«لا... ولا شي يابوي... سلامتك»
غمز بعينه لزوجته وعاد يسأل:
«تكونش بتفكر في مرتك... معالي اللي أخدتها من بُج السبع؟؟»
تأوه رضوان عندما غرزت فاليريا كوعها في معدته، فهب بتساؤل، عندما غمزت له بعينها باتجاه زينة... فأجلى صوته وخشنه:
«متآخذنيش يا زينة يا بتي... همّ يضحك وهمّ يبكي زي ما بيجولوا»
وقفت بتردد وانسحبت قائلة بنبرة خافتة منكسرة:
«ولا يهمك يا بابا... أنا هطلع أوضتي علشان أنام... تعبانة شوية»

ثم وقفت قبل أن تبتعد، وعادت بنصف التفاتة لتسأله:
«بابا... هو إيه حكاية المنديل دا اللي جاسر مصمم عليه؟؟ أنا مفهمتش ولا كلمة من اللي كان بيقولها»
اتسعت عينا رضوان، ورمق سيف يطلب منه المساعدة، فوقف سيف وأسرع بالخروج بارتباك:
«أنا بايني نسيت مشوار مهم.. معايزينيش حاچة من برة؟»
قلبت شفتيها باستغراب وأخوها يتعثر في جلبابه هاربًا... عادت تنظر لوالدها متسائلة بخفوت وقد بدأ الارتياب يتشعب داخلها لرعب:
«بابا... سيف ماله؟؟»
«اطلعي دلوك أوضتك، وأمك هتوبجى تحكيلك»
هبت فاليريا بتعجب:
«بس أنا مش يأرف إيه منديل دي كمان... وكنت آوز أسأل»
مسح وجهه بيديه مستغفرًا، وبحروف مضغوطة غمز لزوجته: «أنا هحكي لك بيناتنا، وانتي توبجي تحكي لبتك... مش ناجصاكي انتي التانية يا فاليرية هانم»
احمر وجه زينة إحراجًا عندما تأكد حدسها، ركضت لغرفتها وكل الأفكار السوداء تتلاعب برأسها.
تنهد رضوان وهو ينظر لزوجته... ثم شرع عينيه في السقف: «يا رب صبرني!! هجولك يا ستي... العوبارة بجى....»

❂❂❂❂❂

«اهدي يا معالي وبطلي نواح.. الناس يجولوا علينا إيه؟؟»
عقدت طرحة سوداء على عنقها، وجذبت أطرافها تولول:
«خليني أنوح يا مرت عمي... ولو منوحتش دلوك هنوح ميتى يا خلج!!؟ بجى انت يا رافع يا ولد عمي اللي تكون شاهد على كتب كتابي من سيف الزفت!!؟

انت اللي تسلمني بيدك لراچـل غيرك!!؟هنت عليك، في لحظة تبيعني لغيرك ولا كني كت كلبة ولا تسوى!!؟»
لوح وهدان بيديه صارخًا:
«بكفياكي بجى! انتي إيه وابور زلط واخد فوشه!!؟ جاعدين نهدوا فيكي ونطبطبوا عليكي... ما هي أهه فريدة جاعدة ومتحملة نصيبها وساكتة... واش عـچـب انتي يعني!؟»
«مش عارف ليه يا عمي!؟ مش خابر ليه واش عـچـب آني!؟»
انتفض واقفًا لترتعد فصائلهم:
«جُلْت خلاص... اللي حوصل حوصل ومافيناش نرچـعوا لورا... عاوزين نلحجوا نجهزوكوا جبل ما البداري ياكلوا وشنا لو چـهزوا بناتهم جبلينا»
«بس هو دا اللي يهمك يا عمي!؟ بجى دي آخرة الأمانة اللي فاتها لك خوك!؟حتى چـاسر أخوي كنه طفش...»
صاحت ست الدار بصراخ:
«ما تتهدى بجي يا بت يا معالي!! هو مافيش حد مالي عينك ولا إيه!!؟ ما كلاتنا في الهم منجوعين... رافع وفريدة وحتى چـاسر... لولا إن نـچـلا هي اللي اختارت بيدها كت جولت إنه ملعوب من هباب البرك زيدان»
شهقت معالي منتحبة:
«هو ملعوب يا مرت عمي صوح... واشمعنى إحنا!!؟ أنا وأخوي، ورافع، وولا حد تاني من ديار الرحايمة!!؟ زي ما يكون مجصود... هي فين المزغودة اللي اسمها نـچـلا دي!؟؟»
أوقفها رافع قبل أن تنطلق في إثر أخته:
«كلاتنا كنا واجفين مش هتطلعي من نـچـلا بحاچـة... روحي فشي غلك في حد كدك»

«كده يا رافع!!؟ كنه اللي حوصل النهاردة چـه على هواك... ما انت والمحروس أخوي كانت عينيكم هتطلع على بت الخوچـاية، وهي داخلة تتزخنج بين الرچـالة، من غير خشا ولا حيا»

«سدي خاشمك يا معالي واتمسي... أيًا كان اللي حوصل اليوم... انتي بجيتي على ذمة راچـل تاني»...

«كنها چـاتكم كلاتكم على الطبطاب... مالكم يا رحايمة من ميتى دمكم بجي زي المية الساجعة!!؟ خلاص رميتوا لحمكم وجعدتوا تتفرچـوا عليه!!؟ الله يرحمك يا رچـولة... منعزيش في نخوتكم يا عمي ويا ويلد عمي»....

لم يجد وهدان طريقة أخرى ليُخرس لسانها المسموم... فلم تسكت إلا بعد أن طوح ذراعه، وبكل ما يعتمر فيه من غل صفعها، ليسود الهدوء أخيراَ.... أعادتها الصفعة للخلف عدة خطوات، ولم تستطع الحفاظ على توازنها، سقطت على الأرض مذهولة تضع يدها مكان الصفعة تحملق فيه مصدومة:

«انت بتضرَبني يا عمي!!؟ هي حصلت إنك تمد يدك عليا!!؟ وعشان إيه!!؟ عشان ماچـرِيتني كيه الخروف وچوزتني بدون خوطري... ولا أجولها دبحتني؟»

كز على أسنانه صارخًا:

«فريدة!! غوّريها من جدامي بت المراكيب دي، جبل ما أودرها وأدفنها بموطرحها!!»

مدت يديها تساعدها على الوقوف، بينما كانت أكثر منها حاجة للمساعدة. جرتها مكسورة العين، بينما عينا معالي لم تتزحزحا من على الرجلين بنظرة متوعدة:

«ماشي يا عمي.. ماشي يا رافع.. بس ابجوا افتكروها.. مش معالي اللي تتغصب على حاچـة مش على كيفها!»

أمسكت ست الدار بذراعه:

«هدي خلجك يا وهدان... البت معذورة برديكي... اتصبحت في حال واتمست فحال تاني»

«ماهي فريدة كماني صابها اللي صابها... مصرختش وولولت ليه!؟»
«انت خابر إن فريدة حاچـة تانية غير معالي... وكمان معالي كانت متعشمة في رافع كد إيه.. وإن چيت للحج، اللي له حج يصرخ ويولول هو أني... اليوم اللي بت الخواچـاية هتدخلي فيه الدار هيوبجى يوم اسود مطلعتلوش شمش... بس والله براوة عليه چـاسر، واد ابن أبوه صوح... لمن وجف جدامهم كلاتهم، وخلاهم يوافجوا على شورة المنديل... لمن نشوف بت الخواچـاية جرعة أمها منين».
التفت وهدان لابنه: «رأيك إيه يا رافع؟»
«مخابرش يابوي... كل حاچـة چـت فـچـأة مش عاملين حسابها»...
«مافيش وجت يا ولدي.. لزمن نـچـهزوا الدوار، ونشتروا ونـچـهزوا أوض النوم ليك ولـچـاسر.. هو كماني هيدخل على عروسته... من طلعة النهار تاخده وتطلعوا على إسنا... أغلاها خشب تشتروه مع فرشه مع كافة لوازمه... انت خابر يا ولدي، لازم منهملش في أي حاچـة ولو صغيرة، الناس هتاكل وشنا»..
بعد تفكير عميق سألته ست الدار فجأة:
«إلا جولي يا حاچ... هي الخوچـاية دي بيتفاهموا معاها كيه؟؟»

۞۞۞۞۞

«والله انت أمرك عـچـب يا رشاد يا ولدي... المفروض البت هي اللي تعمل عمايلك دي... مش انت الراچـل!!»
«يابوي انت مفهمتنيش... العوبارة إني....
«بلا عوبارة بلا وچـع راس... انت جاعد من عشية تـچـيب من ورا ومن جدام، وأنا مفاهمش منيك حاچـة واصل... كلاتنا واجعين في نفس المطب... ومافيش منيه مهروب... دخلتك على عروستك الليلة الـچـاية، ولازمن نـچـهزوا حالنا ولّا الناس ياكلوا وشنا»...
ضربت زينات على ركبتيها مولولة:

«كانت چـوازة الشوم والندامة... من كل بنات الرحايمة... يطلع بختك في فريدة!!؟ وبنتي يطلع بختها في الفاقد بتاع الغوازي!!؟ يا ميلة بختك في خيبة ولادك يا زينات!! يا شماتة العدوين فيكي يا زينات!!»

«بطلي ولولة يا ولية، وجومي نادمي على بتك، وفهميها من الفـچـر هنطلعوا على إسنا نـچـهزوا لها شوارها ونشتري عفش رشاد... العروسة مش هتدخل على عفش جديم... وما تنسوش الفرح هيوبجى عشية... الله يعينا على الزنجة دي... كان مستخبي لنا فين دا بس يا ربي!!؟»

❂❂❂❂❂

وقفت طويلًا بانتظار السماح لها بالدخول.. عادت تطرق مرة أخرى... وبعد أن يئست من الرد غامرت ودخلت مستعدة لكل أنواع التوبيخ... ولكن لدهشتها، لم تتحرك تلك الجالسة القرفصاء على فراشها... اقتربت على أناملها حتى جلست جوارها... أصدر السرير صوتًا أجفل السارحة: «انتي دخلتي إمتى!؟»

«هُوو هُوو هُوووه... من زماااااان... وخبّطت كتير أوي على فكرة على الباب... خفت تكوني تعبانة»

عادت لتحدق في النقطة الوهمية أمامها:

«عاوزة إيه يا هَنا؟؟»

«إحنا جاهزين علشان نروح الفرح، وبابا بعتني علشان...

التفتت لها بحدة، متسائلة بصوت لاهث وقد تسارعت ضربات قلبها:

«ليه!!؟ هي الساعة كام!؟؟»

«صح النوم... إحنا بقينا المغرب... مش شايفة النهار قرب يمشي!؟ ومش سامعة ضرب البنادق اللي طرشنا من الصبح!؟»

رفعت رأسها لتنظر باتجاه النافذة ثم هزت رأسها بشرود: «لأ.. مسمعتش... أنا مش عاوزة أروح»

«ماينفعش يا زينة»

هبت صارخة:

«هو إيه اللي مينفعش!!؟إش فهمك انتي!؟ روحي قولي لهم...

أمسكت هنا بيدها مقاطعة:

«لازم تكوني أقوى من كده... لو استخبيتي دلوقتي هيفتكروكي ضعيفة... وانتي مش عاوزة تظهري قدامهم بالشكل دا»

أطرقت زينة رأسها تفكر... وبعد لحظات صمت تمتمت: «هقوم أغسل وشي... هَنا... أنا آسفة»

متى تم كل هذا الترتيب!؟ متى فُرِشت الأرض من دارهم لدار عمها بالرمال!؟ متى عُلّقت كل هذه الزينات!؟ تلفتت حولها مدهوشة بانزعاج.... المقاعد مرصوصة وقد بدأ المدعوون بالتوافد... وها هي فرقة الغجر تعد أدواتها لحفل الليلة الساهر.

انتبهت على يد أمها تربت عليها لتتقدم... أطاعتها صاغرة لتدخل بيت عمها.

بعد صلاة العشاء كان الحفل على أشده، خاصة بعد أن جاءت العروس بزفة كبيرة من بيتها، محاطة بالخيول العربية الراقصة، محمولة على الكارتة المزينة بالورود والشرائط الملونة، وقد جلس جوارها خالها، وأحاط بها رجال الرحايمة يطلقون البنادق بدون توقف... وصلت لتجد رشاد بانتظارها بجلبابه الأبيض الملكي، واللاسة الذهبية من الحرير... هل لاحظ أحد توتره وهو يحمل عروسه لداره؟؟

كانت مغطاة تمامًا وذراعها ملفوف حول عنقه، لم يتركها إلا في مكانها بين الحريم، الذين استقبلوهما بالزغاريد... وقف أمامها يحاول التحكم في لهاثه... رفع رأسها المطرق... ثم رفع خمارها الشفاف عن وجهها... لم تتطلع لعينيه ولكنها شعرت بتوتره... لا عجب فهي تكاد تموت في جلدها... ولكنه الرجل!!!

«نورتي دارك يا عروسة»...

وأطلق قدميه للريح، يلحق بالرجال يبدأ معهم الاحتفال كما هي عاداتهم.

جلست العروس في الكوشة المعدة لها في موقف لا تُحسد عليه... فلا وجود للصخب المصاحب لمثل هذه الأفراح... فهي المرة الأولى التي تلتقي فيها العائلتان في مناسبة واحدة... وليست أي مناسبة... دخلت الغوازي لتبدد جو البرود السائد، تضفي الفرحة على الوجوه المتجهمة... وجه واحد لم تستطع صاحبته حتى إخفاء دموعها.

همست هَنا في أذن صديقتها:

«قولي لمعالي تداري على نفسها شوية... الستات هتاخد بالها إنها بتعيط»

« شكلنا غلطنا يا هَنا... مكناش عملنا اللي عملناه»

«ششششه اسكتي انتي عاوزة تفضحينا!!؟ اللي حصل حصل... حتى زينة أختى مكتئبة»

احتدت نجلا بعصبية: «ليه إن شاء الله!؟ وكانت هتلجى راجل زي رافع خوي فين!!؟»

«انتي عبيطة صح؟ نجلا.. شكلنا مش هنكمل مع بعض»

مرت ساعات الحفل ببطء قاتل، حتى دخل العريس تصاحبه طلقات البنادق من أصدقائه، وأقاربه يحملونه حتى كوشة العروس، وهو بدوره حملها وصعد بها لغرفته، تشيعهم زغاريد أمه كمن أصابها الفواق.

تنهدت زينة بألم، ثم تلفتت حولها لتجد كل مدعوين الفرح واقفين كأنهم بانتظار شيء ما... مالت على أذن سمحة: «هي الناس دي مستنية إيه؟؟ مش الفرح خلص!؟»

لوت سمحة فمها بكلا الاتجاهين، وهي تتمتم في أذن ابنة عمها:

«مستنيين المنديل يا حبيبتي... شورة سبع الفلا چـاسر »

كتمت زينة شهقتها متخيلة الموقف المحرج، ثم ركضت للخارج وكأن كل ذنب أذنبته في أعقابها.

وقفت بالخارج تستند على جذع نخلة عتيقة، تحدق بالفراغ لاهثة، ويدها على صدرها تهدّئ من ضربات قلبها النابض بوجع، حتى جاءها صوته زاد من جنون نبضاتها: «متوجّفيش لحالك ادخلي چـوة!»

لم تستوعب الأمر المتسلط في البداية... أدارت رأسها لتقع عيناها عليه يحدجها بنظرات سرت البرودة في أوصالها، سألته بخفوت:

«انت بتكلمي أنا!؟؟»

تلفت حوله: «مشايفش حد غيرك جدامي... يوبجى أكيد بتحدت معاكي... واجفة لحالك ليه!؟ بتفكري في ليلة دخلتك؟ هع! متفكريش كتير يا عروسة... مش هتختلف كتير عن اللي بيوحصل الليلة»

صرت على أضراسها حتى آلمتها: «انتم.. شوية... همج!»

زاد من اقترابه المطرد منها حتى كادت تستنشق رائحة أنفاسه الحارة... ثم انحنى ليهمس في أذنها:

«فاكرة حديتي؟؟ جلتلك ومصدجتينيش... لو كت رميتك في المية، كنا وفرنا على حالنا كل اللي بيوحصل ده... وكت هتوبجى ليلة واحدة بس... ليلة چـنازتك»

«زينة... زينة»

اعتدل في وقفته يهز رأسه بإيماءة تحية لأمها: «اتشرفت بمعرفتك يا هانم... كنت واقف مع مراتي بونّسها لحد يتعرض لها كده ولا كده... حضرتك عارفة؛ الليل في بلدنا مالوش أمان»

بابتسامة جذابة مدت فاليريا يدها لمصافحته:

«ميرسي بوكو رافه... أنا متأكد إن زينة هتكون في أمان مآك... داكور زينة»

هزت زينة رأسها لتستوعب ما يحدث أمامها... لسان رافع الصعيدي الذي كان السم يتقاطر منه كالحية السوداء من لحظة واحدة، فجأة انقلب ليحدث أمها بلهجة راقية، لا تختلف أبدًا عن أهل المدن... والكارثة أن أمها أعجبت به بل ومنحته ابتسامتها! وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا... كانت متأكدة أنها ستسمعه ما

إن تصبحا وحدهما... أومأ رافع باحترام وتركها في عهدة والدتها قائلًا: «هنادي سيف يوصلكم... لو مكانش هيحصل مشاكل إحنا في غنى عنها كنت وصلتكم بنفسي... عن إذنك مدام»

أغمضت عينيها بقوة حتى وصلها ما كانت بانتظاره:

«زينة... رافه دا... ولد چانتي كتير وشكله كمان دونچوان كبير... انت ليه مش يهبه!؟؟»

غمغمت تعض على شفتها السفلى بغيظ...

لحق بهم سيف متسائلًا:

«انتم خرجتم بدري ليه!!؟ لسة الـ...»

أمسك لسانه عندما حدجته زينة بنظرة مصدومة:

«سيف... خدني من هنا دلوقتي... حالًا!!»

❂❂❂❂❂

ها هي حياتها قد بدأت... أم أنها انتهت؟؟ لم تكن كما خططت تمامًا... ولكنها على الأقل بداية جديدة... بداري أو رحايمي... لم تكن هذه المسميات من اهتماماتها؛ فهي لم تهم أيهم من قبل... لعلها تهم زوجها الآن... أيًا كانت الطريقة التي تزوجته بها...

خلع اللاسة الحريرية ورماها بأقصى الغرفة، وكأنه يتخلص من قيدها حول عنقه... ثم جلس على أحد المقعدين الوثيرين في الغرفة... انتبه أن عروسه لا تزال واقفة بمكانها مطرقة الرأس... هم بمناداتها عندما سمع طرقات على الباب... أجلى صوته بنحنحة قوية واتجه صوب الباب، لتتحرك عروسه بالاتجاه المضاد...

أطلت أمه برأسها قائلة بفم متبرم وهي تضع بيده منديلًا أبيض:

« نسيت تاخد المنديل يا ضنايا... وشهّل الناس عاوزين يروحوا»

هل أومأ برأسه؟؟ هل أجابها؟؟ لم يتذكر سوى أنها وضعت المنديل بين يديه وأغلقت الباب... التفت لها باستدارة حادة... كانت ترتكن على طرف الفراش،

وقفت منتبهة عندما شعرت بنظراته الحادة عليها... اقترب منها بخطوات حازمة... أمسك بطرف الخمار وخلعه بخشونة عن رأسها، ليلحق باللاسة في أطراف الحجرة... ثم أمسك بمرفقها يتطلع لوجهها الملطخ بالألوان بدون تنسيق.... ارتعبت من نظراته المتفرسة... ثم أشار للمنديل في يده:

«انتي خابرة إيه ده؟؟»

هزت رأسها بعد أن استوعبت سؤاله... فضحك وتابع:

«طلعت لك من السما الـچـوازة دي... طبعًا مكتيش عاملة حسابك إني أنا اللي عتـچـوزك... خصوصي آني... وأنا بس اللي خابر سرك العفش... معرفاش سر إيه؟؟؟ لمَّن شفتك مع حمادي الدهشان في طريج الديابا، ولا مكانتش أول مرة، وحضرتك متعودة على المشوار ده؟؟».

ضاقت عيناها وبدأت بالاستيعاب البطيء وهي تتمتم بخفوت: «انت بتخترف بتجول إيه!!؟»

«بجول يا عروستي الغالية... إن عيلتك الليلة هتدبحك دبح بعد ما أطلع لهم بالمنديل من غير ما يكون عليه دمك.... ما هم ما يعرفوش إن المحروسة فرطت في...

قاطعته بشبه صراخ:

«اخرس!! ولا كلمة زيادة!! مكتش عارفة إنك واطـ....»

وقبل أن تكمل أخرسها بصفعة أطارت صوابها، ذكرتها بصفعة عمها لمعالي... أزاحت شعرها عن عينيها اللتين ازداد اتساعهما بسيلان الكحل حولهما... تطلعت له وصورة ابنة عمها تتراقص أمام عينيها... أرادت أن تتلبس جلد معالي، آن الآوان أن تلقي بانكسارها، ارتفع شيئًا فشيئًا من داخلها أصداء كلمة واحدة.. اقترب منها مرة أخرى، بدأت تصرخ بهستيريا:

«كفااااية!! حراااام عليكم!! كفااااية!!»

حاول كتم فمها؛ فزادت من صراخها بأعلى إحساسها المحطم المنهوك المغتصب... سمع طرقات على الباب.. أسرع لفتحه لتدخل أمه ملتاعة:

«خير يا رشاد؟؟إيه اللي بيحصل؟؟»

مط شفاهه مشيراً لعروسه اللاهثة من شدة الصراخ، ترقبهم بانتظار الإشارة للمزيد:

« مخابرش يمّا... أول ما جربت منيها بدأت تصارخ، ولسة ملمستهاش»

نظرت للمنديل في يده وشهقت:

«والمنديل يا رشاد؟؟»

«بجولك يمّا ما لحجتش ألمسها... مخابرش حوصل لها إيه!!؟»

ضربت أمه على صدرها بقوة:

«يا لهوي!! وبعدين دي تبقى فضيحة!؟ شوف... انت حاول معاها عقبال ما أروح أسأل في الحكاية دي... لتكون.... ربنا يستر على ولايانا»

ثم رمقت العروس بنظرة محتقرة قبل أن تصفق الباب خلفها. اخترقته نظراتها كشظايا الزجاج، سألته متقطعة الأنفاس: «إيه اللي بتعمله ده!!؟؟ وليه!!؟؟ حرام عليك!! حرااااااام!!»

وبدأت في الصراخ من جديد دون أن يجرؤ على إيقافها، حتى عادت أمه ومعها صحبة أخرى:

«اتفضلي يا أم سعدون، ادخلي يا ولية شهلي»

لن ينسى أبدًا نظرتها الكسيرة المصوبة عليه، كأنها سهام مسمومة موجهة لعنفوانه الكاذب. دخلت الداية وأغلقت الباب خلفها، ولم تنس هي الأخرى أن ترمقها بتلك النظرة، وكأنها على وشك اكتشاف فضيحة ستقلب البلد على من فيها. حاولت الاعتراض بارتجاف واهن، كالطير المتيقن من ميعاد ذبحه، زجرتها أمه:

«بقولك إيه يا بنت الناس... انتي جبتيه لنفسك.. يا تخلي الداية تعمل اللي مخلتيش راجلك يعمله، يا أما نخلي أهلك يدخلوا يخلصوا عليكي»

هم رشاد بالخروج فأوقفته أمه:

«استنى عندك انت رايح فين!!؟ لازم تكون موجود...»

ازداد شحوبًا وتعرقًا. اعترضت نبضات قلبه فأعلنت باحتجاج كاد أن يسلبه روحه، أشاح بوجهه عنهم، وعاد يجلس على المقعد أمام الفراش منكس الوتين.

لم يظن أنه قد يتأثر؛ اعتاد دائمًا مشاركة أقربائه في ذبح العجول، في كل مرة كان يتبع تلك المناسبات احتفالات وسهرات صبّاحي، ولكنها المرة الأولى التي يسبق فيها الاحتفال الذبح، ثم يجلس مشاهدًا كالعاجز يراقب ضحيته تُذبح أمامه بسكينه، بانتهاك لاإنساني.

كانت صرختها المدوية الضربة القاضية التي أهالت التراب على رجولته ودفنها في قبر بدون شاهد... وبدون أن يصلى عليها... أمسكت أمه المنديل الملوث بالدماء، وأطلقت الزغاريد، شاركتها فيها الداية أم سعدون، وهما تغادران رافعين المنديل كرايات النصر!

لملمت ثوبها الأبيض المنتهك كأنوثتها، كأحلامها، وأمنياتها... احتضنته بين يديها ترمق جلادها الجديد من خلاله، بكحلها السائل يتقاطر من عينيها، يلون دموعها بلون الحداد كحياتها القادمة.



۞ ٨ ۞

«لا تـمشي فـي طريـق من طرق الـحيـاة إلا ومعك سوط عزيـمتك وإرادتـك، لـتلـهب بـه كل عقـبة تـعترض طريـقك»

ـ نـيـتشة

....

«اللي بيحصل دا مهزلة... انتم إزاي توافقوا على الانتهاك دا!؟إحنا في القرن الواحد وعشرين، ولسة بتحكموا على طهارة البنت بمنديل ملوث بدمها!!؟ إزاااي يا بابا!!؟ ازاي يا سيف!!؟ فهموني»

بصوته الخشن هددها سيف:

«ضبي خاشمك لحد يسمعك... هي دي كانت عوايدنا من زمان الزمان... إحنا اللي نسيناها... وكتر خيره چاسر فكرنا بيها مرة تانية»

ساخرة هتفت:

«آه صحيح... كتر ألف خيره، ما انت بتفكر زيه بالضبط بمخ قذر»

«احترمي نفسك يا زينة!»

«احترم انت نفسك! واوعى تجرح كرامة مراتك وتعمل زيهم!!»

«مالكيش صالح بيا... ويكون في معلومك انتي كمان مش متـچـوزة أي راچـل... رافع الرحايمي على كد ما هو ناعم وسهتان... بس وجت غضبه بيكون كيه الطور الهايـچ»

بحثت عن أمل بالخلاص، فلم تجد غير أمها. من غيرها يفهمها ويدعمها، كمجنونة في بلد من العقلاء، أو عاقلة في بلد مجانين!؟

«ماما... سامعة اللي بيحصل!؟؟ أعمل إيه؟؟»

ركضت لتلقي نفسها بين أحضانها المرحبة، أحاطتها بذراعيها هامسة:

«يالا روهي نامي شوي... لازم تهدي زينة.. مش هلو أشان صهتك»

كزت على أسنانها:

«ماما... أنا مش هحضر أي أفراح تاني... ولا حتى فرح سيف... مش عاوزة أحس بالإحساس دا كل يوم»

«داكور هبيب ماما... مش لازم تهضر»

زمجر سيف: «إيه الختاريف اللي بتخترفوها دي.. انتي لازمن تحضري ورچلك فوج رجبتك!!»

زمجرت فاليريا في واحدة من غضباتها القليلة:

«أنا كولت زينة مش هتروه... زينة هيكون في أي مكان هو آاوزه... داكور سيف»

❂❂❂❂❂

أحكمت إغلاق الباب، ولكن أصوات الطبل والزمر تحايلت على كل أقفالها. وضعت يديها على أذنيها ورغبة ملحة للصراخ تستحوذ عليها بدون توقف؛ حتى يعود الزمن للوراء، وتصحح كل أخطائها التي تسببت في كل ما يحدث. صرخت باكية:

«رافع كان صح! كان صح!»

فجأة عم الهدوء.... فكرت بصدر منقبض، لابد أن الفرح انتهى، والمدعوين بانتظار دماء العروس لينتشوا... لم تحتمل الفكرة، فدفنت رأسها أسفل الوسادة تئن بوجع.

❂❂❂❂❂

أجفلت عندما سمعت صوت إغلاق الباب وبعده المزلاج... استدارت تطرد خوفها شامخة بأنفها المتعالي، معيدة ذيل ثوبها خلفها، دافعة بخمارها بعيدًا عن وجهها

لتزيد من تأثير حدة نظراتها، وتتأكد من توصيل رسالتها له... لن يكون أبدًا رجلًا لها... وصلته كل حروف الرسالة، فقهقه متهكمًا، متعمدًا الاقتراب منها ببطء مستفز وابتسامة تسخر من كل أبجديتها: «مبروك يا عروسة»

بنبرة فشلت أن تكون ثابتة كما أرادت:

«أحسن لك تشوف لك موطرح تاني تنام فيه»

ارتفع حاجباه تهكمًا:

«بأمارة إيه إن شاالله!!؟ شايفاني جدامك شرابة خورچ... ولا...»

اشتد وهج عينيه ببريق خطر كوميض البرق في ليلة تخلى عنها قمرها، ثم تابع بنبرة أرعشت أطرافها:

«ولا شايفاني مطولش أوبجى في مجام حبيب الجلب... رافع... مش هو اللي كات عينك هتتخزج عليه؟؟»

ضربت يديها الاثنتين فوق بعضهما على صدرها بجرأة تحسد عليها:

«إيوه يا سيف يا بداري... كت هتچوز رافع... وهو الراچل الوحيد اللي مماليش عيني غيره... مهمن طولت ولا جصـ..»

لم تكمل جملتها عندما قاطعها مهاجمًا، ممسكًا بذراعها يفتله خلف ظهرها، وكأنه سيجردها منه... حاولت الفكاك بشراسة، فكان اكتشافها الأول في حياتها القادمة، وأكثرهم رعبًا؛ مهما كانت قوتها التي تتغنى بها، فلن تحرك حجرًا من هذا الجبل الراسخ الذي كاد أن ينجح في خلع ذراعها... انحنى على أذنها غير مبال بأنينها:

«لو نضرك جصير ومشيفاش رچالة جدامك... أنا هطوّلهولك... يا بت ال... رحايمة»

ثم دفعها لتسقط على الفراش، تراجعت زاحفة بصراخ مغمس بمذاق غريب عليها، لأول مرة تجري ملوحته بمذاق الحنظل على شفتيها وتصل لحلقها، ملوحة بيديها لتمنع غزوه:

«إياك تجرب... لو لمستني بس هكتلك وهكتل روحي!!»

❂❂❂❂❂

مرة أخرى تتغلب تلك الأصوات على أقفالها، هذه المرة لم تكن أصوات طبل وزمر، كانت طلقات البارود تصرخ في عنان السماء بجنون لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أن البنادق عمرت بدماء الضحية الجديدة... فتدافعوا يبثون الرعب في صمت الليل الناعس.

نهضت تفتح الباب بعد أن توالت الطرقات عليه بدون يأس: «مون ديو... انت مش بتفته ليه زينة!؟ أنا كنت هايف أليك هبيبي»

بدموع حبيسة سماء عينيها الغائمتين تساءلت بغصة:

«خلاص يا ماما... سيف...؟؟»

أومأت أمها قائلة بنفس عميق: «وي.. هم مشي بعد ما سيف هرج من البلكون، ضرب بارود ودوشة وزأاريد... مون ديو.. سوفاچ.. سوفاچ»

أخذت نفسًا عميقًا آخر، وربتت على ركبتي زينة المضمومتين لصدرها ترتعش:

«انت مش يهاف... ولد رافه دا رجل چانتي... مش ممكن يكون زي همج»

«يا ماما انتي بتحلمي.. رافع صعيدي أكتر من سيف.. عاوزاه يخالف عوايدهم!؟ انتي أكتر واحدة عارفة الناس بتبص للحاجات دي إزاي»

«انت السبب زينة.. بابا كان هيدي فلوس... انت ليه اتسرات؟؟»

«مكنتش عاوزة أحطه في الموقف دا يا ماما.. بابا كبير البداري... مينفعش يحكم على عيلته وهو ما ينفذش على بنته... بابا فهم أنا عملت كده ليه»

بقوة ضمتها لصدرها، تواسيها بدموعه:

«بس انت مهطوب لرجل بتهبه كتير»

«خلاص مش مهم يا ماما»

«وإلاج زينة... مش ممكن يهمل دوا»

«هنشوف لها حل، بس مش لازم أي حد يعرف»

«مون ديو... انت مش هتقولي لرافه!؟»
كتمت ضحكة تخللت دموعها:
«اسمه رافع يا ماما.. رافع.. ولأ مش هقوله.. هخليها آخر ورقة ألعب بيها.. أكيد هو مش عاوز زوجة مريضة، وصعب إنها تجيبله ولي العهد... هدف كل رجل صعيدي من الجواز»
«إيه ولي أهد دي؟؟»
«وبعدين معاكي يا فاليريا!؟ انتي جاية توجعي دماغي وهي مش ناقصة!؟»
«لأ... كنت جاي أشان ألبس فستان أبيض.. انت مش اتمل بروفة ولا مرة»
تأثرت من دموع أمها، فضمت رأسها إليها تربت عليها: «تصدقي انتي فعلًا مستفزة يا فال... انتي جاية تواسيني ولا عاوزة حد يواسيكي!؟»
«اسكت بنت.. أنا كلبي هزين ومافيش نفس أضهك»
«ولا أنا...»

❂❂❂❂❂

«خُطّابك كتير وجالولي... تستاهلي الدهب واللولي... من بين الحبايب واحد... بتشاوري عليه وتجولي... حبيبي أهه... خطيبي أهه.. مافيش غيره ليا... ومافيش غيري له.. حبيبي أهه... چـاسر أهه»
شهقة كبيرة أفزعتها، لتستدير نحو أمها التي بادرتها:
«يخيبك بت!! بأة أنا مفحومة عليكي، وعلى بخت أخوكي المهبب، وانتي واقفة ترقصي وتغني في المراية!؟»
حاولت مداراة فرحتها مغمغمة:
«ومرجصش ومغنيش ليه يمَا!!؟ مش فرحي ده ولا فرح الـچيران!؟ مش كفاية المحزنة اللي انتي عاملاها زي ما نكونوا رايحين نتـچـنزوا مش نتـچـوزوا!!؟»
ولولت أمها بإصبعيها مع حركة متزامنة مع فمها الملتوي يمينًا ويسارًا:
«كانت جـوازة الشوم والندامة يختي»

«لاه يمّا.. متجوليش إكده... يوبجى فال عفش»

«ومن امتى كل دا يا بنت بطني!!؟ يخيبك بت... تكونيش عاشقة الواد بتاع الغوازي!»

«بس متجوليش عليه واد! دا چاسر سيد الناس كلاتهم»

«طب بالراحة يا حيلة أمك، لتفرقعي من جنابك... قال على رأي المثل.. (خدتك قوال خدتك عواد خدتك أكيد العوازل، كدت أنا روحي)»

ضربت قدميها بالأرض بعصبية:

«يوووه بجي يمّا! بدل ما تاچي وتلبّسيني الفستان بيدك!؟»

«لأ يا نضري، خليت الحكاية دي لمرات أخوكي أم بوز شبرين... تقوليش إحنا قتلنا لها قتيل! هروح أنادي عليها تلبسك»

❂❂❂❂❂

أجلى صوته يناديها هذه المرة بنبرة أعلى، وهو يطرق على باب الحمام التابع لغرفته:

«يا فريدة... يا فريدة أمي بتنادم عليكي انزلي شوفيها عاوزة إيه، مناجصينش نج على المسا اللي يسترك يا بت الناس»

فتحت الباب فجأة، فتراجع وكأنه فوجئ بها.. شملته بنظرات باردة، تذكره في كل نظرة منها، أنها لم تكن امرأة بفضله.. ولن تكون أبدًا... أشاح بوجهه المحتقن ليزيد من حيرتها.

«لو أفهمك يا رشاد... لو تفهّمني وتفتح لي صدرك أشيل عنك الحمل التجيل اللي حاني ضهرك وكاسر عينك.. مرا غيري مكانتش نضرت في وشك العمر كلاته، بعد اللي عملته وجولته... بس حاچـة في عينيك موجّفاني مش جادرة أكرهك... ومعرفاش أحبك... شكلك جدر ومكتوب لي يزيد من وچيعتي في دنيتي»

أعاد كلماته عندما طال الصمت، لينهي حديث العيون الذي لم يعد يطيقه: «أمي كانت بتـ..»

«عارفة... سمعتك من أول مرة... هروح أساعد سمحة تلبس... ويمكن ما أشوفكش، هروح معاها لمن ياچي چاسر وياخدها»
أومأ: «طيب... خليكي مع أمي متفارجيهاش، وتعاودوا سوا إن شاء الله»

❂❂❂❂❂

حمل عروسه مخترقًا جموع المدعوين بعد انتهاء الفرح، الذي لم يختلف كثيراً عن الأفراح السابقة باستثناء العروسين... نفس الوجوه المترقبة، ونفس الأغاني التي ترددها نفس الفرقة... ما عدا نظرة الحزن التي لوّنت عيون نوارة وهي تتمايل بدلال ينقصه الحماس... يشك كثيراً أنها حملت نفس النظرة في الليلتين السابقتين.
كان رأسه يترنح وأصدقاؤه يحملونه حتى كوشة العروس... خاف ألا يقوى على حملها بهذا الرأس المترنح... لعنهم في سره لإصرارهم على إنهائه زجاجة مشروب الشجاعة، كما تضاحكوا باسمها... وكلما توانى كانوا يصرخون لتشجيعه كي لا يخذلهم في ليلة دخلته.
نظر لرأس عروسه المغطى وتخيل بذهن متبلد، شعرها الأحمر الناري، وزرقة عينيها السماوية، وشفتيها الشهيتين تقدم له الدعوات المغرية ينهل من غديرها، تروي جوعه الأزلي، منذ وقعت عيناه عليها، تغادر سيارتها وشعرها الأحمر يتطاير حولها كجنية هبطت من السماء فقط لتعذيبه. أحكم إغلاق الباب، تقدم نحوها بعد أن خلع عمامته لتلمع رأسه الصلعاء أسفل الإضاءة الخافتة... شهقت بخجل تتراجع عن محيط ذراعيه... حاورته وناورته لدقائق ترفض التسليم، وفي كل مرة يزداد إصراره لإمساكها ووضعها في مكانها بجوار قلبه، الذي اشتاق وتلهف لامتلاكها... وأخيراً نجح!
باستياء شديد أدركت أنه ثمل... حركاته مترنحة وكلماته غير مترابطة... سمحت له أخيراً بالإمساك بها، وإلا طالت الليلة في المناورات... ولم تحسب حساب هجومه الغاشم عليها محاولًا تقبيلها عنوة حتى قبل أن يرفع خمارها عن وجهها..
قاومته بحياء، فدفعها بقوة غاشمة لتسقط على الفراش... لحق بها مهددًا:

«أخيراً... أخيراً بجيتي حلالي بلالي... ليا لحالي يا... زينة»
لم تكد تستسلم ليديه تجردانها من ثوبها، حتى اخترق اسم زينة أذنيها كالطلق الناري... أشاحت الخمار عن وجهها ودفعته لينظر لها صارخة بجنون:
«اطّلع بوشي يا چاسر، وشوف مين جدامك وعلى فرشتك!!»
رمش بعينيه عدة مرات يتفرس في ملامحها، ثم هز رأسه بقوة وأجفل عندما صرخت بقوة في وجهه قائلة: «أنا سمحة... سمحة يا چاسر.. مرتك... لساك مشايفنيش!!؟»
ازدرد ريقه بصعوبة وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء:
«لع شايفك... وانتي إيه اللي چابك چاري!؟؟ وفينها زينة؟؟»
دفعته لتنهض عن الفراش بدموع نحرت قلبها، الذي عشق اسمه قبل أن يعرف بوجودها، صرخت بكل عزمها: «طلجني يا چاسر !! طلجني!»
«آه يا بت المجنونة!!»
صرخ شاتمًا عندما عضته بقوة في يده وهو يحاول منعها من الابتعاد عن الفراش.
«انت لسة شفت چنان!!؟ لا يا چاسر يا رحايمي.. كل اللي فات كوم وچنان الليلة دي كوم تاني!»
طرقات على الباب جعلته يفيق من ذهوله، وصوت معالي يأتي مغناجًا، ساخراً من خلف الباب:
«چرى إيه يا سبع البرمبة؟؟ الناس عاوزة تروّح... لسة جدّامك كَتير؟؟ ولا بت البداري عصيانة عليك؟؟ عاوز مساعدة يا خوي؟؟»
كلمات معالي كانت كسطل من الماء المثلج يسقط على رأسه.. فأفاق مما يحيط بعقله من طنين، نظر بحدة لعروسه المتمردة.. تراجعت عندما رأت الشرار يطق من عينيه فهتفت بحدة:
«إياكش فاكر إنك هتهتني ببصتك دي!! لا... فوج لحالك يا ولد الرحايمة... أنا سمحة البداري»

ضاعت نظرة إعجابه بتلك اللبؤة الشرسة وهو يقفز نحوها، كاتمًا تهديداتها بيده التي لثمت فمها، ثم همس بتهديد: «كلمة واحدة تانية وأهلك هياچوا يعزوا فيكي بدل ما يباركولك!!»

اتسعت عيناها بهلع فأكمل متهكمًا:

«خلصنا لعب يا بت البداري... وچه وجت الچد»

❂❂❂❂❂

الليلة.... الليلة يا زينة البداري ستصحو النجوم في سماء الليل الحالك على أنين صرخاتك، عندما تغرد بواريدهم النهمة بدمائك!!

أطلت هَنا برأسها من فتحة الباب: «ممكن أدخل؟؟»

«وانتي محتاجة استئذان!؟ اتفضلي»

دخلت مطرقة... سألتها زينة باستغراب:

«مالك يا هنّا؟؟»

رفعت عيناها لتطل منها الدموع... ارتاعت زينة وهي تضم أختها بخوف:

« مالك يا هنّا؟؟ فيكي إيه؟؟ تعبانة؟؟»

«لأ... بس... بس انتي هتوحشيني أوي»

ضاقت عينا زينة بتساؤل: «بس كده؟؟»

أطرقت هنا رأسها:

«لأ وحاجة تانية.. حاسة إني السبب.. لو مكنتش...»

طمأنتها زينة:

«يا هنا يا حبيبتي.. لو مكنتيش انتي ونجلا اللي اخترتم الورق كان أي حد تاني هيختاره... مش ذنبك يا حبيبتي.. اهدي كده وروّقي... فرح أختك النهاردة... ماسمعتيش ماما وهي بتقول على رافع إنه رجل چانتي!؟»

ضحكت هنا من خلال دموعها، وشاركتها زينة... ولم تخبرها هنّا أبدًا عن السبب الحقيقي لبكائها، وظل الشعور بالذنب يوجع ضميرها.

٥٥٥٥٥

هل سيعتاد الليل أبدًا على هذا الإزعاج لهدوئه وسكونه!؟ ألن يثور مرة ويعترض على انتهاك حرمته!!؟ للّيلة الرابعة على التوالي لا أحد يبالي وهم يخترقون كل العهود بينهم وبينه. ربما سمعه أحد ما يئن بصمته «كان النهار لكم، فلماذا تؤرقوني!؟»، ولم يسمع ردًا؛ فقد تراص المدعوون ككل ليلة على مقاعدهم استعدادًا لليلة سامرة أخرى من أفراح البداري والرحايمة.

وكل يوم تزداد الحكاوي قصة جديدة... يتحاكون عما حدث، وتوقعاتهم لما سيحدث.. خاصة وأن فرح الليلة مختلف عن كل الليالي السابقة.. العريس رافع زينة شباب الرحايمة، ومصدر فخرهم وعزتهم؛ والعروس بكرية رضوان البداري، وبنت الخوجاية التي يتغنون بجمالها منذ خمسة وعشرين سنة... باختصار، فرح الليلة هو اندماج مشروع بين الجمال والقوة.

دمعت عينا فاليريا وهي تتطلع لابنتها بثوبها الأبيض الطويل.

«مون ديو... الفستان مكاسك تمام... أنا مش مصدك... مش كنت أصدك إنك توافك يلبس فستاني كديم زينة»

هزت زينة أكتافها وهي تعيد النظر في المرآة، للثوب العاجي اللون والمرصع بحبات ألماس مقلدة في منطقة الصدر والخصر، الذي أظهر شدة نحولها.. وينزل باتساع كبير بلفائف من الحرير الطبيعي، حتى امتد متران على الأرض، وقد زُيّن بوردات في الذيل من نفس نوع القماش... أشارت زينة لأكتافها الظاهرة، التي خلت من الأكمام؛ فالتصميم بحمالة واحدة رفعت صدر الثوب بلفة حول العنق:

«أعتقد إن رافع هيقتلني لما يشوف المنظر دا... دا لو مقتلنيش سيف الأول»

ثم استدارت ترفع يديها لأمها، التي شهقت مدركة لخطورة الوضع.. ثم هبت بانزعاج:

«انت غلتان... كام مرة أكول كوم زينة كيس فستان!؟ دا مشكل كبير... ومافيش وكت نشتري واهد تاني!!»

أعادت زينة النظرللمرآة، ثم ارتفع حاجباها ببريق فكرة تختمر في رأسها قائلة:

«بعد تفكير تاني... ممكن ينفع»

«لا زينة انت صح كلام... ردوان مش ممكن يوافك!»

«اصبري بس يا حاجة فاليريا... أنا جات لي فكرة أخلص من الجوازة دي كلها... أو على رأي قرايبي.. (كلاتها) »

هتفت أمها بتخوف:

«أنا مش مطمئن لكلام دا... بتفكر في إيه زينة؟؟»

«مش مهم ماما... المهم إن محدش يشوفني، خصوصًا بابا، قبل ما أكون في بيت الرحايمة... وقتها محدش هيقدر يعمل حاجة».

بدأت تشعر بالحياة تسري مرة أخرى بأوردتها، بعد أن وصلت لحافة الموت تقريبًا.

كانت وحدها تتطلع لنفسها في المرآة، وخطة الليلة تختمر بعقلها، وهي تتساءل عن مدى تأثيرها على الجميع، دخلت سمحة تجيل النظرات عليها بطريقة أثارت ريبتها واستياءها:

«سمحة... أهلًا بيكي.. متوقعتش تيجي.. انتي لسة عروسة»

كشكشت سمحة أنفها وكأنها تأنف من محادثتها:

«وأنا كت أجدر أتأخر عليكي يا بت عمي!؟ انتي وحديكي؟ الدلالة مچاتش تشورك؟»

«لأ... أنا مش عاوزة حد.. أنا هعمل مكياچي بنفسي... انتي مالك يا سمحة!؟؟ كان عندي إحساس إنك الوحيدة اللي مبسوطة من الجوازة دي.. جت على هواكي»

بعصبية زادت من شكوك زينة هتفت:

«يعني إيه چت على هواكي دي!؟ كُتّ عاشجاه في الضلمة!؟ ولا مسكوني معاه سارحين باللنش في المية، وراچعة لهم ملفوفة في بطانية!؟»

تهدلت ذراعاها تتأمل ابنة عمها، التي لم تعرفها بتلك النبرة والنظرة الحقود:

«بقولك إيه يا سمحة... أنا فيا اللي مكفيني... شوفي طريق الباب اللي دخلتي منه ومع السلامة»

ولكنها لم تتزحزح من مكانها... فتجاهلتها زينة وهي تكمل تبرجها... اهتاجت سمحة من تجاهلها، أسرعت لأدوات زينة وأطاحت بها أرضًا صارخة:

«انتي إيه!!؟ محدش مالي عينك!!؟ طول عمرك طلباتك أوامر... بتسافري وبتلفي الدنيا كلاتها... بتشوفي ناس تانية... وأحلامك بتخطي السحاب، وممكن توصل للشمش عمرك ما عشتي في الجمجم اللي عشت فيه، عمرك ما كان نفسك في حاچـة إلا وكانت في يدك، ومع ده كلاته، مش عاچـبك... ماله رافع!؟ مش عاچـبك في إيه!؟ راچـل ملو هدومه... وكان ماله رشاد أخويا!!؟ انتي إيه، محدش مالي عينك واصل!!؟ ولّا بتحني لأصل أمك، وكان عينك من الخواچـة اللي كان هيمشيكي على حل شعرك!؟؟»

«لأ دا انتي أكيد شاربة حاجة وعاوزة تتخانقي وخلاص!!».

لم تتوقع ما حدث ولا في أقصى خيالاتها جموحًا! هجمت عليها سمحة تنشب أظافرها في جانب وجهها.. وابتعدت تتسارع أنفاسها بنظرة انتصار شامتة، وكأن رؤية الجرح النازف في وجه ابنة عمها مدها بالراحة المنشودة... بأنين وتوجع وضعت زينة يدها على وجهها لتُصدم برؤية الدماء تلطخها... ثم نظرت لسمحة التي أومأت بنظرة انتصار متوحشة، وعادت أدراجها وكأن مهمتها انتهت...

أعادت النظر في المرآة لا تصدق ما حدث.

«إيه دا!؟ يا خبر! مالك يا زينة؟؟»

ضغطت بقوة على وجهها لتمنع الألم وهي تصر بأنين: «اقفلي الباب يا هنا بسرعة، وهاتيلي فوطة مبلولة... بسرعة قبل ما الدم ينقط على الفستان»

مرت الصدمة الأولى على هَنا، وجرت قدميها لتنفذ طلب أختها: «إيه اللي حصل؟؟ وإزاي!؟؟»

«صدقيني معرفش.... سمحة اتجننت... جرى لمخها حاجة أكيد»
«يا نهار أسود!! هي سمحة اللي عملت فيكي كده!!؟ والله جه في بالي مرات أخوكي... على اعتبار إنك...
زغرت زينة لأختها فكتمت باقي جملتها: «طب انتي هتعملي إيه؟؟»
«مش عارفة... هو باين أوي؟؟»
هزت هنّا رأسها بعد أن ألقت نظرة تفقدية فزعة على وجه أختها:
«ضوافرها حفرت في وشك... إلهي تتشلي في صوابعك يا سمحة يا بنت زينات!»
« هنّا متجيبيش سيرة لحد... هاتي لي تلج بسرعة وأنا هتصرف»
دمعت عيناها من منظر الجروح الطولية التي تشوه وجهها... حاولت بمستحضرات التجميل إخفاءها.. كانت المهمة غاية في الصعوبة بالإضافة للألم غير المحتمل، خاصةً أن الجرح لم يندمل بعد.
جففت دموعها أمام المرآة، ثم أسدلت الخمار الطويل الكثيف.. فكرة أمها المدهشة لتخفي عري ثوبها من أعلى.
دخلت النسوة تسبقهن الزغاريد، يفسحن المجال للرجال... دخل سيف وبصحبته أبوها... وقفت مطرقة أمامه، فطبع قبلة حانية على قمة رأسها... اجلى سيف حلقه وهو يتمنى لها السعادة، بينما يزغز لزوجته كي تفسح الطريق... لوت معالي فمها بازدراء وهي تتنحى عن الطريق. تأبطت العروس ذراع والدها تشيعهم الزغاريد. كانت تشك في قدرتها على الحركة؛ فقد بدأت تشعر بأطرافها تتجمد. وقفت على رأس الدرج مترددة في النزول حيث ينتظرها عريسها بالأسفل بجلبابه الأسود وعمامته البيضاء، وقد أضفت عليه وقارًا وهيبة جعلت أطرافها ترتعش، انحنى والدها على أذنها: «زينة يا بتي، انتى زينة؟؟»
أومأت بدون كلام، وأجبرت نفسها على النزول، حتى سلمها والدها لزوجها. ساعدها للجلوس في الكوشة المزينة، ثم انسحب للاحتفال بالخارج مع الرجال.

مزقتها نظرات سمحة المتبجحة، ومعالي الفضولية ولكنها لم تروِ شبقهن، ولم ترفع الخمار... احتملت بصبر الساعات جالسة تستمع للأغاني الشعبية والرقص والزغاريد... لا يفصلها عن زوجها إلا بضعة أمتار، حيث يقضي وقته مستمتعًا بين أصدقائه والراقصات الغجريات؛ ولِمَ لا والليلة تتويج لانتصاره الغاشم، والتي بدأت بنزيف دمائها وستنتهي بالمثل!

انحنت ست الدار على فاليريا بشفاه متبرمة مشيرة للعروس: «إلا هي مرت ابني مش عاوزة تورينا طلعتها البهية ولا إيه!؟؟ ما إحنا حريم في بعضينا، ولا المحروسة ما بتتكشفش إلا على الرچالة وبس!؟»

توترت فاليريا بنظرة خاطفة قلقة لابنتها، ثم ربتت على يد ست الدار:

«اطمن يا هاج... زينة مكسوف شوية... بس لما يروه الدار أندك هتشوفي وشو.. وهتنبسط كتير»

«آه... انتي بتجولي إيه!؟؟ حد يفهمني يا ولاد الخوجاية دي بترتطن بتجول إيه!»

جذبتها نجلا من ذراعها:

«وبعدين وياكي يمّا!؟ الست أم سيف مجالتش حاچة لكل اللي بتعمليه ده... اسكتي وخلينا نسمعوا الغناوي».

أشارت ست الدار لمعالي:

«بت يا معالي... تعالي لما أجولك»

اقتربت منها معالي متبرمة:

«خير يا مرت عمي؟»

«انتي بتعرفي تتحدتي وياها الولية الخوچاية دي؟؟ دي بترطن باللاوندي دي ولا لغوتها إيه!؟»

«والله إنك فايجة ورايجة... ومين كدك يا أم الغالي!؟ ولدك هيتچوز ست الحسن والچمال... همليني يا مرت عمي في مراري الله يستر عرضك»

عندما حان الموعد، دخل العريس على أكتاف أصدقائه حتى عروسه.

لم يخب أملها؛ بجلبابه الأسود، وحاشيته البيضاء، واللاسة البيضاء الحرير تزين أكتافه، والعمامة ملفوفة حول رأسه بإحكام... وقفت قبل أن ينحني ليحملها كما هي العوايد... ورغم كثافة الخمار ولكنه شعر بعينيها الزرقاوين تكادان تناطحانه التحدي... ثم همست فلم يسمعها غيره:

«عندي رجلين... وأقدر أمشي وحدي»

أمال رأسه متهكمًا... ولدهشتها طاوعها وانتحى ليفسح لها الطريق: «اتفضلي... ناريسا»

تسمرت مكانها متسائلة: «حضرتك نسيت اسمي ولا بتتريق!؟»

«متآخذنيش يا عروسة... العتب على النظر... مشايفكيش مليح..»

«لما نوصل بيتكم تقدر تفتح هديتك وتشوف جواها إيه.. ولا مستعجل؟؟»

«العـجـلة من الشيطان يا بت عمي... اتفضلي»

لم تبال بشهقات النسوة وهي تتقدمه بعد أن رفضت أن يحملها، ولم يتركها تفرح بانتصارها الصغير، عندما كمش ذراعها وأجبرها لتتأبطه قائلًا بنبرته المتهكمة:

«مش العرسان عنديكم بيعملوا إكده برديكي؟»

لو كانت النظرات تقتل، لكان ذلك الصعيدي الذي يظن نفسه ذا دم خفيف، صريعًا تحت قدميها، مفصول الرأس ذي الابتسامة المتسعة تصل الأذنين ببعضهما. فكرت بدهاء: «حالًا هشوف الضحكة اللي بجد»

وصلت إلى الكارتة المزينة بالورود والأنوار، والتي كانت بطلة الليالي السابقة، ولكنها الليلة يجرها جواده الأبيض ذو العرف الأسود المتطاير. كان بطل اللقاء الأول أيضًا. حاولت الصعود وانتظرت يده لكي يمدها، ولكنه وقف مكانه عاقدًا ذراعيه على صدره... التفتت له بدهشة، فصعقها بوجهه ذي الابتسامة الباردة... هب سيف لمساعدتها بضيق:

«هاتي يدك يا زينة»

ولكن صوت رافع الصارم أوقفه مكانه:

«مرتي ممحتـچـاش مساعدة يا سيف بيه... لمَّن تعوزها، چـوزها هو أول من يساعدها»

وضع رضوان يده على كتف ابنه يحاول السيطرة على غضبه، ولكن سيف لم يبال، هادرًا بنبراته التي يحاول التحكم فيها:

«زينة البداري معمرهاش احتاچـت لمخلوج يا رافع يا رحايمي... طول عمرها أميرة البدراري، واللي بتحتاچـه جبل ما تطلبه بيكون حدها، مبتحتاچـش حتى ترمش عشان تطلبه»

رفع رافع أحد حاجبيه متهكمًا:

«زينة دلوك راحّة عبيت چـوزها، أميرتك كبرت وبجت عروسة وهتشيل مسؤولية بيت وعيال، هتتـچـلعوا في بيت چـوزها، بس چـلـع من نوع تاني..

وضع يده في صديرية جلبابه غامزًا: « طبعًا أنت واعي يا... سيف بيه؟»

ثم التفت لزينة المتابعة الموقف بصمت:

«لساتك ليكي شوج فحاچـة تانية، ولا العركة اللي كتي متشوجة لها لسة محوصلتش؟؟ هه... مسمعتكيش»

كزت على أسنانها، ولعنت هذا الثوب الطويل الذي يعجزها تمامًا عن الحركة وحدها... عضت شفتيها تتمتم: «ساعدني لو ســ...»

كتمت شهقتها عندما انحنى سريعًا يحملها بين ذراعيه قبل أن تكمل جملتها... ثم تطلع لها ضاحكًا:

«ماكان من اللول يا عروسة!»

ثم وضعها بخشونة على مقعد الكارتة، وصعد خلفها يمسك بلجام الجواد ويحثه على الانطلاق.

تطلعت خلفها حيث بيتها يختفي بالتدريج عن الأنظار.

لم يوجه لها أي حديث أو حتى نظرة جانبية مسروقة... بدأ التوتر يجتاح هدوئها الظاهر عندما ظهرت سرايا الرحايمة من بعيد... كان مماثلًا لسرايا البداري في

الحجم، وأسرفوا في تعليق الزينات التي حولت الليل من حوله لنهار... ازدردت ريقها بصعوبة. بدأ الاستقبال بالطبل والزمر والراقصات تتلوين بالشمعدانات المشتعلة فوق رؤوسهن.... أوقف الكارتة، والتفت لها، فعرفت أن ساعة الصفر قد حانت عندما سألها:

«عاوزاني أساعدك، ولا هتنزلي لحالك؟؟»

تمتمت بصوت ناعم:

«لأ... ساعدني يا رافع... لو سمحت»

هم بالنزول عندما توقف مسمراً... أغمض عينيه مستلذًا بسماع اسمه لأول مرة يخرج من بين شفتيها... جمع شتاته التي بعثرتها بجملة واحدة فقط، وقفز من الكارتة يمسك بها من خصرها يساعدها على النزول، ثم انحنى يهمس:

«معلهش عارف انك تعبتي الليلة... أبوي عاوز يفرح على طريجته... صمم يعملي ليلة على مزاچـه»

«آه طبعًا وماله... بس أنا مش شايفة حاجة.. الطرحة تقيلة أوي... ممكن... ترفعها؟؟»

سرح في نبرات صوتها الناعمة، وشعر بحرارة شديدة تجتاحه...

«رافع... رافع»

«إيوه... حاضر»

مد يده يرفع خمارها الطويل لتسلبه النداهة رزانته ضائعًا في أمواج عينيها الزرقاوين، في نفس اللحظة التي وصل فيها أهلها يتجمعون حولهم.

شتت انتباهه عن رؤيتهم، واستمر يبحث بين مدها وجذرها عن شاطئ يرسو عليه، اخترق سمعه الشهقات التي وصلت لدرجة الصراخ... تلفت حوله، ازداد دهشة من تلك العيون المتسعة، والتي أرسلت أسهمها لترشق عروسه... استدار بحدة وقد أنبأته غريزته بوجود شيء ما خاطئ بالفعل... اصطدمت حواجبه بحدود عمامته البيضاء مصدومًا، بينما رفعت رأسها بشموخ ونظرة بريئة تحتل

شواطئها العذرية.. وكأنها لا تعلم سر هذا الصمت الرهيب الذي حل فجأة محل الطبل والزمر.

بسيل شتائم لم ينقطع، احمر وجهها لاضطرارها لسماع هذه الألفاظ. خلع عباءته ولفها حول كتفيها مجهضًا أي اعتراض لديها، ثم انحنى ليحملها مخاطبًا من حوله:

«العروسة مش عاوزة زفة.. وسعوا لي الطريج»

انشق المدعوون المتراكمون لنصفين كبحر موسى... وحدها عانت من قوة تحكمه في أعصابه... شكرت حظها أن والده قرر عمل هذا الفرح... ربما لو لم يكن كل هذا الجمع محتشدًا حوله ربما قتلها، وهو على هذه الحالة من الغضب.

دفعها كالجوال المهمَل يلقيها على الفراش، ثم أحكم إيصاد الباب بالمفتاح... التفت لها ليجدها قد لملمت نفسها بسرعة ووقفت تبدأ بالهجوم:

«انت فاكر نفسك مين علشان تعاملني بالطريقة دي!!؟»

«معتعرفيش أنا مين!؟؟ دجيجة واحدة بس وبعديها هتعرفي!!»

كتفت ذراعيها العاريان تراقبه ببرود يستعد للهجوم، عندما بادرته بنبرة رقيقة خنوع:

«أنا عارفة كويس أوي انت مين يا رافع... انت رجل صعيدي شهم، مش ممكن تفرض نفسك على واحدة مش عاوزاك... واحدة كانت تفضل الموت على إنها تبقى مراتك»

«وأنا موجعتش في غرام حضرتك ووجفت أعد النـچـوم تحت شباكك... أنا وانتي موروطين نفس الورطة، إحنا واللي سبجونا»

«بس انت مختلف»...

«يعني إيه؟؟»

«يعني انت مش مضطر تكمل الجوازة للآخر... انت حتى مستحملتش تشوفني بفستان عريان؛ يبقى هتستحملني إزاي بعد كده!!؟»

«تجصدي إن خلجاتك كلاتها بالمنظر ده!!؟؟»

«أمال انت فاكر إيه!؟ أنا واحدة عشت في باغي معظم طفولتي، غير آخر سنتين منزلتش البلد فيهم ولا مرة. تتخيل إني هقدر أرجع أعيش هنا تاني!؟»

«مش بخوطرك يا بت الناس»

«لأ يا رافع... بخاطري وبخاطرك انت كمان»...

«اسمعي يا.... »

توقف عندما لاحظ العلامات الحمراء الطويلة على وجهها.. توترت، ولم تستطع إبعاد وجهها عن يده التي تلمست جرحها، لينبض مرة أخرى بألم نسيته في غمرة الأحداث.

«مين اللي عمل فيكي إكده!؟؟ يوم كتب الكتاب مكانش موچـود... ولا يوم فرح رشاد، وانتي مبينتيش من يومها... إيه اللي حوصل يا زينة؟؟ مين مد يده على مرتي؟؟»

فشلت في دفع ذراعيه عنها فتنهدت بيأس:

«أنا.... أنا اللي عملت كده في نفسي.. ارتحت!؟»

«وليه؟؟»

«علشان... علشان مش عاوزة أتجوزك..؟»

«تجومي تجطّعي خلجتك إكده!؟»

«ولولا هَنا دخلت كنت...»

ضاقت عيناه برهبة: «إيه!!؟ كتي جتلتي حالك!!؟»

«أيوه يا رافع... كنت موّتّ نفسي»

«للدرچـة دي مش طايجاني!؟»

«للدرجة دي مش عاوزاك تكون جوزي»

جال بعينيه على أكتافها نزولًا لثوبها الطويل، ثم عاد لوجهها مرة أخرى... طرقات متعجلة على الباب حولّت التبرم في شفتيه لابتسامة:

«وهنعملوا إيه في أهلك وأهلي، اللي جاعدين منتظرين المنديل!؟؟»

صوت أمه وصله من خلال الباب المغلق:
« رافع يا ولدي... الناس عاوزة تروّح.. هم أمال»
رفع حاجبيه بانتظار ردها:
«طبعًا حضرتك عارفة الوضع... يا أمتًا أنا مش راچل كفاية، ودي زي ما انتي خابرة عيبة جوي في حجي وحج أبوي وعيلتي... يا أمتًا العروسة معيوبة... ولا مؤاخذة يعني... ودا معناتو إن حضرتك هتجضي ليلة دخلتك في تربة متر في مترين»
سرت قشعريرة في أطرافها، وصلت لقلبها الذي انتفض من قسوة البرودة التي اجتاحت عينيه حالكتي السواد، وتابع حديثه:
«طبعًا دا غير إن الچوازة دي زي الچوازات اللي جبل منيها... أصلها إن السلام يعم البلد... ولو مطلعتش بالمنديل دلوك... انتي خابرة زين إيه اللي ممكن يوحصل»
متهكمة بمرارة:
«يعني هو دمي اللي هينشف بحر الدم بين عيلتي وعليتك!!؟إيه التخلف والجهل دا!!؟ أنا متوقعتش إنك ممكن تهينّي وتهين نفسك بالطريقة دي!انت رجل متعلم، والمفروض...
لوح بإصبعه في وجهها محذرًا:
«المفروض منوجفش في طريج واعر... العجل بيجول إكده... إلا إذا كان في حاچة عاوزين نخبوها»
«حاجة يعني إيه!!؟؟ أنا مش....»
وعندما اشتعل توهج عينيه بسوادهما الحالك، همهمت بتفهم بكلمات بطيئة:
«أنا مش موضع اتهام علشان أدافع عن نفسي... وآدي المنديل بتاعك»
جذبته من جيبه وفركته في جرحها المؤلم، وأعادته له بعد أن تلوث بجرحها الذي عاد ينزف:

«اتفضل... مش همّ عاوزين دمي؟؟ ارمي المنديل للسعرانين اللي مشتاقين لسة لريحة الدم، وكأن دم تلت عرايس قبلي مكفاهمش، وباقي دمي»

تحرك بقلق ناحية وجنتها النازفة، فأشاحت بوجهها:

«ابعد عني!»

قبض الهواء بأصابعه المتشنجة، وتهدل ذراعه الآخر بجانبه. وبخطوات سريعة فتح باب الشرفة، وأخرج سلاحه ليضرب عدة أعيرة نارية في الهواء، وهو يرفع المنديل عاليًا... ردوا عليه بطلقات مماثلة، وقد عاد الطبل والزمر يغتصب سكون الليل مرة أخرى.

انتفضت لدى سماعها صوت إغلاقه باب الشرفة بقوة، وعاد يقترب منها... يقاوم نفسه المريدة بقوة كي لا يطوعها ويكسر أنفها الشامخ، ويثبت لها بالبرهان أنه رجلها، مهما كانت اعتقاداتها الغبية.

وقف أمامها... يداه معقودتان خلف ظهره، محاولًا التحكم في نبرات صوته كي لا يعلو:

«وبعدين.. هنعملوا إيه؟؟»

رفعت رأسها لتجيبه، ولكن عينيها زاغتا وترنحت. مدت يدها تحاول التمسك بأي شيء يوقف تأرجح رأسها... فكانت ذراعاه الأقرب إليها، وصوته يناديها من بعيد.



۞ ٩ ۞

«ثمة أوقات في حياة سائر الرجال، حيث يقرر أولئك مستقبلهم، إما بالنجاح أو بالفشل... وليس من حقنا أن نلوم نجومنا أو مقامنا الحقير.. بل يجب أن نلوم أنفسنا بالذات.»
ـ وليام شكسبير

....

«زينة...»

التفتت تلقي بنفسها بين أحضان والدها في بكاء حارق: «بابا... شفت اللي حصل؟؟ رافع يا بابا... رافع»

«إن شاء الله هيطيب يا بتي... اهدي انتي بس»

«زينة هبيبي... مش كويس بكاء... انت هتوكأ من طولك هبيبي!»

صرخت باسم أمها، قبل أن تلقي بنفسها بين ذراعيها، مستسلمة أخيراً لانهيار سد الدموع التي اختزنتها في الساعات الماضية.. ثم أبعدتها أمها لتسألها:

«زينة... فين لوسي؟؟»

«مع مسعدة في البيت... كانت نايمة لما حصل اللي حصل... بعتّ لمسعدة تقعد معاها»

«داكور... أنا هروح أشوفه... هو مش يكاف لما مش يلاقي مامته وباباه؟»

وافقها رضوان بإيماءة:

«وأنا هفضل إهنه مع زينة... خلي سيف يوصلك... هو راح فين!؟»

«راح يجيب لي آكل... قلت له ماليش نفس آكل... بس هو صمم»

«ما يـچـراش حاچـة؛ ما انتي لازم تصلبي طولك يا بتي»

«ماليش نفس يا بابا... كل ما أشوف رافع تايه عن الدنيا، أحس إني عاوزة أموت»
دخل سيف يعاتبها وهو يمد يده لها بالطعام:
«انتي لساتك بتخترفي يا زينة يختي!؟ مليح إنك چيت يابوي... اتحدت معا بتك كلمتين.. من عشية محططتش الزاد في حنكها»
«أنا هوكّل زينة، وانت خود أمك وروّحها، البنية بت أختك لحالها... إلا أنا اتخايلت زي ما تكون معالي موچودة؟»
زفر سيف بضيق:
« يلا يمّا جبل ما أبوي يطج له حنك تاني.. أنا مفايجش للحديت ده دلوك».
هتفت زينة بإعياء:
« متنساش تاخد معاك البنتين نجلا وهَنا... بقالهم زمان مش عاوزين يتحركوا من مكانهم»
«معلوم... لازمن ضميرهم واچعهم من عملتهم المهببة!»
«مش وجته الحديت دا يا سيف.. كل واحد فيه اللي مكفيه وطافح يا ولدي.. خود البنتة وأمك، ومتعاودش إلا لمّن تطمن إنهم مش ناجصهم حاجة»
«ماشي يابوي... بس خود بالك... مخفي الاسم چاسر اهنية... ليتطاول على زينة بكلمتين ماصخين.. هيكون آخر يوم بعمره»
«يا ولدي الله يهديك، روح واجصر الشر... إحنا في إيه وانت في إيه بس!؟ روح الله يهديك.. الحاچة الزينة الوحيدة اللي عملتها إنك حچزت لأختك أوضة تريح فيها چتتها... مع السلامة يا فال... ابجي طمنيني على حفيدتي»
«داكور ردوان... مع السلامة زينة... طمنيني بالتليفون»
«داكور ماما.... خليني أسمع صوت لوسي لما تروحي»
بعد خروجهما، تهاوت بين أمان أحضان والدها تنتحب مرة أخرى:

«بابا... رافع هيضيع مني!! هيروح وأنا ما صدقت لقيته!! أعمل إيه يا بابا؟؟ اعمل إيه؟؟»

ربت على ظهرها:

«ادعيله يا بنتي... ادعيله ربنا ياخد بيده ويجوم لنا بالسلامة»

«يا رب...»



«صباحية مباركة يا عروسة»

ذلك الصوت المتهكم يخترق كتل الضباب المتراكم في عقلها... كيف دخل لغرفتها!؟؟ كيف أصبح جوارها لهذا الحد!!؟ هل تركه سيف يدخل بدون أن يمنعه!!؟ لابد أنها تحلم!

فتحت عينيها تتأوه من الألم الرهيب في وجهها... انكفأت على الوسادة تحاول تجرع موجة جديدة من الألم، كما اعتادت في كل حياتها.

«شكل الجرح مؤلم أوي»

اتسعت عيناها تحدق به مصدومة، وقبل أن تصرخ مدافعة عن شرفها، مرت ذكريات ليلة الأمس سريعًا أمام عينيها لتدرك أنها هنا... في بيته... أومأ مازحًا وكأنه قرأ أفكارها:

«كويس أوي إنك افتكرتي... قبل ما تتهوري وتصرخي»

من خلال موجات الألم النابض سألته السؤال الحائر: «انت بتتكلم عادي امتى؟؟ ولهجتك بتقلب صعيدي امتى؟؟»

«لما بكون متضايق بقلب على الوش الصعيدي... وطبعًا لما بتكلم مع أمي وأبويا... أنا قضيت معظم حياتي بين اليونان وروسيا... يعني ساعات بقلب على روسي أو يوناني... زي ما انتي بتقلبي على فرنسي»

ذكرها بثوبها الفاضح، والذي تسبب في مشكلة الأمس: «ممكن حضرتك تقومي تغيري هدومك، قبل ما أمي تدخل وتشوفك لسة بفستان الفرح؟؟»

«أيوه... بس مش قبل ما نتفق... جوازنا دا هيستمر لامتى؟؟»
ضاقت عيناه، وتوتر جانب حاجبه صاحب الندبة:
«حضرتك عاوزاه لامتى؟ معلش أصلي مقرأتش كتالوج التعليمات اللي عليكي»
تجاهلت مزاحه السمج وأجابته بجدية:
«لحد ما نتطمن إن الجوازات التانية هتحقق النجاح... بعدها لو اتطلقنا مش هتكون مشكلة كبيرة»
«امممممم.. فكرتي بكل حاجة... كويس أنا موافق»
«بس... فيه مشكلة... أنا لازم أسافر فرنسا.... كنت اتفقت مع بابا علشان... أخلّص التزاماتي من هناك...»
احتدت ملامحه وتمتم بهدوء مناقض لنظراته المهتاجة:
«طول ما حضرتك مرتي على ذمتي، مش هتخطي عتبة الدار لوحديكي واصل... يا أمتًا معايا أنا جـوزك جدام كل الخلج... يا أمتًا مع أمي... ومافيش حل تالت... واعية لحديتي يا بت الناس؟»
مطت شفتيها بامتعاض:
«على العموم... هنتكلم في الموضوع دا بعدين... وعلى فكرة... القانون دلوقتي يسمح للزوجة إنها تسافر في أي مكان برة مصر بدون شرط إذن الزوج»
هدر بتهديد:
«أنا متأكد إنك متجصديش تتحديني... صوح؟؟ لأنك يا عروسة مش كدي... ولو عملتيها مرة تانية... إنك بس تفكري تتحديني... هكسر خاشمك وأخليكي مرتي صوح، وأنزّلك الدوار تعجـني وتخبزي وتزربي للبهايم... واعية يا... عروسة؟؟»
أخيراً خرجت أنفاسها محدقة بالباب الذي صفقه خلفه.... لابد أن تتعلم كيف تستطيع تدجين تنين الرحايمة هذا... ومتى تدخله وجاره وتحبسه داخله... ومتى تسمح له بالتجول وقيده بيدها.



«على فين العزم إن شاء الله؟؟»

«بتسأل ليه!؟ وانت مش رايح تبارك لأختك!؟»

«أنا رايح... وانتي معتروحيش أي موطرح»

«ليه بجى إن شاء الله!؟»

«عشان أنا جولت إكده»

«ومين جالك إني بسمع الكلام يا سي سيف بيه!؟»

«معالي... لمي نفسك، وخلي ليلتك الغبرة تعدي على خير»

«وإن ما لميتش نفسي والليلة معدتش على خير، هيوحصل إيه يعني!؟؟ تكونشي فاكرني ماليش رچالة يوجفولي... لاااا.. فوج يا سيف.. دنا ورايا رچالة ياكلوا الحنش وهو ني»

«أنا خابر انتي رايحة ليه.. عشان تملي عيونك من حبيب الجلب... صوح الحديت؟؟ بيت عمك دا مش هتخطيه واصل، إلا لمن يحصول اللي في بالي»

«وهو إيه دا اللي في بالك يا سيف بيه؟؟»

«وجتها هتعرفي... دلوك تلمي تعابينك واحنشتك وتبعدي عن طريجي»

ضربت بقدميها في الأرض:

«والله لأجول لأمي فاليرية»

فوجئت فاليريا بزوجة ابنها تطلب دعمها... ولكنها لم تفهم منها كلمة واحدة... نظرت لسيف تسأله:

«سيف هبيبي... هي آاوز إيه دي؟؟»

«مترديش عليها، ويلا بينا أبوي مستنينا في العربية»

هبت معالي: «يعني إيه مترديش عليها دي!!؟ كلبة وبتهوهو ولا إيه!!؟»

«سيف... هليها تيجي... أشان هاطر ماما... مرة دي بس»

أومأ سيف بنفاذ صبر:

«مش هكسر لك كلمة... بس متعمليهاش تاني... مرتي وأنا خابر بعمل معاها إيه وليه»

«داكور سيف هبيبي»

«إيه دكور دي كمان!!؟ على رأي مرت عمي، هي أمك دي بتتفاهموا معاها إزاي؟؟»

❂❂❂❂❂

«همي... همي يا سمحة علشان نروحوا نباركوا لابن عمي»

«لا يا شيخ... عاوزنا نباركوا لولد عمك... ولا لبت عمي؟؟»

حرك عمامته بارتباك، وعيناه تشتد قتامتهما للذكرى، من بداية نزولها الأسطوري ليلة أمس من الكارتة، وحتى رفع خمارها عن وجهها، لتقف الطيور على رؤوس كل الحاضرين مذهولين.

استشاطت غاضبة.. لا شك أن منظر ابنة عمها قليلة الحياء يستوطن خياله المريض... فها هي عيناه تتوهجان، كما حدث معه ومع كل المدعوين ليلة أمس... ورغم أظافرها التي نشبتها في وجهها بغل لتشوِّه جمالها... لكن لم يلتفت أحد لجروحها، وهي تطل عليهم بهذا الثوب العاري، لتخطف أبصارهم كما خطفت قلوبهم

«چـاااااسر!»

أجفل مزمجراً: «إيييه؟؟ خبر إيه؟؟»

«مخبراش يا نضري... بس خود بالك... رافع يشوفك وانت بتنضر لمرته، يجوم يخزج عينيك التنين»

«يا ساتر يا رب!! الملافظ سعد يا وش ال.. سعد.. وانتي بتحدفي دبش... وجال مرت عمي بتسألني مش عاوز تتچـوز ليه!! أهه العينة زي عين الشمش... بخاطرك هروح لحالي... جبر يلم العفش».

وقفت تتوعده، وقدماها تضربان بالأرض غيظًا وكمدًا.

❂❂❂❂❂

«رشاد يابني... مش هتروح مع عمك تبارك لبنت عمك في صباحيتها؟؟ رشاد... مالك يا ضنايا ما بتردش عليا ليه؟؟»

«ولا حاچة يمّا... خدي فريدة وروحوا معاهم... أنا ماليش كيف أروح ولا آچي»

«ليه بس يا حبيبي كفا الله الشر!؟انت على طول كده سرحان وهمدان... تكونش العروسة وشها وحش عليك؟ حكم فيه أعتاب تفتح أبواب الرزق، وأعتاب بعيد عنك وعن السامعين تجيب الفقر»

«يمّا... استهدي بالله... هي فريدة كانت عملت لك إيه!!؟ خليها في حالها... دي عروسة مبجالهاش يامين بس»

«وهي أمك لو محطتش نجرها من نجر مرتك، هتحطه في مين يعني!؟ ما انت خابر الفولة، ولا إيه يا رشاد يا ولدي؟»

«قصدك إيه يا حاج محمود؟؟إني ولية بتتشاكل مع دبان وشها»

أخذ يعد حبات مسبحته مغمغمًا: «لا.. لا سمح الله... أنا راچل مفتري وانتي ملاك نازل من السما»

«الله يمسيكي بالخير يا سمحة يا بنتي... كانت هي اللي بتقف في صفي»..

بعد خروجها الصاخب، عم الهدوء المكان إلا من حبات سبحة الحاج محمود الواحدة تلو الأخرى... انحنى الرجل الأكبر سنًا هامسًا لابنه:

«مالك يا رشاد؟؟ معچبنيش حالك اليامين دول... مرتك مكدراك في حاچة؟؟ ولا الچوازة مش على هواك؟؟انت خابر يا ولدي كلاتنا كنا تحت رحمة مخفي الاسم زيدان»

«لا يابوي.. اطمن.. فريدة زينة»

«لا يا ولدي... أنا مش مرتاح... اللي عملته جبل الزواچ، وعنادك اللي مشايفش له عازة، مخليين الفار يلعب في عبي»

وقف رشاد متعصباً يخفي ارتباكه:
«يوه يابوي!! مجلتلك، مافيش حاچـة... هو انتم عاوزين تكدروني بالعافية!؟آني خارچ ويمكن أتوخر»
«هتفوت مرتك يا ولدي وهي لسة مسبعتش!؟ كت روح معاهم»
لوح رشاد بيده وتلفع بكوفيته مزمجراً وهو يصفق الباب خلفه:
«يوووووه... هي شغلانة معتخلصش»
«لا حول ولا قوة إلا بالله»
خرجت زينات تسأل زوجها بدهشة:
«هو رشاد راح فين؟؟»
مهموماً أجابها وحبات السبحة تتسابق بين أصابعه: «والله مخابرش يا أم رشاد... الواد اتبدل بين يوم وليلة»
«لا يا حاج... ابنك معموله عمل.. أيوه والمرسي أبو العباس معمول له عمل سفلي... هي مافيش غيرها الخوجاية الصفرا الغيارة اللي تندب في عينها رصاصة... هي اللي عملتله العمل»
«وهي الخوچـاية هتعرف تعمل الأعمال يا زينات!؟ يا ولية كبري عجلك»
«دا الخوجات دول يا حاج محمود هم أس البلاوي كلها... تلاقيها عاملة للواد عمل على ضهر سمكة، وخلت البتاعة بنتها رمتها في بحر البلاد البعيدة دي اللي كانت فيها، علشان منعرفش نمسكها أبدًا ونفك العمل... يا ميلة بختك يا بني يا حبيبي!»
«لا حول ولا قوة إلا بالله... ربنا يهديكي يا زينات»
لم تسمعه وهي تغلي من التفكير، ثم هتفت:
«مافيش غيرها أم الكرامات... بركاتك يا أم العواجز!»
«مين دي يا ولية يا خرفانة انتي!؟»

«هو في غيرها يا حاج!؟ الشيخة سلطانة... ابني بيضيع مني يا حاج محمود ولازم نشوف له حل»

«اتجي الله يا ولية وجومي صلي ركعتين لله يمكن يغفر لك... وإن شاء الله ربنا فرچه جريب... وچهزي حالك، وجولي لفريدة كمان تچهز علشان نروحوا نباركوا لبت أخوي... وبالمرة نعدوا على سمحة نودوا لها السبوع بتاعها»

لوت فمها يمينا ويسارًا وهي تشير لأعلى:

«إلا هي المحروسة أهلها من يوم ما زارونا في الصباحية، محدش جه ونقطها بجنيه!! هم ما صدقوا خلصوا منها ولا إيه!؟»

«يا ولية حرام عليكي اتجي الله، البت منكسرة ويتيمة الأم، وتعتبر يتيمة الأب... خديها تحت چناحك هتكون مداس في رچلك، وبطلي شغل الحموات ده... هجوم أصلي ركعتين لله ربنا ياخد بيدك... استغفر الله العظيم... ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا».

مكتفية بما سمعت، ركضت عائدة لغرفتها... وقفت خلف الباب تستند عليه، تعتصر عينيها بقوة متوسلة دموعها ألا تخذلها... بأنين ناحب أخذت تكتم شهقاتها، ابتعدت عن الباب بعد أن أوصدته، وركضت لأقصى الغرفة تجلس القرفصاء في الزاوية، تضع رأسها بين ركبتيها كي لا يسمع أحد نشيجها... تجاهلت الطرقات على الباب وصوت حماتها تناديها... بعد عدة لحظات يئست من ردها، فألقت شتيمة على مسامعها وذهبت.

تعرف ما يقال عن المتصنتون، ولكنها لم تقصد أبدًا التصنت، خاصة هذه المرة؛ كانت قد استعدت للخروج معهم عندما أوقفها سماع اسمها يتردد بينهم، وجدت نفسها تتجمد مكانها، وهم يتحدثون عنها وعن يتمها، وأهلها الذين جاءتهم الفرصة ليتخلصوا منها... وكانوا محقين في ظنهم... ماذا لو عرفوا أيضًا أن رشاد لم يلمسها أبدًا؟؟ ولو عرفوا أن الشك يساوره في علاقتها بحمادي؟؟

انهارت تلطم خديها كلما تمعنت في التفكير، لماذا لم يعطها حق البراءة حتى تثبت إدانتها!؟؟ لماذا حكم عليها!؟؟ لماذا كان قدرها أن تتزوجه هو!؟؟ الشاهد الوحيد على لقائها غير المخطط لحمادي... هل هو حظها العاثر فعلًا!؟؟ هل تكرهها الدنيا لهذه الدرجة رغم كل محاولاتها للتصالح معها!؟؟

❂❂❂❂❂

«وبعدها معاك يا حمادي!؟؟ مش طريجة شغل دي... بجالك سبوع وانت على دا الحال... بكفياك بجى يابو عمه، إحنا ورانا أشغال ورچـالة تجرجش الزلط، لو ملاجوش حاچـة ياكلوها هياكلونا»

نفخ دخان الجوزة من منخاريه، فانطلقا كعمودين من الدخان الأزرق سرعان ما تفرق فوق رأسه:

«عاوز مني إيه يا چـعيدي؟؟ ما تروح تشتغل ولا متشتغلش خصني أنا إيه!؟»

«إلا خصك دي!! دا خصك ونص، ولا انت ناسي إنك سيد الـچـبل دا كلاته!؟ الشورة شورتك والرأي رأيك... ولا إيه يابو عمه؟»

«أستغفر الله العظيم... يا چـعيدي جلت لك بدل المرة مليون خليني في حالي... مش طايج خلجاتي... مش طايج الهوا اللي بيدخل خاشمي.. ومش طايجك ولا طايج الـچـبل ولا الرچـالة... هه هتعملوا إيه بجى؟؟»

« دا انت حالتك صعيبة جوي يا ولداه... جولّي يا حمادي وچـيب من الآخر... مين اللي عاشجها، ومطيرة النوم من حبابي عينيك؟؟ جولي وأنا أچـيبهالك عشية راكعة على مداسك، وملك إيديك»

«خلاص!؟ عملنا كل حاچـة عفشة في الدنيا دي.. مابجيش غير خطف الحريم كمان!؟إحنا وصلنا للوساخة دي يا چـعيدي!؟ للدرچـة دي!؟»

«النغمة دي معاچـبانيش يا حمادي... تكونش ناوي تتوب يابوعمه؟»

أعاد رأسه ليريحه على الجدار الصخري القاسي متأوهًا: «يا ريت كان ينفع! يا ريت! والعجيب إن اللي كت ناوي أعمل إكده عشان خاطرها... اتجوزت وبجت تحت طوع راجل غيري»

ردد جعيدي: «اتجوزت!!؟ مين دي؟؟ تكونش واحدة من البنتة اللي اتجوزوا في اليامين اللي فاتو؟؟ كت حاطط عينك على مين؟؟ من الرحايمة ولا من البداري؟؟»

«مش مهم... خلاص.. الحلم راح يا جعيدي... راح»

«اسمعني وافهمني يا حمادي... بس عاوزك تفكر بعجل ابن الليل اللي بيوزن بلد بزيها... بلاش تفكر بعجل العاشج... فاهمني يا خوي؟»

«عاوز تجول إيه خلصني؟»

«اسمعني وطجطج ودانك... وأنا هجولك تعمل إيه»



«أنا مش هنزل»

التفت لها مقطبًا حاجبيه ليلتقيان بزاوية حادة في المنتصف: «ليه إن شاء الله!؟»

«مش بالمنظر دا»

أدارت وجهها ليراه متورمًا بشكل مقلق... اقترب منها.. لاحظ إجفالها، تأثير ألمها كان كالحمض الحارق على قلبه.

طرقات على الباب أجفلتهما.. تبادلا النظرات القلقة... وجاء صوت أمه ليزيد الطين بلة:

«رافع... رافع يا ولدي... صباحية مباركة يا عريس... صحيتوا ولا لسة يا ضنايا؟؟ نوم العوافي يا حبيبي... صحصحوا يا عرايس، أهل مرتك وصلوا ومنتظرينكم في المُندرة»

اتسعت عيناها رعبًا:

«لو حد شافني بالمنظر دا هيقولوا إيه!؟؟ أكيد هيتهموك انت»

«إيه!!؟ نعم نعم!!؟ هو انتي مش جاية من داركم بالمنظر ده!!؟»

«ماهو.... ماهو...»

استعجلها بغيظ: «ماهو.. ماهو إيه؟؟ انطجي!»

«ماهو محدش شافني... غير هنّا»

مسح وجهه بيده، وأنفاسه تتردد بصعوبة، يفكر بمخرج للورطة.

«ما ينفعش متخرچيش... يمكن يفتكروا إني جتلتك... وإن چيتي للحج هو دا مرادي دلوك... مرتين يا زينة توجعيني في مطب، وكل مطب ألعن من اللي جبليه.. وفي المرتين مكونش عملت حاجة... جولي لي لو مكاني تعملي إيه؟؟»

ارتفعت حواجبها وعضت على شفتيها:

«بصراحة مش عارفة»

دار حول نفسه يصفق بيديه هادرًا: «يا مثبت العجل والدين!»

أطرق لحظات، ثم عادت الطرقات على الباب فصرخ بحدة: «خلاص يما... عرفنا... خلاص!!»

رفع رأسه من بين أفكاره، ليتوه في بحر نظراتها الضائعة بين ملامحه... ربما أفلتت دقة من دقات قلبه على حين غفلة منه... هل هي بكل هذا الضعف الذي يوحي به جسدها الرقيق؟؟ أم بتلك القوة التي تشع من تلك النار المتقدة بشعرها؟؟ بلمسة كجناح الفراشة لمس جرحها وسألها برقة لم تتوقعها:

«بتوجعك؟؟»

جف ريقها وهي تومئ بخفة، فهز رأسه:

«خليكي هنا... أنا هنزل لهم... وهبعت أمك وأختك بس... ماشي؟ وعلى فكرة.. فيه مسكن للألم في درج التسريحة... بعد ما تفطري خدي حباية ونامي»

أخذت نفسًا عميقًا بعد خروجه... ولكنها ظلت ساهمة في رقته. هزت رأسها بقوة لتفيق من تأثيره المدمر: «وبعدين معاكي يا زينة!؟؟ما تنسيش... رافع رجل صعيدي مش ممكن هتتقابلي معاه في طريق واحد... مهما كان رقيق... ومهما كان راجل بجد... ومهما كان....

طرقات على الباب أوقفت أفكارها، لتجد نفسها منقطعة الأنفاس، وقد ضبطتها تفكر بزوجها مرة أخرى... ركضت إلى الباب تفتحه وتلقي بنفسها بين أحضان أمها منتحبة: «ماما.. خديني من هنا... مش عاوزة أقعد ولا دقيقة واحدة»

دفعتها فاليريا ودخلت مع هنّا، أغلقت الباب لتسألها بقلق: «ليه زينة هبيبي!؟؟ مون ديو!! إيه جرى لوشك زينة!؟؟ رجل صئيدي متوهش دا أمل إيه؟؟»

التقت نظراتها بهنا، التي عضت على شفتيها:

«ماما اهدي... مش رافع اللي عمل كده... أنا هقولك»

واستمعت فاليريا، لتصيح بانفعال:

«سمهة أمل كده!!؟ ليه مجنونة دي!؟؟»

«مش عارفة»

«أنا هشوف شغلي مآها... طب انت آاوز تروّه ليه؟؟ رافه دايك انت في هاجة؟؟»

«بالعكس... رافع رجل محترم أوي... ورقيق أوي... و...»

صاحت هنّا ضاحكة: «حيلك حيلك... لأخطفه منك وأتجوزه أنا!»



۞ ١٠ ۞

«الحب هو اللعبة الوحيدة التي يشترك فيها اثنان، ويكسبان فيها معًا أو يخسران معًا»
ـ بيرون

....

«زينة... زينة... لوسي بيكلمك وانت مش بترد أليه... البنت هزين كتير»
انتبهت زينة لابنتها المتعلقة بعنقها، وآثار الدموع معلقة بأهدابها الصغيرة... ضمتها لصدرها بقوة لتجهش هي الأخرى بالبكاء... رفعت الصغيرة يدي أمها عن وجهها ومسحت دموعها بكفيها الناعمتين:
«ماما... انت أيط ليه؟؟»
مسدت على شعرها الأشقر المتناثر على كتفيها كسنابل القمح الذهبية، وتماسكت قائلة بنبرة خافتة:
« ماما تعبان شوية لوسي... روحي العبي مع هَنا... وأنا هغسل وشي وأحصلك»
«داكور ماما»..
راقبتها تركض حتى غابت عن عينيها، ثم نهضت بعصبية:
«لازم أرجع المستشفى... مكانش ينفع إني أرجع البيت وهو هناك بين الحيا وال....!!»
أجهشت بالبكاء مرة أخرى وهي تكمل بصوت مخنوق:«بين الحيا وال... موت!»
نظرت لأمها الملتاعة على حالها وصرّحت:
«ماما... أنا مش هقدر... لو رافع جراله حاجة أنا هموت»
«شر بئيد زينة... بلاش تكولي كلام أبيط...»

«ماما... خدي بالك من لوسي... أنا هروح المستشفى.. مش قادرة أقعد... لازم لما رافع يفتح عينه يلاقيني معاه»..

«استني زينة.. سيف يوصلك.. هو راه يجيب هاجة ولما يرجـ...»

«لأ مش هقدر أستحمل ماما... لازم أروح حالًا»

دخلت المستشفى بركبتين مترهلتين من الخوف والقلق... اتجهت فورًا لغرفة العناية المركزة... تجاهلت أقرباءه الجالسين مكانهم وكأنهم زرعوا في مقاعدهم ولم يحن أوان حصادهم... عادت تلوم خضوعها لتوسلات لوسي كي تراها.. هي التي لم تفترق عنها يومًا واحدًا منذ مولدها... فجأة تجد الصغيرة نفسها وحيدة بدون أمها، التي لم تفارقها لحظة واحدة من يوم مولدها... وقفت أمام النافذة الزجاجية تكاد تعانق رجلها المسجي على فراشه لا حول له ولا قوة، تحيط به أنابيب كثيرة تخرج منه، وتدخل إليه.

«إن شاء الله هيوبجى بخير يا بت عمي»

التفتت بعينيها المغرورقتين بالدموع، ترى سمحة بملامحها الجميلة الطيبة التي اشتاقت لها كثيراَ... أشارت زينة لبطنها المدور الكبير:

«انتي بس إيه اللي جابك!!؟ وجاسر إزاي يوافق!!؟»

اختلست سمحة نظرة محتقرة للرجل المتابع الموقف بجوارهما، ثم ربتت على ذراع ابنة عمها:

«يوافج ولا ميوافجش... وهو كان صالحه بيا إيه!!؟»

شهقة ست الدار في الخلف وصلت لمسامعهم:

«شوفي البت جليلة الحيا!! صوح الطبع غلاب، وهي هتـچـيبه منين... ماهي بت زينات البحراوية»

التفتت سمحة تصيح بصوت عال:

«ما تلمي نفسك يا مرا انتي، ولسانك اللي عامل زي الفرجلة ده!! وماتـچـيبيش سيرة أمي على لسانك الزفر، أحسن واللي خلج الخلج لأخلع اللي في رچـلي و....

«سمحة.... لمي الدور!!»
التفتت سمحة للصوت الخشن... أنكرت على نفسها شوقها، لكل نبرة ولكل نفس، وهي تمسك بصدر ثوبها وتبصق فيه قائلة بصوت ملاوع:
«تف تف تف... خوفتني يا چاسر! لا سبع بصوح... شوف ركبي بتخلخل من مكانها كيه!؟»
قطع المسافة بينهما بخطوتين فقط، وهو يجذب ذراعها بخشونة ويهزها بقوة:
« جسمًا بالله العظيم، لو ما لميتي نفسك وعاودتي لدارك!!»
شهقت تقاطعه وهي تنفض ذراعها منه:
«هتعملي إيه يا چاسر!!؟ هتعملي إيه يا راچلي يا بتاع الغوازي!!؟
وبدون أن يشعر، رفع يده عاليًا يطيح بكلماتها المسمومة عن فمها في صفعة، أفقدتها توازنها، لتسقط على ظهرها بصرخة أدمت قلبه... ركضت زينة نحوها تحاول رفعها وهي تشزره بنظراتها، وكان لا يزال ينظر ليده المرفوعة، وكأنه يستجوبها.. كيف طاوعته!!؟؟ ولم يفق إلا على صوت زينة تصرخ:
«جاسر... سمحة مش بترد.... حد ينادي على الدكتووووور»
مذهولًا أخذ يجيل النظرات بين زينة وزوجته الفاقدة الوعي بين ذراعيها... ركضت الممرضات يتسابقن في الوصول إليها، ثم أفسحن الطريق للطبيب، ولكن جاسر اعترض طريقه:«لو سمحت... أنا ماعايزش راچل يكشف على مرتي»
ألقى الطبيب نظرة خاطفة على زوجته على الأرض وحاول دفعه:
«هو لسة فيه حد بيفكر كده!!؟ ابعد عن طريقي يا بني آدم.... انت عاوز تفقدها!!؟ مراتك واضح إنها حامل في شهورها الأخيرة... ابعد عن طريقي أحسن أجيبلك الأمن»

أجالت زينة النظر محتدة بينهما لا تصدق ما يحدث، وقفت تدفع جاسر من صدره بغل وحقد شديدين حتى أبعدته عن طريق الطبيب، دون أن تترك له الفرصة ليتجاوزها:

«انت إيه!!؟ جنس جبلتك إيه!!؟ الشر اللي جواك دا مالوش نهاية!!؟انت عاوز إيه!!؟؟ حرام عليك مفيش في قلبك رحمة!!؟ مراتك هتموت، وانت كل اللي بتفكر فيه كلام فارغ مرتبط بعقليتك المريضة، وعنجهيتك الفارغة... لكن حياتها وحياة ابنك اللي في بطنها مش مهم... سلامتها وصحتها... مش مهم... يا أخي ارحم وملكش دعوة برحمة ربنا »

«ما توجّفي المدافع اللي مطلوجة من خاشمك دي بتزوف اللي جدامها!! انتي مالكيش كبير يا بت انتي!!؟»

التفتت زينة لأم زوجها وحدجتها بنظرة قاسية:

«لو ما كنتيش في مقام أمي، كنت عرفت أرد عليكي.. ولو مكانش اللي مرمي جوة دا ابنك وراجلي... كنت بردو عرفت أرد عليكي»

وأعادت انتباهها لجاسر:«لما تغسل نفسك من توب المسترجل عالفاضي، وتلبس توب الرجالة اللي بحق... توب الراجل فيه مش بشنباته، ولا بصوته اللي يفلق الجبل نصين... الراجل بأفعاله، بحنيته على مراته... بتفهمه لضعفها مش استغلاله... يمكن لما يحصل كل دا... يمكن سمحة تقدر تسامحك... ويمكن وقتها تستحق إنك تكون أب بجد.. عن إذنك»

بحثت عن الممرضة، التي أشارت لها على غرفة سمحة... اتجهت إليها من فورها تحاول التقاط أنفاسها بعد المواجهة الصعبة مع جاسر.

راقبها جاسر تتهادى بخطواتها الرشيقة، رغم انتفاضها بالغضب.

«يا حيف على الرچـالة!! انت هتخليها تنفد بجلة أدبها!!؟ انتم چـرالكم إيه يا رحايمة!!؟ خلاص بنات البداري لبستكم طرح!!؟»

«مالهش عازة الحديت دا يا مرت عمي... لكل حادث حديث... بعدين نبجوا نشوفوا الحكيوة دي»

«رايح فين يا چاسر؟؟»

«هطمن على مرتي وابني يا مرت عمي... ولا رچالة الرحايمة مبيطمنوش على حريمهم!؟»

برمت شفتيها وهي تشيح بوجهها ترغي وتزبد بكلمات غير مفهومة.

سألت الطبيب بلهفة:

«طمني يا دكتور.. سمحة عاملة إيه؟؟»

«اطمني يا مدام... الحمد لله هي والجنين بخير»

«الحمد لله... شكرا يا دكتور... وآسفة جدًا على اللي حصل حضرتك عارف المخ الصعيدي»

«مفهوم طبعًا... إحنا متعودين على كده في شغلنا في البلد دي... بحييكي على موقفك؛ مش كتير يقدروا ياخدوا موقف شجاع بالشكل دا»

«سمحة بنت عمي... وأمانة في رقبتي»

بعد خروج الطبيب اقتربت من ابنة عمها النائمة:

«سمحة.. يا سمحة»

بدون أن تفتح عينيها تمتمت بصوت خافت:

«أنا صاحية يا زينة... وبخير اطمني... ورشاد كمان بخير»

ووضعت يدها على بطنها، ودموعها تسيل بغزارة من بين رموشها.

وضعت زينة يدها عليها:

«خلاص.. أنا هروح أطمن على رافع، وانتي ارتاحي... همر عليكي بعد شوية»

أوقفها نداء سمحة المختنق بالنشيج:

«زينة... سامحيني... ظلمتك كتير يا خيتي»

ضمت زينة شفتيها وأومأت بهزة خفيفة من رأسها، قبل أن تغادر الغرفة لتصطدم بجاسر... أمسكت بمقبض الباب بقوة رافضة التنحي عن طريقه... وضع يده في صديرية جلبابه: «وسعي من طريجي!»

عقدت ذراعيها على صدرها بتحد مماثل:

«وإن موسعتش هتعمل إيه؟؟»

لف رأسه بحركة دائرية:

«أستغفر الله العظيم... اجصري الشر يا بت الحلال، وخليني أشوف مرتي وابني»

«دلوقتي بس فاكر إن ليك زوجة وابن!؟»

«اسمعي يا زينة... أنا معدخلش واصل في مصالحك مع رافع ولد عمي... وماعايزش حد يدخل بيني وبين مرتي»

«ودا من امتى!!؟ من يوم ما اتجوزت وانت كل اللي شاغلك تخرب علينا حياتنا.. ليه معرفش! لما حياتك هي اللي خربت»

«خلاص خليني أحاول ألمها.. واجفة في طريجي ليه!!؟»

«مش مصدقاك... مش شايفاك اتغيرت»

«سمحة جوية وتجدر ترفضني تاني.. معادتش بسة مغمضة... ولا انتي مشوفتيش بت عمك، من شويتين بس كانت واجفة كيه اللبوة اللي هتنهش بسنانها للي يجرب منيها!؟»

«طبعًا شوفتها لما إيدك طيّرت وشها، وكنت هتتسبب في موت ابنك قبل ما يشوف النور ولا... »

صوت ضعيف متقطع نبهها لنداء سمحة، فأعادت فتح الباب واستمعت لابنة عمها بغيظ:

«خليه يدخل يا زينة... أنا عاوزاه.. وخلينا لحالنا لو سمحتي»

رمقها جاسر بنظرة انتصار وهي تتيح له الدخول.

التفت بنفس نظرة الانتصار لسمحة بعد تأكده من إغلاق الباب، لتموت فورًا في مهدها، عندما قذفته بطلبها غير المتوقع:«طلجني يا چاسر »
وقف مذهولًا لا يصدق ما يسمعه... هل هي سمحة التي يعرفها تعشق تراب قدميه!!؟؟ هل تطلب منه الانفصال الرسمي بكلمة واحدة، بكل هذه السهولة والجبروت!!؟؟ كيف طاوعتها شفتاها!!؟؟ كيف طاوعها قلبها العاشق!!؟؟ كيف!!؟؟
دخل في دوامة الذكريات، يندم على كل لحظة مرت بدون أن يقدر هذا العشق النادر.

❂❂❂❂❂

«توّك اتفكرتنا يا زين الرچال!؟»
«بجولك إيه يا نوار... أنا چاي الخيش ده عشان أنبسط وأفك عن نفسي هبابة... لو لجيت الچو ملبش والريج ناشف... هشوف لي موطرح تاني... وانتي ست العارفين... بدل الموطرح هلاجي ألف»
هتفت مجبورة وهي تغمز بعينها بقوة وتنغزها في خصرها اللعوب:
«خلاص بجى يا نوار.. استهدي بالله يا بتي.. روحي وضبي المجعد لزينة الرحايمة.. يلا همي يا بت»
«حاضر يا خالة... لمّن نشوفوا أخرتها إيه؟»
التفتت مجبورة لجاسر، الذي تمدد على المجلس وتوكأ على المسند يزغرها بلامبالاة:«متواخذهاش يا سيدي البيه... هي واخدة على خاطرها منيك حبتين»
«ليه إن شاء الله!؟ مكونش غلطت في حضرة الهانم بت بارم ديله وأنا مخابرش!؟»
همت مجبورة بالحديث، عندما دخلت نوار تلقي بالجوزة المشتعلة جمراتها أمامه، قائلة ويداها تتراقصان مع خصرها بميوعة:
«لا العفو يا سيدي البيه.. هو إحنا كد المجام العالي!؟ وإحنا اش وصلنا للعلالي»

رمق عصا الجوزة الملقاة جواره، وأشار بطرف عينه: «بطلي جلة حيا وناوليني الـچـوزة»
بصوت مائع بالمواكبة مع خصرها الراقص:
«معلهش.. متواخذنيش... أصل يدي بتوچـعني»
أعطى إشارة لمجبورة ففهمتها.. تسللت بخفة لا تتناسب وكتلات الدهن التي تهتز مع حركتها.. ثم ربت بيده على المسند جواره:
«اجعدي چـاري يا نوار، واستهدي بالله يا بت الناس... مش هيوبجى انتي وزيدان الزفت والزمن الأغبر!!»
تابعت بميوعة وهي تجلس حيث أشار:
«لا لا.. معجولة!؟ لساك عريس على الزمجنة دي... إيه العروسة مـچـتش على هواك!؟ دا حتى بت البداري مزيونة»
تأوه وهو ينفخ الدخان من منخاريه وفمه:
«إيوه يا نوار... وهي مزيونة بعجل!؟ الشعر الإحمر والعيون بلون السما والجوام... يا بوووووي!»
«واه!! كنك بتحكي عن واحدة تانية غير مرتك... لاه لاه... معجولة!؟ عشجان مرت واد عمك... بت الخوچـاية!؟»
زغر لها بعينين تطقان شرارًا:
«ضبي ساكتة... وجلّبي فحم الـچـوزة.. بجت باردة كيه اللي عملتها»
ازدادت اقترابًا منه تتنفسه قائلة بصوت مبحوح:
«بحبك يا چـاسر... ليه محاسسش بيا!!؟ ليه اتـچـوزت غيري!!؟ ليه يا چـاسر دنا كت هوبجى طوع أمرك... مداس في رچـلك... عمري ما كت هكسرلك كلمة واصل... وعمرك ما هتكون زمجان مني»
«انتي بتخترفي بتجولي إيه!!؟ انتي واعية يا بت.. ولا شربانة لك حاچـة صفرا من هباب البرك اللي بتطفّحوه لمساطيل آخر الليل!!؟ فوجي يا نوار... اللي زيك يا بت

الغجر أولتها وأخرتها، جعدة حلوة... كلمتين ناعمين... يمكن هزتين وسط مع تعميرة موكن، وبعدها تتلايمي على عرجك ويا دار ما دخلك شر.. اللي يبص لفوج تنكسر رجبته... واعية لحديتي؟؟ معايزش أعيده تاني... وإلا جسماً بالله معتشوفيش خلجتي حداكي تاني.... مسمعتش ردك»
أجابته بانكسار: «أمرك يا سيدي البيه»
«زين... جومي اتهزي حبة، خلونا نمخمخوا الحجرين»
«حاضر... أمرك يا سيدي البيه... على كد ما تدفع هتاخد»
وبانكسار أخذت تتلوى على دقات قلبها الحزين.

راقبته بغل، تطحن منديل رأسها الذي سحبته عن خصرها بين يديها، يعتلي سيارته الفور باي فور، والتي زمجر محركها بخشونة نبأت عن ثقل قدم سائقها، بعد سهرة مشبعة بالدخان الأزرق.
«استهدي بالله يا نوارة يا بتي... أخدان الحج صنعة»
التمعت عيناها بشرار الغيرة: «مجدراش يا خالة!! النار جايدة في چـتتي!! كل ليلة يهملني ويروح ينام چـارها!!»
ربتت مجبورة على ظهرها:
«المهم إنه لسة مهملكيش يا مخبلة... موكد بت البداري مش مالية عينه الفارغة... وهنا ياچـي دورك... هملي الغيرة، والهرية، والنكتة دي... معتوكّلش عيش حاف... وفكري في مستجبلك... مش بيجولك العبرة بالخواتيم؟»
«لو تعرفي يا خالة، يا ريت كان المشكل في مرته؛ أهه على جولك مش مستعنيها، وكل ليلة سهران في حـچـر نوارة... المشكل في اللي عاشجها ومطايلهاش، هي دي اللي سارجة عجله صوح»
«ودي تكون مين يا نوارة؟؟»
«بعدين يا خالة... بعدين هجولك.. هو فيه سر بيتخبى في الصوالحة!؟»

«خلاص خلينا في اللي جدامنا... كل ليلة بياچـي فيها يسهر حداكي، اربطيه بيكي، كنها فروچـة وباضت لك بيضة دهب يا مخبلة»

شردت في كلام خالتها متمتمة:

«كنه صوح الحديت يا خالة... صبرك علي يا چـاسر... إما شعلجتك في هوا نوار لحد ما تجول حجي برجبتي!! هتروح مني فين!؟»

۞۞۞۞۞

دخل بيته مترنحًا مدندنًا لحن أغنية... وقف فجأة محدقًا بها تقف بمنتصف الغرفة، عاقدة ذراعيها على صدرها تحدجه بقرف:

«حمد الله على السلامة.. كنك فوتّ صلاة الفجر.. ولا صليتها حاضر في الجامع!؟»

نزع عمامته عن رأسه يحاول التركيز، كأنه لم يتعرف عليها بعد:

«بعدي.. بعدي من طريجي!»

«مش هبعد يا چـاسر... والمخروبة اللي كت سهران فيها لحد دلوك تجدر ترچـع لها وتنام فيها»

«انتي اتخبلتي يا بت!؟ بتطرديني من داري!!؟»

طاشت يده في الهواء مترنحًا قبل أن تصل لوجهها، ازدادت نظراتها استهزاءَ:

«لما تعرف تصلب طولك، اوبجى تعالى علمني الأدب»

وابتعدت عن طريقه في آخر لحظة قبل هجومه المتجدد، ليصطدم رأسه بحافة المقعد الأسيوطي، قبل أن يسقط هامدًا على الأرض بدون حراك.

كادت تضحك من منظره المثير للسخرية، عندما لاحظت بقعة الدماء تفترش الأرض أسفل رأسه.

صرخت مولولة مذعورة، جلست جواره ترفع رأسه الجريح تضمه على صدرها، تتوسله أن ينطق ولو بحرف.

فوجئت بشفتيه المقوستين تنفرجان عن ابتسامة، متمتماً بدون أن يفتح عينيه:

«خديني في حضنك يا زينة.. اتوحشتك جوي جوي»
زمت فمها، ونهضت لتسقط رأسه على الأرض مرة أخرى دون أن تبالي بأنينه... وقفت فوقه تركله بقدمها بغل شديد: «إن شاء الله تموت انت وهي... ومهنخدوش فيكم عزا... بس هه!»

❂❂❂❂❂

«صبرني يا رب! جال أصوم أصوم وأفطر على معالي! أعوذ بالله منك مرا، مبتبطليش نج نج... عمال على بطال.. انتي إيه مولودة نجاجة!؟»
«دي اللي هي أنا يا سيف!؟»
«فيه حد غيرك مصدع راسي من طلعة الشمش بالنج والنجيج!؟»
«ليه خير إن شاء الله!؟ كفرت يعني ولا كفرت لما أعوز أزور أهلى!؟»
«تزوري أهلك!؟ ولا حبيب الجلب اتوحشك؟»
بابتسامة زادت من جنونه:
«رافع ولد عمي... لو دفنتني في جبر، وجفلت عليا بمليون جفل، معتجدرش تطلعه من جلبي واصل.... لو كت راجـل صوح مكتش اتـچـوزتني من أصله وانت خابر إني مخطوبة لولد عمي ورايداه»
لم يستطع السيطرة على غضبه طويلًا، أمسك شعرها يجذبه بقسوة هادرًا:
«ولو كان واد عمك راجـل صوح مكانش فرط فيكي... بس لما بجيتي بكفة وأرضه بكفة... أرضه هي اللي طبت، ووجعتي انتي في حـچـري يا معالي... ومن اليوم ورايح معايزكيش تطري سيرته نوهائي، لا بينا ولا حتى بينك وبين روحك»
حاولت صارخة تخليص شعرها من يده:
«شج جلبي وطالعه منيه... حتى دي متجدرش عليها... مش بجولك انت مش فالح إلا في مد يدك عليا وبس... هي دي المرچـلة صوح... اضرب... اضرب كمان يا سيف... علشان النار اللي كُتم رايدين تطفوها بـچـوازات الشوم دي، تشعلل وتولع في كل ديار الرحايمة والبداري.. أول نار هتجيد عند أختك... رافع أكيد

هيضربها زي ما بتضربني... وچاسر هيمسي سمحة بعلجة ويصبحها بعلجة، بعدها نفضوها سيرة وكل واحد يروح لحال سبيله»

تراجع عنها يحدجها بنظرة مستغربة... لاهثة مشعثة تشع عيناها بالكره الأعمى:

«نجوم السما أجربلك من اللي بتفكري فيه... انتي دخلتي بيتي ومش هتخرچي منيه إلا على جبرك... فكري مليح وشوفي عاوزة تجضي أيامك معايا كيه... نكد ولا زي مخاليج ربنا... وجسمًا بالله لو ما مشيتي عدل، وعلى مزاچي، لأتجوز عليكي يا معالي، مرى واتنين وتلاتة»

شاهقة تضرب على صدرها بقوة:

«انت!!؟ انت تتچوز عليا آني يا سيف يا بداري!!؟»

«عجلك في راسك يا بنت الناس تعرفي خلاصك.. أعاود آخر الليل ألاجي عروسة مستنياني، مش وش البومة اللي بتصبح وبتمسى بيها»

عدل من اللاسة حول عنقه، واشرأب به يرمقها بنظرات فوقية، مستمتعًا بغيظها وغلها الذي أخذت تذوي في بوتقته... ثم غادر الغرفة صافقًا الباب خلفه.

«طيب يا سيف... إما عرفتك مين هي معالي... ميوبجاش شعري دا على حُرمة!!»

❂❂❂❂❂

أغلق الباب دونها ووقف يرمقه بنظرة حائرة، وتنهيدة مزقت بعض نياط قلبه القاسي... سخر من نفسه وتهديداته الجوفاء التي أطلقها اعتباطًا، وكأنه قادر على تنفيذها فعلًا، وهو الذي لم يستطع نزع شبح ابن عمها من خيالها، ولا حتى استمالة قلبها.

اعترف لنفسه المكابِرة أنه دائمًا كان يتمنى زوجة كأمه... بنظرتها العاشقة لزوجها... كم راودت أحلامه تلك النظرة، وأقسم ألا يتزوج إلا من تحلم بوصاله وتعشق خياله! ضم أصابعه بقبضة قوية حتى ابيضت مفاصله... وتمتم بينه وبين نفسه:«هتعشجيني يا فرسة شاجة الريح من غير لجام... هعلمك كيه تاكلي من يدى، وترفعي عينك في عيني وتتمني رضايا»

حدقت بالباب المغلق.. تهالكت على فراشها لاهثة من المعركة المحتدمة داخلها... معركة لا يهدأ وطيسها... تحرق كل أخضر ويابس بطريقها... كما أحرقوا ينع قلبها الغض في أرضه، رووا مهدها بالأحلام، فرشوه بوعود وصال الحبيب وعشيق الروح... تأوهت تشد شعرها من جذوره، تكاد تصرخ بلسان أخرسوه بعقد زواج.. "آه يا عمري اللي ضاع في غمضة عين!! كيه بين ليلة وضحاها أكون ملك غيرك!!؟ وهبت لك روحي وجبل منيها عمري، سرجوني منك غصب...آه لو تعرف، انت وحديك في جلبي ساكن، مهمن طال البعاد، ولو سيلوا دمي يروي عطشهم للجسوة، هيلجوا كل نجطة فيه موشومة باسمك".

❂❂❂❂❂

«حمادي... حمادي...»

«خير؟ خبرك إيه يا چـعيدي؟؟»

«البصاصين اللي منطورينهم على طريج الـچـبل... بعتوا لي مرسال بيجولوا إن... إن...»

«ما تطرش اللي في بطنك يا چـعيدي ولا تغور من خلجتي»

«هجول أهه يابو عمه، مالك زمجان عمال على بطال إكده ليه!؟ بيجولوا إن فيه مرا... نضروها ماشية في طريج الديابا»

«يمكن تايهة ولا غريبة عن البلد»

«إيوه... ماهو ده اللي چـه في بالي، بس الويلد عرفوها... وطلعت مش غريبة زي ما فكرنا»

انتفض حمادي من مجلسه لا يصدق أذنيه، ولا عيني صديقه الملتمعتين ببريق الاحتفال، أمسك ذراعه يجذبه بحماس ثوري:

«هي يا چـعيدي... هي... جلبي مبيكدبش عليا واصل»

«إيوه... فرصتك يا حمادي... لو إني مش بالع چيتها دي... عروسة مكملتش شهر، چاية تعمل إيه في طريج الديابا لحالها؟؟»

«بعدين يا چعيدي... بعدين... كني عوجت عليها، أنا نازل لتزهج وتمشي، حاكم روحها دايمًا زمجانة، بس معلهش بكرة هتروج وتحلى... بجولك إيه... خلي رچالتك صاحيين وعيونهم مفنچلة»

غمغم جعيدي، وصاحبه يركض مسابقًا الريح:

«أمرك يابو عمه... ربنا يستر»

مسحورة؟ مجذوبة؟ أم ندهتها النداهة؟ كيف يحدث هذا في كل مرة تطلق لقدميها حرية التجوال بعيدًا عن قيود عبوديتها... تجد نفسها هنا... في طريق الديابا!! ما تزال كلمات حمادي ترن في أذنيها... تعرف أنها آمنة، ولم تدرِ لمَ وثقت بكلام رجل هو في الأصل قاطع طريق... ولكن الحقيقة أنها اشتاقت لغزله الجريء... اشتاقت لأن تدفعه عنها كلما ازداد تمسكًا بها... كانت بحاجة للشعور أنها مرغوبة حتى لو كان من رجل مطرود من دنيا البشر ومحسوب على ديابة الجبل.

«اشتجتيلي يا عمري، كيه ما جلبي اتلوع بفراجك؟؟»

استدارت شاهقة برعب، تدرك من أول لحظة لاهثة فداحة خطئها بقدومها هنا... لثّمت نصف وجهها بطرحتها تحاول تجاوزه بدون كلام. اعترض طريقها مقهقهًا:«على فين مهملاني وأنا ما صدجت جلبي دج من تاني؟؟ هو دخول طريج الديابا زي الخروچ منيه!!؟ طب خدي واچب الضيافة لوّل»

«بعد عن طريجي يا حمادي»

«يا بووووي! اسمي طالع من خاشمك كيف الكروان ساعة المغربية... اتوحشتك جوي جوي يا فريدة»

«كنّ أبراچ نافوخك طارت يا ويلد الديابا! بعِّد من طريجي! لهو انت مخابرش إني على ذمة راچل!؟ بعد عن طريجي خلى ليلتك تعدي»

«أنا مـچـيتش وراكي يا فريدة... انتي اللي رميتي حالك بطريج الديابة، كيه ما تكوني بتصرخي بعلو حسك: (خدني يا حمادي، أنا ملكك لحالك)... إيه!؟ رشاد البداري مش مالي عينيك ولا إيه العوبارة؟»

بصوت هادر لم تصدقه ولم يقتنع به:«رشاد بعشر رچـالة من طينتك»

«طبعًا... وش چـاب ويلد الأكابر لويلد الديابا!؟ هتصدجي لو جلتلك إني اتمنيت لك الخير؟ شيطاني وزني وكت نويتها أجتله جبل ما ينجفل عليكم باب واحد، بس خفت عليكي تنكسر فرحتك... لو كتي فرحانة... خفت من الخوف يهوّب حداكي جبل ما أوصلّك وأحميكي منيه، واتحملت بجلب اتعمى من ظلمك، وداب في عشجك، أشوفك تتزفي لراچـل غيري»

«لا انت بـچـد اتخبلت صوح!»

«من زمان يا فريدة وأنا مخبول بيكي وعِشجك بيسري في دمي كيه النار بيحرج چـوفي، وكان ممكن أجتل كل اللي يوجف بطريجي علشان أوصلك... بس انتي اخترتي... وبعيد عني طرتي ولوفتي على وليف غيري»

«هملني أروح يا حمادي واجصر الشر»

«المرة دي مش بكيفك... انتي برچـليكي چـيتي لحدي يا فريدة... مخابرش ليه... بس اللي أعرفه إني مجدرش أهملك تروحي من يدي مرة تانية»

«تجصد إيه يعني!؟؟حمادي بجولك هملني أفوت... انت متعرفنيش أنا ممكن أعمل إيه»

«انتي اللي لساكي بتكابري يا جلب وعجل حمادي... انتي چـيتي الليلة عشان جدرك تكوني معايا»

هل ما يحدث الآن حقيقة أم جنح بها خيالها لحدود ما بعد المعقول؟ هل سارت بقدميها هاربة من واقع أجهض كل أحلامها، لتقع في فخ حمادي!!؟

ازداد رعبها وهو يمسك بذراعها ويسحبها معه باتجاه الجبل.

أبعدت يده عنها بانتفاضة قوية وسمرت قدميها في اللأرض تحدجه بنظرات مرعوبة لاهثة:

«هملني يا حمادي، وإوعاك تستـچرى تمد يدك عليا مرة تانية!»

زفر بهواء ساخن خرج من جوفه الذي يغلي كالبركان: «لع يا فريدة... الدنيا بتضحك مرة واحدة بس في العمر... وأنا لو هملتك دلوك هندم عمري كلاته... انتي خلاص يا فريدة بجيتي حلالي... بتاعتي»

صرخت تضرب بقدميها في الأرض:

«انت سامع حالك بتجول إيه!؟؟ انت عاوز تفضحني!!؟ حرام عليك يا حمادي... حرام عليك بكفاية بجى بكفاية، أنا مرا متـچـوزة!»

اقتنص مرفقها مرة أخرى يطحنه بين أصابعه بينما يهدر بأنين معذب: «متكرريهاش جدامي!»

لاهثة حد الشعور باحتراق رئتيها، حاولت إبعاد يده عنها، ولكنه لم يفلتها ممعنًا في توصيل رسالته لها بأي طريقة، غادرت الكلمات حلقها الجاف بصعوبة:

«ولو مكررتهاش... هتنسى يا حمادي إني على ذمة راچـل تاني، تعملها ما انت ويلد ليل، ديب سعران... تسرج، وتكتل، وتخطف نسوان من رچـالتها كمان»

زمجر يهدر بوحشية: «انتي چـيتي لحدي برچـليكي يا فريدة!»

هدرت بصوت متهدج: «وندمانة... فكرت إني...»

ضاقت عيناه بسؤال تحرّق لسماع إجابته: «فكرتي في إيه؟؟»

قمعت رعشة أرجفت فرائصها وذاتها يذوي خلف قناع من الندم لتهورها: «خلاص يا حمادي... جلت لك ندمانة... فكرتك غيرهم، لسة فيك حاچـة نضيفة... أتاريك الوساخة لبدت في توبك من زمان»

ظللت عينيه غمامة سوداء رأت فيها ما جعلها تتيقن أن هذا الرجل عقد العزم على ما يعدها به، جذبها نحوه محدقًا بعينيها متمتمًا بنبرة سلطوية: «تاهت ولجيناها... أنا ويلد ليل... وانتي المرى اللي عاشجها، وبخاشمك نطجتيها... أنا

اتوسخت من زمان ومعادتش النضافة تـچيب همها معايا... وچعيدي جالها حكمة وأنا مصدجتوش... حبل المشنجة مبيفرّجش... النفر منينا هيتشنج مرة واحدة بس، همليني أعمل اللي نفسي فيه من زمان»

«جصدك إيه يا حمادي!؟؟»

أمسك بكف يدها يعتصره بين أصابعه الخشنة: «تعالي معايا وانتي تعرفي»

صرخت تقاومه باستماتة، تحاول دفعه تارة، ونزع ذراعها من بين أصابعه المطبقة عليها تارة أخرى... وصلت من الذهول لدرجة أنها ظنت كل ما يحدث حلم، لا يمكن أن يكون حقيقة... ووبخت نفسها لانسياقها خلف أهواء نفسها المريدة العاصية، لماذا لم ترض بقدرها، مثل كل فتاة صعيدية خاضعة!؟ لماذا كانت مطالبها أعلى بكثير من سقف طموحاتها الذي أحنى هامتها وكسر ظهرها!؟ وها هي على وشك الوأد حية بيد من ظنته يومًا خلاصها.

سالت دموعها تتوسل خاطفها ربما رق قلبه... ولكنه في كل مرة يسمع توسلها، يزيد من ضغطه على مرفقها، وكأنه يؤكد لها أنه لن يتركها أبدًا.

اعترضت الطريق عاصفة من الغبار أثارتها سيارة سريعة وقفت أمامهما مباشرة أخرج السائق رأسه من النافذة يحدجهما بارتياب مع هاجس مزعج أنه قاطع حدثًا هامًا، ثم سأل حمادي بلكنة غريبة:

«بونسوار... ممكن لو سمحت... فين طريق لبيت عائلة بداري؟؟»

حدجها حمادي بنظرة محذرة، ولكنها لم تمهله ليستعد؛ استغلت غفلته عنها للرد على الرجل، أفلتت ذراعها راكضة نحو السيارة تفتح الباب المجاور تهدر بصوت بالكاد مسموع، بل كانت على وشك فقدان الوعي لو أبطأ ذلك الغريب في فهم حاجتها الماسة للهروب:

«أنا هدلك... أنا ساكنة حداهم... يالا سوج بينا طوالي!»

صرخ حمادي صرخة اهتزت لها الأرض من أسفل قدميه، بعد أن أفاق من صدمته، لحق بها وحاول فتح الباب الذي أوصدته فور دخولها، رمقته بهلع لاهثة وهو يضرب سقف السيارة بقبضتيه بتهديد ووعيد:

«فريدة!! اخرجـي!! فريدة!! متهملنيش يا حبة الجلب، ما صدجت لجيتك، فرييييدة»

بنظرات متوسلة حدجت الغريب بدموع قهر خضع لها قلبه بدون أن يفهم ونبرتها الكسيرة ترجوه: «الله يستر عرضك اطلع بينا... بسرعة»

لم يكن من قبل مؤمنًا بصدف القدر، ولكن وجوده في هذه اللحظة ليلتقي بها، كانت علامة أكيدة أنه على الطريق للإيمان به. قبل أن يتمكن حمادي من كسر زجاج النافذة، انطلق بالسيارة مثيراً عاصفة أخرى من التراب، زادت من غضب الديب الأعمى، وهو يتخبط حوله ناقمًا على ضياع فرصة عمره.

استرق نظرة قلقة نحوها، عيناها دامعتان، زائغتان، صدرها يعلو ويهبط بأنفاس سريعة، ساوره شك أنها على وشك الإصابة بنوبة قلبية، خاصةً وقد ازرقت شفتاها لقلة الأكسجين الواصل للمخ: «انت كويس؟؟ مدام... مدام؟»

لم ترد.. كانت تنتحب في صمت، لا تصدق أنها أفلتت بأعجوبة من الفضيحة، والعار الذي كان سيسمها باقي عمرها... بفضل عناية الله ثم هذا الغريب، الذي نزل عليها من السماء لينقذها من براثن الذئب المسعور في اللحظة الأخيرة... لن تنس أبدًا عيني حمادي تندلعان بالشرار والسيارة تبتعد... لو كان يحمل بارودته معه لما نجت منه وهذا الغريب... هتفت بصوت مرتعش عندما أدركت أنهم وصلوا مفارق الطريق بين الرحامِة والبداري:

«وجِّف عنديك، إهنيه!»

أطاعها على الفور، نزلت وأغلقت الباب، انحنت لتنظر له من النافذة، لم تهتم لرؤيته دموعها، التي ماتزال عالقة بأهدابها الطويلة، وعلى الرغم من احمرارهما،

وكحلهما الملطخ، ولكنه فورًا وقع أسير اتساعهما كبحيرة صافية مترقرقة في يوم غائم.

انتبه على صوت زعيق خلفه، ليجد عربة كارو ترتفع فوقها حمولة من القصب، وصاحبها لا يبدو الصبر من شيمه. انطلق في طريقه بعد أن لوّح معتذرًا لتصدره الطريق بعد اختفاء حسنائه السمراء الباكية.

هل سمعها فعلًا وهي تصف له الطريق!؟؟ربما فعلت!!... ولكنه لم يتذكر كلمة واحدة... فقط حركة شفتيها المخمليتين... بدون أي حمرة وأصباغ، أطارت ما بقي من عقله، ومذاقهما الرائع يعيث فسادًا بخياله.

❂❂❂❂❂

وقفت تراقبه من بعيد هو وجواده كلوحة متقنة التفاصيل، وقد شكّلتها فرشاة سحرية من وحي الطبيعة. خافت على قلبها العليل من دقاته المجنونة... قاومته كثيراً وتهاب الاستسلام... خياراتها قليلة جدًا، وهو كرجل صعيدي لن يفهم مشاعرها، مقدار حاجتها للحب والرومانسية، حلمها وأمنية كل أنثى منذ تفتح برعمها للحياة.

فجأة قفزت صورة ضياء في خيالها... كان باهتًا ذابلًا بالمقارنة باللوحة الحية التي تصرخ بألوانها، هو وجواده كيان واحد خطف الأنفاس برشاقته... أخرجت تنهيدة بطيها أمنية ساذجة... لو يذوب ضياء ورافع في بعضهما... سيكون الناتج رجلًا خرافيًا!

بتنهيدة أخرى محبطة عاودتها ذكريات ما حدث بينهما في الفترة الماضية... ثلاثون يومًا عمر زواجها منه... لم تتخيل أبدًا أن يتخلى عن حقوقه الزوجية بهذه البساطة لمجرد إعلان رفضها له... كانت تستعد لنشوب معركة تدافع فيها عن حريتها واستقلالها، ولكنه أحبط كل استعداداتها، عندما أعلن بإباء وعزة نفس أنه يرفض أن يفرض نفسه حين لا يكون مرغوبًا. ازداد إعجابها الأخرس به، عندما

لم يطلع أهله على أي اتفاق بينهما، في حين استمر بلعب دور الزوج الحامي حتى من تحرشات حماتها المستفزة.
في المقابل، طلب منها أن تنتبه لملابسها، وأوضح أنه من الأفضل أن تستبدلها بملابس لائقة أكثر بامرأة متزوجة.
بعناد تذكرت سيف وهو يتشاجر معها لنفس السبب وبحجة مختلفة... مما زاد من إصرارها الرافض للخضوع. تحملت بتكلف نظرات أمه المنتقدة... والتي تعتقد أنها على وشك الانفجار بها في أي وقت... ولكن يبدو أن رافع يتحكم بصمامات أمانها. كانت على استعداد للمواجهة فوق أي أرض تختارها حماتها للمعركة... وكان تحرشها يتزايد في كل مرة تلتقي بها... تشعر بالتحدي البارد غير المنطوق يتصارع مع هدوئها المستقر... وفي إحدى المرات وقفت بطريقها تمنعها من المرور... أعادت زينة شعرها الأحمر المتطاير بأطراف أناملها المطلية وسألتها برقة:
«خير يا طنط... فيه حاجة؟؟»
اندفعت ست الدار:
«طنطا!!؟ طنطة إيبه دي!!؟ جوليلي (يا حماتي)... مش آني اوبجى أم چـوزك!؟ اوبجى حماتك... ولا انتي مستكبرة تجوليها!؟»
مطت زينة شفتيها بلا مبالاة مع هزة من أكتافها: «داكور... حماتي... كويس كده؟؟»
«وإيه داركور دي كمان!؟ انتي بتتنططي عليا بلغوة أمك اللي مفهمهاش دي ليه!»
«أقول إيه طيب!؟ حاضر يا طنــ.. قصدي يا حماتي.. حاجة تانية!؟»
مسحتها من قمة شعرها الناري، لبلوزتها الحريرية الكاشفة عن ذراعيها، وحتى بنطلونها الجينز الضيق، وأمسكتها من ذراعها:

«فرچيني كده على خلجاتك... يا ماشالله يا ماشالله! هي المحروسة أمك مشوّرتكيش!؟»

«يعني إيه مشورت.... إيه؟؟؟»

«جصدي يعني مچابتش خلجات چديدة؟ كل عروسة حدانا بتدخل بشوار چديد»

«آه فهمت... لبسي كله جديد يا طنـ... باردون... يا حماتي»

«وهو ده اسمه إيه!!؟ لا هتعرفي تعچني، ولا تخبزي، ولا تغسلي بخلجاتك دي»

«هو حضرتك قصدك كده؟؟ لا يا حماتي متقلقيش... كل الشغل اللي عاوزاني أعمله من عينيا... هكلم بابا يبعت شغالة لحسابي، تيجي وتعمل كل اللي انتي عاوزاه... حاجة تانية يا... حماتي؟؟»

وتركتها فاغرة فاها بذهول واكملت طريقها.

كانت ردة فعل رافع في المساء سيئة للغاية... دخل متبرمًا شرارات غاضبة تتطاير وتتقافز من عينيه... أدركت من اكفهرار ملامحه أن مشكلة ما على الطريق:

«في حاجة حصلت؟»

التفت لها بحدة:

«حوصل إيه مع أمي النهاردة يا زينة؟؟»

«محصلش حاجة... هي طلبت مني أعمل شغل في البيت، وأنا قلت حاضر... هكلم بابا يبعت شغالة تعمله»

«ودا معناتو إنك معملتيش»

«وكنت عاوزني أقول إيه!؟؟ أرفض وأقولها أنا في بيت أبويا مش بشيل المنديل من على الأرض!؟ احترمت كلامها وراضيتها»

«يا زينة، أمي تجدر تـچيب بدل الشغالة عشرة... بس هي بتحب تخدمنا بنفسها... لنها شايفة إن دا چـزء من واچـبها كأم وكزوچـة»

«بس يا رافع بيه أنا مش أم، ولا زوجة بالمعنى المفهوم اللي حضرتك بتقول عليه، ولّا حضرتك ناسي؟؟»

«لا... مش ناسي... يظهر حضرتك اللي نسيتي اتفاجنا، إننا نظهر طبيعيين كأي زوچين... بس اللي حوصل إني أنا بس اللي بتنازل يا زينة هانم، وحضرتك زي ما انتي مفكرتيش تنفذي بند واحد في الاتفاج، ولا حتى عشان تراضي ست كبيرة في مجام أمك»

عقدت ذراعيها على صدرها بعناد:

«أنا مش فاهمة لحد دلوقت فين المشكلة!... أنا مش متعودة أعمل الحاجات اللي مامتك بتقول عليها دي.... نقطة وخلص الموضوع»

«عنادك دا مش هيودر غيرك يا زينة»

«حضرتك بتهددني يا رافع بيه!؟؟»

«لا العفو... وأنا أطول!؟ بس افتكري الدبور اللي زن على خراب عشه»

وبخت نفسها لعنادها الأحمق الذي سيقضي على حلم رافع معها... وبعدها ستندم فعلًا لو قرر أن يغير معاملته لها...

مر يومان فقط على هذه المواجهة... خائفة من ردة فعله، وبانتظار هبوب عاصفته في أي وقت. اعتدلت في وقفتها عندما أخذ الخدر في أعلى ذراعها يزداد، وقد بدأت تصاحبه نغزة مزعجة في الصدر، مع ضيق في التنفس... كانت بوادر الأزمة تتصاعد، بينما انحصر تفكيرها في العودة بسرعة لغرفتها، قبل أن يلاحظها أحد...

كانت تختلس طريقها للعودة، عندما اعترض جاسر طريقها بنظراته الغريبة:

«سا الخير يا عروسة»

أجابته بتبرم وحاولت تجاوزه، ولكنه عاد ليقاطع طريقها:

«مستعـچـلة ليه!؟ ماحنا واجفين نتحدتوا!»

كانت تحاول إمداد رئتيها بالمزيد من الأكسجين كما تعودت، ربما مرت الأزمة على خير، غير واعية تمامًا لحديث جاسر وثرثرته.

انتفخت أوداجه برحيق الحياة، فقد كانت بعينيها المشعتين بزرقة بحرية منعشة، كشعاع شمس دافئة في يوم بارد... ذلك الشعور المبهج بالانتعاش مع الدفء والرغبة المتزايدة في احتواء الحبيب.

التهبت عيناه برغبة تأججت في أحشائه، لا تقارن بأي رغبة قد يكون شعر بها نحو أي أنثى، ولم يوقفه إلا فرسته الحمراء العنيدة؛ ما تزال لا تراه رجلًا كفاية ليمسك بزمامها... لقد وافقها على كل طلباتها على أمل أن تشعر مع الوقت بخطأ اعتقادها، ربما عندما تزداد معرفتها به... وتدرك من داخلها أنه فارس خلق ليفوز بها في كل سباق... انتبه لعودتها أدراجها بعد أن اكتفت بعرضه الذي كان حصريًا لها فقط.

لم يدر لم بدأ القلق ينخر أفكاره... حث جواده يقترب منها؛ فإحساسه بها لم يولد من فراغ... ولكن.. ما هذا الإحساس!؟؟ حث جواده على العودة عندما لاحظ بضيق جاسر يعترض طريقها... زم شفتيه بشعور مجهد من الغيرة لم يعرف مذاقه من قبل... ضاقت عيناه بقلق... كانت تترنح أمام ابن عمه اللاهي في التحديق في حمرة الشفق المشعة من شعرها.

زاد من سرعته عندما تهاوت على ركبتيها وهي ما تزال تحاول الثبات حتى تمر الأزمة؛ فهي معتادة على مثلها، ولكنها المرة الأولى التي تستمر كل هذا الوقت... تمنت بأنين خافت أن يكون رافع قد ذهب بعيدًا وجاسر يصيح بقلق مناديًا عليها.... خاب فألها عندما سمعت أصوات حوافر الجواد تقترب يصاحبها نداء صاخب باسمها.

حاولت النهوض وهي تكز على أسنانها بإرادة واهنة... قفز رافع على الأرض راكضًا نحوها الخطوات المتبقية، دافعًا ابن عمه بغيظ... لف ذراعه حولها يسألها بجزع: «زينة... زينة... مالك؟؟ جرالك إيه؟؟»
حاولت الإمساك بيده لتطمئنه بحروف متقطعة بالأنين لم يفهمها، فحملها يركض بها داخل البيت... استقبلته أمه بتساؤل:«حوصل إيه يا ضنايا؟؟ چرالها إيه مرتك؟؟»
«ما خابرش يمّا... فچأة وجعت من طولها!»
«لجحها إهنية يا ولدي في أي موطرح... هتكسر ضهرك يا حبيبي»
« يوووه يمّا ودا وجته!!؟ الحجي وناوليني تليفوني وحصليني بيه على فوج»
لحقته بصراخها:
«يا رافع.. هتطلع بيها كيه على السلم دي... تجيلة عليك يا ولدي!!؟ نزلها وهي تمشي لحالها كيه الجرود... يا رافع انت مستغني عن صحتك يا ولدي!؟ »
«خير يا حاجة.... بتزعجي ليه؟؟»
«شوفت يا وهدان... البت مسورجة ورافع جال شايلها على جلبه وطالع بيها السلم!! يا حبيبي يا نضري كان مستخبي لك فين دا يا حبيبي!!؟»
أسرع وهدان ليصعد السلم متمتمًا محدجًا زوجته بغضب: «أستغفر الله العظيم!! بدي أعرف اللي في راسك ده مخ ولا شوربة كوارع!؟»
«يوووه وانت رايح فين انت كمان!!؟ هي البت دي عاملة لكم عمل.. عملها اسود ومهبب بت الخوچاية؟؟»
دخل وهدان بعد أن تنحنح:«إحم إحم... خير يا رافع يا ولدي؟؟ مرتك عاملة إيه؟؟»
«شوفة عينك يابوي... أمي اتصلت بالدكتور؟؟»
انتبها لصوتها الخافت خلفهم:«لا... مفيش داعي للدكتور... أنا بقيت كويسة»
أسرع رافع نحوها يمس بيدها:

«صوح يا زينة؟؟»

«الحمد لله يا رافع... وألف مبروك يا ولدي»

التفت كلاهما لوهدان بنظرات استغراب:

«خير يابوي!؟ تبارك لي على إيه!؟»

ضحك بقهقهة وفخر:

«باينة زي عين الشمش... مرتك حبلى... مبروك يا ولدي... هروح أبشر الحاچة»

«يابوي... يا...»

التفت لزينة التي لم تكن أقل منه ذهولًا:

«خرچ!»

شهقت ببحة:

«ومستني إيه!؟ الحقه قبل ما الدنيا كلها تعرف!»

«إيوه عندك حج... بس انتي إيه اللي حوصل لك؟»

«لا... ولا حاجة... يمكن بس تعبت من الشمس»

«طيب... هروح ألحج أبوي»

أسندت رأسها بالوسادة تُخْرج تنهيدة طويلة... ثم أغمضت عينيها بقوة تعض على شفتها... رنين هاتفها بنغمته المميزة لأمها جعلتها تمسكه بلهفة وعيون دامعة.. لابد أن أمها العزيزة شعرت بألمها: «ألو... ماما... انتي.... إيه!؟؟»

وفي لحظة، نسيت كل آلامها وهي تنهض مفزوعة من مكانها... والعرق يتصبب من جبينها:

« داكور ماما... أنا هاجي فورًا»

دخل رافع وهي تضع الهاتف جانبًا تحدق في الفضاء بذهول... لم ينتبه لحالها وهو يهز رأسه بأسف:

«أبوي بلّغ الدنيا كلاتها... الفرحة مش سايعاه... وأمي بتبل الشربات، معرفش هجولهم إيه.... زينة.... مالك؟؟»

«لا... ولاحاجة... أنا... ضروري أروح لماما دلوقتي... هي تعبانة وعاوزاني»

« لا ألف سلامة عليها... حالًا هناخدوكي ونروح»

صرخت بهلع:

«لأ... لازم أروح لوحدي... معلش يا رافع... ماما عاوزاني في حاجة خاصة و....»

«خلاص براحتك... هجهز لك الكارتة، والغفير هيوصلك وهيرجعك»

«مش لازم... أنا بعرف أسوق الكارتة»

«لع يا زينة، والحديت ده مافيهوش مـجـادلة... ومتتأخريش... انتي بجيتي زينة دلوك؟»

ضحكت برقة ذكرّته بقلبه الذي ينبض بنغمة مختلفة كلما سمع رنين ضحكتها:

«أنا زينة على طول... مش بغير اسمي»



١١

«الحب لا يقتل العشاق... هو فقط يجعلهم معلقين بين الحياة والموت»
ـ جيرالدي

....

كانت مدركة لصعوبة الوضع في البيت... لا شك أن سيف على آخر درجة من درجات غضبه، ووالدها يحاول التصرف بتمدن، ولكن الطبع غالب... استقبلتها أمها والقلق يرسم ملامحها باتقان:

«زينة... حمد لله... أنا مش عارف إزاي ولد دا ييجي بدون إذن... بابا وسيف هيكتلوه... الحكي بسرعة!»

«داكور ماما... اهدي... هم في المندرة؟؟»

«وي... وي»

أخدت نفسًا عميقًا ودخلت إليهم.... كما توقعت... الرجال الثلاثة على درجات متفاوتة من الغضب، وإن وصلت كلها لدرجة الاحمرار.... هب سيف يجذبها من ذراعها:

«اتفضلي يا مدام... شوفي مچايبك!!»

هدأه والده:«همِّل أختك يا سيف... وخلينا نتفاهموا»

نفضها عنه ودفعها بخشونة:

«اتفضلي... لما نشوفوا... والله لو رافع شم خبر بالوجعة دي لتطير فيها رجاب!»

اتجهت ناحية ضياء الذي ظهر عليه التعاطف الحذِر... وبدون أن تمد يدها لمصافحته:

«بونسوار ضياء»

لوح بيديه في الهواء:

«بونسوار زينة... أنا مش عارف أقول إيه... يبدو أني أسبب إحراج كبير»

أخرجت زفرة سببت لها ألمًا في صدرها فكتمتها:

«انت طلبت إيدي... وأنا قلت هفكر... أنا مش رديت عليك.... أنا...»

ضاقت عيناه وهو يحدجها بنظرة الخبير وسألها بقلق:

«زينة... انت كويس؟؟»

وضعت يدها على صدرها تعض على شفتها:

«ضياء... انت لازم تمشي... قبل ما تحصل مصيبة... انت مش عارف إيه ممكن يحصل لو...»

تقدم نحوها بلهفة فصرخ سيف:

«وجف عنديك!»

نظر لوالدها بتوسل:«زينة تمر بأزمة قلبية... لازم نلحق...»

وقبل أن يكمل، كانت تتهاوى على الأرض، فأسرع نحوها يستقبلها بين ذراعيه، ثم صرخ بسيف الواقف مصدوم:

«إذهب إلى سيارتي... هات حقيبتي... بسرعة!!»

صرخ رضوان عندما وجد ابنه مسمراً في الأرض:

«هم يا سيف يا ولدي!أختك هتضيع منينا!!»

دخلت فاليريا جزعة، تصرخ عندما رأت ابنتها ممددة على الأرض، والضيف الغريب يحاول دفعها للاستجابة لندائه.

وصل سيف بالحقيبة متجاهلًا نداءات معالي، التي لاحظت الحركة الغريبة، الخارجين والداخلين للمندرة، والجميع صامت، شاخص وكأن على رؤسهم الطير... أمسكت هّنا تسألها:

«بت يا هّنا... جوليلي.. هو إيه اللي بيوحصل؟؟»

كتفت هّنا ذراعيها قائلة ببرود:

«وأنا إش عرفني!؟ ما أنا واقفة زيك أهه!»
«يخرب بيت رخامتك!! طب ما تدخلي تشوفي إيه اللي بيوحصل!»
«ما تدخلي انتي! هو انتي صغيرة!؟»
«أعوذُ بالله منيكي بت!! انتي چايبة كل التباتة دي منين!؟أمك الخواچاية حلوة وفرفوشة... أكيد من خوكي البو، ما هو العرج دساس!»
أمسكت فاليريا بيد رضوان تستمد منه القوة:
«ردوان... زينة مش بتفوك... زينة هـ..»
«اذكري الله يا فاليريا.... الداكتور بيشوف شغله»
بعد لحظات طويلة مرت كساعات عرجاء العقرب، تنهد ضياء بشبح ابتسامة:
«حمدًا لله على سلامة... ما هذا الاستقبال!!؟... انت عارف إنك اتأخرتي كتير على علاج... كان لازم تعودي من أجل عملية»
تنهدت محاولة التشبث بما يساعدها لترفع نفسها... دفع سيف ضياء بخشونة يمسك بيد أخته... ساعدها حتى جلست بجوار رضوان... شبح ابتسامة شحيحة لوّن شفتيها، وملامح القلق لانت لها ملامح سيف الجامدة. تمتمت دون أن تترك يده:
«أنا بخير يا سيف... اطمن»
«زينة.. دي مش أول أزمة؟؟»
زفر بغضب عندما أومأت بهزة بسيطة من رأسها. نظر لوالدها:
«انت مسؤول عن حياتها... هي كان مفروض تنهي علاج، وبعدين لو لم يوجد تحسن لازم عملية... انتظرت كتير ولم تعد... وهذا سبب وجودي اليوم»
هتف سيف هازئًا:
«وحضرتك بتچري ورا كل مريض، وتعدي له بحور تسأل عليه!!؟»
بحدة صاحت فاليريا:
«سيف!! بدل ما تشكر طبيب..!!»

ربت رضوان على يد ابنته:

«الحمد لله إنك بخير... ويمكن ربنا جدر ولطف، ووچود الداكتور دلوك من تدابير ربنا... أيًا كانت أسبابه... هو ضيف، وضيافته واچبة، ياخدها من العين دي زاد، ومن العين دي مية»

أومأ ضياء شاكرًا:

«شكرًا عمدة... بس زينة لازم يسافر»

«هو إيه اللي بيوحصل إهنه!!؟ ومين الراچل ده!!؟ وكيه تسمح لمرتي تجعد وياه يا حاچ رضوان!!؟ إيه المساخر اللي بتوحصل من ورا ضهري دي يا كبراة البداري!!؟»

❂❂❂❂❂

اقتحم جاسر بيته يكاد الغضب يعميه، والمشهد يتكرر أمام عينيه بلا انقطاع.. زينة تنهار أمامه... يظهر رافع وكأن الأرض انشقت عنه من العدم... يحملها بين ذراعيه يضمها لصدره.

ضرب بقبضته على صدره بغل شديد، يود لو استطاع اقتلاعها، ولكنها في كل يوم تزداد توغلًا كالعشبة الشيطانية، حتى وصلت لأنفاسه، يكاد في كل وقت يشم رائحتها... حتى في زوجته.

«چاسر... مالك ياخوي مش على بعضك ليه؟؟»

لوح بيده في وجهها:

«غوري من خلجتي السعادي!»

بحدة وضعت يديها في خصرها:«وإن مغورتش هتعمل إيه!؟؟»

«سمحة... اتجي شري في الساعة الغبرة دي!!»

«يوووه! هو كان حوصل إيه يعني!!؟»

تركها ودخل غرفته وأغلق الباب خلفه.

انتظرت بصبر هدوءه، وغريزتها الأنثوية تحثها على التصرف بحيلة؛ فلا شك أن حاله المقلوب بسبب ابنة عمها التي يهواها.
بردت مراجلها المشتعلة، ورسمت وجه الزوجة السعيدة، دخلت الغرفة لتجده واقفًا أمام المرآة يلف عمامته بطريقة احترافية، ثم أخذ يفتل شاربيه متجاهلًا انعكاس صورتها خلفه، وحاجبيها يتراقصان لأعلى وأسفل... كان بمزاج عكر لمشاكستها؛ فهي كل مرة تدهشه بردة فعلها:
«على فين يا سبعي؟؟ لسة بدري!»
تمتم من خلال المرآة: «مـچـنونة!»
«بتجول حاچـة!؟ يستهيألي كده إنك بتتحدت معايا»
أجلى صوته بصوت مرتفع استدار نحوها:
«لاه... ولا حاچـة... شايفك جاعدة تهري وتنكتي في نفسك... كت بجولك ماتروحي لأمك من زمان ماشافتكيش... إيه متوحشتكيش!؟»
ضربت إحدى يديها بالأخرى كأنها اكتشفت اكتشافًا:
«إيوه جلت لي... عاوز تهـچـني من البيت علشان تدور تتصرمح على حل شعرك!»
قهقه ضاحكًا مشيراً لعمامته:
«هو فين شعري دا يا مخبلة اللي هتصرمح على حله!؟ وأنا مش محتاچ أهـچـك علشان أعمل اللي بكيفي... انتي خابرة زين يا سمحة، إني بروح وباچـي ومحدش يجدر يجولي تلت التلاتة كام»
«لاه يا چـاسر... أنا هجولك تلت التلاتة كام... ومش كده وبس... انت كمان معتش هتخرچ من البيت، وهتسهر معاي، آني مرتك وأهم عنديك من صحبة الغوازي كل ليلة»
«لع يا سمحة مش هيوحصل... مش على آخر الزمن هتاچـي حرمة تمشيني على كيفها...آني چـاسر الرحايمي البلد كلاتها تمشي على كيف كيفي»

«إكده يا چـاسر!؟ طب ورب الكعبة اللي مبحلفش بيه كدب أبدًا... لو طلعت الليلة هترچـع مهتلاجنيش!»

«هع!! هتروحي فين يعني!!؟؟»

«هروح لدار أبوي وخوي يشوفولي صرفة معاك»

بتهكم:«الباب يفوّت چـمل... بس حطيها حلجة في ودانك... لو خطيتي عبتة الدار ملكيش رچـعة واصل»

بنرفزة وعصبية:

«وأنا هبكي على إيه يا حسرة!؟ حوش حوش الحنية اللي بتصب منيك صب!»

«وانتي حوشي لسانك اللي بينجّط عسل!! من يوم فرحنا وانتي لسانك البعيد متبري منيكي... مين مستغني عن عمره يجعد معاكي وانتي وشك يجطع الخميرة من البيت!؟ أروح أفرفش حالي... أجعد لي جعدة زينة.. أشرب وأمز وأعدل مزاچـي اللي عوچـتيه بنجك ونجيجك»

شهقت وعيناها تلمعان بجنون:

«هو ده مربط الفرس... زينة... حالك مجلوب ومطايجنيش عشان زينة... مش إكده يا چـاسر؟؟ والله لو رافع شم خبر ليدفنك موطرحك»

«باااااااه!! بدينا النج!! أروح لنوارة ترجصلي وتفرفشني بعيد عن الهم ده.. أعوذ بالله... أعوذ بالله!»

هل انتهت حكايتها قبل أن تبدأ!؟؟ فتحت عينيها على الدنيا فوجدت حبه معششًا في وجدانها... مولود بلا أمل... حب تعرف أن نهايته الموت الحتمي... بين ليلة وضحاها يلعب القدر لعبته، تجد نفسها أصبحت زوجته... وما يزال بلا أمل!! ربما كان أقرب لخيالها عندما كان مجرد أمل مستحيل.... مسحت دموعها بقوة صارخة:«لكن لا.... مش آني يا چـاسر!! والله ما أسيبك إلا بالدم!! وهنشوف... هنشوف يا چـاسر يا رحايمي!»

❂❂❂❂❂

«هي فريدة فين يمّا؟؟ لسة معاودتش؟؟»

«لا والله يا بني... اتأخرت أوي... ما تقوم تشوفها يا ضنايا... مكانش المفروض تخليها تروح لدارها لوحدها... أهلها يقولوا إيه!؟»

«انتي اللي بتجولي إكده يما!؟ إش عـجـب يعني!؟ من يوم ما اتـجـوزتها وانتي مطيجهاش!»

«الأصول أصول يابني... والبنية بأمانة ربنا مشفتش منها حاجة وحشة... أهه الباب بيخبط تلاقيها وصلت»

نهض يفتح الباب... وقف مذهولًا أمام منظر زوجته المزري... بقايا دموع ما تزال معلقة بأهدابها وعينيها المحمرتين، كحلها الملطخ، وملابسها غير المهندمة: «فريدة!! مالك؟؟ حوصل لك إيه؟؟»

دفعته لتدخل محاولة التماسك:

«ولا حاجـة... بس وجعت في الطريج»

ردد كلمتها بدهشة أكبر:«وجعتي!!؟ واللي توجع تبكي ليه!!؟»

صرخت بانتحاب:

«إكده وخلاص يا رشاد... حوصل إيه يعني!؟؟ هتحاسبني كمان على البكا!؟ دي بجت عيشة تجصر العمر!»

وقف مذهولًا يراقبها تنتفض من الغضب، ثم دفعته من كتفه لتصعد غرفتها أمام نظرات أمه المصدومة.

لوحت بيديها مع التواء فمها يمينًا ويسارًا:

«يا فرحة العدوين فيكي يا زينات!! خيبة على الرجالة!»

ثم ربتت على كتف ابنها، يبدو وكأن الدخان يخرج من أذنيه: «هم قالوا يا أهل النسا ولا يا أهل الرجال... يا ميلة بختك في ابنك يا زينات!!»

«بكفياكي ولولة يمّا... حرام عليكي... مش عيشة دي!!»

«بدل ما تشخط في أمك يا سبعي، اطلع شوف المحروسة مراتك، اشكمها ولا إديها قلمين... مش هي دي اللي بعترت كرامتك قدم أمك؟ ولا انت مش قادر على الحمار هتتشطر على البردعة!؟»

أمسك طرف جلبابه وصعد للدور العلوي يطوي الدرج مثنى ورباع... اقتحم الباب فارتطم بالحائط من قوة اندفاعه... كانت جالسة على فراشها ظهرها للباب... التفتت لتفزع من منظره وهو يدفع الباب بقدمه ويهجم عليها... وقبل أن تدرك نيته كان يسدحها على الفراش وينهال عليها بالصفعات... لم تحاول دفعه... لم تقاوم... كانت تدفع ثمن خطئها الذي لا يعرفه...

توقف أخيراً عندما لاحظ خيوطًا حمراء تسيل من فمها وأنفها.. جلس جوارها لاهثًا متجهمًا... بينما لم يصدر عنها أي صوت... لا نحيب ولا بكاء ولا أي تأثير عن ضربه الوحشي لها.... صرخ لينتفض جسدها من مكانه بدون أن تتحرك:

«انتي عاوزة مني إيه!؟؟»

سألته بصوت هادئ وكأنها عجزت عن الشعور بكل تلك الأوجاع التي يئن منه جسدها:

«سؤال واحد.... ليه؟؟»

وبدون أن يسألها، ولا حتى ينظر في عينيها، كان يعرف قصدها... أشاح بوجهه المهزوم:

«لمّي خلجاتك... هروّحك بيت خالك»

اعتدلت جالسة مكانها، تتحرك كالإنسان الآلي، تحملق به والغمامة التي كانت تقف كحائط سد تمنع عنها الرؤية قد انزاحت فجأة! شهقت:

«رشاد... انت.... انت..!!»

بمجرد أن لمح الاتهام بنبرتها، التفت لها بعينين حمراوين، ورفع يده عاليًا ينهال عليها صفعًا من جديد. نظرت ليده باستهانة:

«هي دي الطريجة اللي تحس بيها إنك راچل صوح!!؟ اضرب... اضرب يا رشاد يمكن تشفي غليلك... ويمكن تحس إنك راچل بحج»
توقفت ذراعه في الهواء وتهدلت على جانبه... أطرق رأسه حتى ظنته ينتحب... لسبب لا تعرفه أشفقت عليه... حاولت مد يدها تلمس عمامته... شعر بمحاولتها... نفض عنه رماده ووقف يحدجها بنظرات نارية، وصوت زلزل الجدران:
«انتي مفكرة نفسك مين!!؟ فووووجي... أنا رشاد البداري... سامعة؟؟ إلا جولي لي، انتي كتي فين من عشية؟؟ اتاخرتي ليه وداخلة كيه وابور الزلط!!؟»
ركبها شيطانها المريد، دفعته ووقفت لتجابهه عاقدة ذراعيها على صدرها بتحدي:
«كت بتمشى... لحالي»
ضاقت عيناه وذكريات الماضي تراوده لتؤجج المزيد من نيران غضبه:
«كتي بتتمشي... فين؟؟»
وقبل أن تنطق كان يعرف... رأى إجابتها بين نظراتها المتحدية وهي تجيبه بكل وقاحة:
«كت في طريج الديابا»
استحقت تلك الصفعة أيضًا، ولكنها تلقتها هذه المرة لا لشعورها بالذنب، ولكن لتدفعه للانحدار أكثر وأكثر... صرخت عندما توقف:
«إيه وجفت ليه!!؟ ما تضرب كمان! ولا انت مش عارف أنا كت هناك ليه!؟ مش عارف يا رشاد!؟ كت رايحة لحمادي... إيوه... بس معارفاش ليه... يمكن عشان كان نفسي في راچل يعوضني عن كل سنين الشجا والغلب اللي عشت فيهم يتيمة وأبوي حي... ولّا يمكن كان نفسي أرتاح وأحس بحالي بني آدمة من لحم ودم... عاوزة تعيش... بس هي دي كل مطالبها... معاوزاش حاچة تاني... أعيش ويوبجى لي بيت لحالي... محدش يتحكم فيا... ومحدش يتمنن عليا... جُمت اتچوزتك يا رشاد... ومن أول ليلة... دبحتني بسكينة تالمة... ودلوك بس عرفت

ليه... عارفة إن كان صعب إنك تصارحني بحالتك... بس كان ممكن تعوّضني بالحنية... كان ممكن تشتريني بالكلمة الحلوة»

تهكم بمرارة:

«ودا اللي روحك عنديه.... الحنية والكلمة الحلوة؟؟»

«حمادي كان رايدني من زمان الزمان»

«إيه اللي رجـعك؟؟»

بدون أن تنظر له:

«رغم كل عمايلك... انت متستحجش مني إني أدس راسك في الطين... ولا خالي يستحجها مني»

جلس منهكًا دافنًا رأسه بين ركبتيه:

«انتي عارفة إني لازم أكتلك دلوك»

«وإيه اللي موجفك!!؟ اطمن... مش هعافر... أنا خلاص يا رشاد زهجت من الدنيا باللي فيها... ومعادتش تهمني واصل... اللي يريحك اعمله يا خوي... اكدة ولا اكدة أنا ميتة»



١٢

«الذي يحب يصدق كل شيء، أو لا يصدق أي شيء»
ـ جيرالدي

....

كانت الحرب تدق الأبواب... يكفي أن تتواجد في تلك الغرفة داخل سرايا البداري، وتتأمل كل هذه العيون تتبادل النظرات القاتلة، لتدرك أن الليلة لن تمر دون أن يسفك دمًا.

أعاد رافع سؤاله مرة أخرى عندما لم يقابله سوى الصمت في المرة الأولى:

«أنا سألت... إيه اللي بيوحصل ده يا عمي رضوان؟؟ هي دي الأمانة اللي فايتها لك!؟؟ تجعد مرتي في حضرة راچل غريب!!؟»

انتفض ضياء يحاول تدارك الموقف:

«انت فهمت غلط يا سيد... أنا أكون دكـ...»

قاطعته زينة شاحبة وهي تسرع لتقف جوار زوجها:

«ضياء كان... خطيبي يا رافع... انت عارف إني كنت مخطوبة... بابا سبق وقالكم كده... لما اتأخرت جه بنفسه يطمن عليا... ومكانش يعرف باللي حصل»

ضاقت عينا ضياء لا يفهم ما يحدث... كان بإمكانها أن تخفي مسألة خطبتها له وتخرج من المشكلة بادعاء أنه طبيبها المعالج... هز رأسه بنظرة عتاب مسترقة تجاهلتها. انتبهت لرافع الذي ازداد احمرار وجهه وهو يغرز أصابعه في مرفقها ويجذبها بقسوة:

«انتي بتجولي إيه!!؟ خطيبك!!؟ وحضرتك فايتاني في الدار وكذبتي عليا وجولتي إن أمك عيانة... وچاية تشوفي خطيبك!!؟ انت فاكراني إيه!!؟»

هب سيف يدافع عن أخته عندما رآها بين يدي زوجها، كالورقة في مهب الريح لا حول لها ولا قوة، رغم رفضه للموقف بأكمله:

«ارفع يدك عنها يا رافع... متنساش إننا واجفين»

التفت له رافع بدون أن يفك قيدها:

«لا راچل يا سيف... راچل صوح واختك جاعدة مع... خطيبها من ورا چوزها، وانت مركب الجرون وجاعد»

هتف رضوان:

«عيب يا رافع... ما يصحش الكلام دا يا ولدي... افهم اللي حوصل ولو لك حج هتاخده»

جذبه سيف من تلابيبه ليجبره على ترك أخته، ولكنه ظل متمسكًا بها وهو ينظر ليد سيف التي تمسك به:

«ارفع يدك عني يا سيف أحسن لك»

صرخت فاليريا باكية:

«هرام أليك! زينة تأبان!»

انتبه لزوجته التي يتفصد جبينها بالعرق وقد غربت عيناها... زمجر ضياء:

«انت مش بتفهم... هي عندها أز...»

صرخت زينة مرة أخرى لاهثة بصعوبة:

«لو سمحتوا... اخرجوا برة... أنا هتفاهم مع جوزي لوحدنا... أنا آسفة يا بابا، وماما... أنا هكون كويسة.... سيف أرجوك خد ضياء دلوقتي واطلعوا»

ثم نزعت ذراعها من رافع:

«لو سمحت... ابعد إيدك عني واتفاهم معايا بالعقل»

أومأت لوالدها، طاوعها بدون رضا؛ فقد كان يعي جيدًا تطورات الموقف لو لم تستطع زينة تحجيمه:

«سيف... اعمل اللي أختك جالت لك عليه»

«هتخليها لحالها معاه يابوي!!؟ هيكتلها... مش واعي عيونه بيطج منيها الشر كيه!؟»

دفعه والده:

« متخافش على زينة... واحنا هنكونوا جريبين منيها مش هنروح لبعيد... يلا يا حاچـة... اتفضل يا داكتور»

أطاعه ضياء، ولكن ليس قبل أن يرمق رافع باشمئزاز قائلًا قبل أن يغلقوا الباب:

«انتم إزاي تجوّزوا زينة لشخص دا!!؟؟»

وبالطبع اخترقت الكلمات أذن رافع، الذي حدج زوجته بتهكم:

«خطيبك الـ... داكتور... مش عارف كيه چـوزوكي ليا... تحبي ننادوا له ونجولّه مين السبب في الورطة دي؟»

جلست تحاول تهدئة أنفاسها بزفرة أنهكتها:

«خلاص يا رافع... لو سمحت مش عاوزة مشاكل»

«المشاكل هي اللي چـت لحدي يا بت الناس!»

«أرجوك... انت فاكر نفسك جوزي بجد!!؟ ولا نسيت إننا بنمثل قدام أهلك وأهلي علشان فيلم السلام بين الرحايمة والبداري»

حك ذقنه غير الحليقة مفكراَ:

«دا معناتو... إن حضرتك بعد الطلاج هترچـعي لاسمه إيه ده؟؟ وكل فيلم الاتفاج بيناتنا، اللي كتبتيه وأخرچـتيه ببراعة لنفس السبب؟؟»

«وانت مالك!؟ بعد ما ننفصل أنا حرة»

«آه عندك حج... بس يا مدام يا محترمة، طول ما انتي على ذمتي، المفروض إنك تحترمي الراچـل اللي انتي شايلة اسمه»

«أنا مش فاهمة انت بتعمل كل دا ليه... انت دخلت لقيتني مع ماما وبابا وأخويا معاه... مش ظبطتنا لوحدنا في أوضة ضلمة!»

تصلبت عروقه لهذا الخاطر، واحمرت أذناه، وهم بقبض أصابعه على عنقها، ولكنه تراجع في آخر لحظة: «أبوكي وأخوكي خابرين زين إن اللي حوصل ده لاهو من عوايدنا ولاهو من أخلاجنا... ورغم إكده بعتوا لك عشان تجابليه»

ضغطت على صدرها بيدها تحاول التقاط أنفاسها بهدوء... ثم أدركت فجأة أنها بتدهور حالتها هذه لابد من العودة لاستكمال علاجها... وما حدث اليوم سيتكرر وربما سيعرف رافع بمرضها... لا.. لا مستحيل.

«مالك... فيكي إيه... لسة تعبانة؟؟»

رفعت رأسها بنظرات متحدية وصوت هادر:

«رافع... احنا لازم نتطلق... أو على الأقل ننفصل ونمهد للطلاق»

وقف متجهمًا يحدجها بنظرات متوجسة:

«مرة واحدة إكده!!؟ مش كنا اتفجنا...»

«أنا آسفة... بس مش هينفع»

«وعرفتي ميتى إنه مش هينفع؟؟ لما چـه المحروس أبو بدلة وكرافتة، ولجيتي إني ماليجش بحضرة چـنابك؟؟»

همت بالدفاع عن نفسها... ثم قررت السكوت.

«إيه!؟ مش لاجية حديت تدافعي بيه... ولا كلامي صوح؟؟»

«مش عارفة أقولك إيه... بس انت أكيد مش هتخليني أعيش معاك غصب عني»

اعتدل بكبرياء قائلًا بعنفوان:

«لاه... مش آني الراچـل اللي أجبل إن مرتي تعيش معايا مغصوبة»

«خلاص... نمهد للإنفصال»

«لع... مفيش تمهيد... لحد إهنه وخلصنا... بكرة أبعت لك ورجتك!»

رمقها بنظرات متعالية، وهو يتلفع بعباءته ويغادر كالقاطرة البخارية القديمة التي تُخرج دخانًا من كل مكان... دخل رضوان وزوجته للاطمئنان عليها:

«زينة... انتي بخير يا بتي؟؟»

«أيوه يا بابا... خلاص... رافع هيطلقني»

«لا حول ولا قوة إلا بالله، ليه بس إكده يا بتي؟؟»

«أنا تعبانة أوي يا بابا... وهو مش راضي إني أسافر أخلص التزاماتي، ولازم أسافر زي ما ضياء قال»

«وليه معايزاش چوزك يعرف؟؟»

اندفعت: «لأ... مش ممكن... ممكن شهامته تخليه يجبر نفسه إنه يعيش معايا... وأنا مش هقبل كده!»

ربتت فاليريا عليها دامعة:

«بس دياء كمان كان عاوز يتجوز انت!»

«ضياء عارف حالتي يا ماما... وموافق... إلا... هو فين؟؟ مش شايفاه»

أجابها والدها:

«دار عمك اتصلوا عاوزين داكتور... يظهر إن فريدة تعبانة... وطبعًا مفيش جدامنا غيره هو اللي موچود دلوك... بجولك إيه يا بتي... راچعي نفسك... رغم ظروف الچوازة بس كنت شايفك مرتاحة لرافع... وهو كمان»

«خلاص يا بابا... اللي قلته لرافع مش هينفع إني أرجع فيه... خلاص حكايتنا خلصت»

❂❂❂❂❂

بقلب مقبوض وصدر ضائق بأنفاسه، شد لجام جواده لتنطلق الكارتة تسوس الأرض الوعرة بعجلاتها... لم يشعر بنفسه _ وهو الذي لم يقسُ يومًا على حيوان ضعيف_ وهو يلهب ظهر جواده بسوطه بدون وعي ليزداد سرعة، علَّ نسمات الليل التي تلفحه بلا هوادة ترطب ولو قليلًا من النيران التي تغلي مراجلها في جوفه... وصرخة بقوة عشرة ريختر ترجرج داخله مهددة بزلزال، لو استطاع الهروب من آسره... صرخ يستحث جواده وكأنه يحثه على الطيران، لمكان آخر

بعيدًا عن مواجعه... عاتب نفسه على ضعفه... منذ متى!؟ منذ متى خضع قلبه الصعيدي لعشقها!؟ منذ متى لانت عريكته، وهي التي لم تخدعه لحظة واحدةً!؟ منذ الليلة الأولى حذرته أنه لن يكون أبدًا فارسها... أحرقته دموع أبي كبرياؤه أن يذرفها ولو بينه وبين نفسه... حتى هي لا تستحق فكرة ربما تراوده عنها... وإن كانت مجرد ذكري طيفها لا تستحق إلا كل لعنة منذ بدء الخليقة تلعن كل خائنة.. هتف بداخله صوت العقل: "ولكنها لم تحبك حتى تخونك".

صرخت كرامته الجريحة:

"بل خانت.. عيونها خانت... إحساسها خان.. يداها... قدماها... كل ما فيها خانه... وكيف لا تكون وهي ملكه من أطراف أصابع قدميها، وحتى آخر خصلة في شعرها الناري!؟ وليس من حقها أن تخونه"...

أوقف جواده بشدة مباغتة للجام، ثم ألهب ظهره مجددًا ليستدير على عقبيه مصمما على العودة للأخذ بثأره منها... يلوم نفسه ويوبخها بشدة لتخاذله، وتهاونه وابتعاده بكل سلاسة بدون أن يقتص منها لكرامته.. بدون حتى أن يجعلها تدفع الثمن أضعافًا... و بإصرار زفر أنفاسًا حارة عاقدًا العزم، عندما أوقفه صوت طلقات البارود تدوي صداها بين الجبال المحيطة، أعقبها صرخة كعواء حيوان جريح... تطلع حوله مدركًا رائحة الموت تغزو بلدته الهادئة... وهذه علامة لا تبشر بالخير أبدًا.

⭘⭘⭘⭘⭘

قفزت صارخة من نومها شاهقة، لاهثة ويدها تضغط على صدرها تئن بوجع:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

أفاق من نومه يستدير لها قلقًا:

«حياتي... خير انتي بخير؟؟ لحظة أجيب لك مي...»

أمسكت يده لتمنعه، وما تزال يدها الأخرى تضغط على صدرها دون أن تتوقف عن اللهاث:

«فيه حاچـة حوصلت.... حاچـة واعرة جوي... جلبي بيتنفض!!»
ربت على شعرها وضم رأسها لصدره العاري يطمئنها: «ششششش.. اهدي يا قلبي... أكيد مفتقدة أهلك كتير»
سالت دموعها لتغرق صدره دون أن تهدأ:
«لأ... ضروري حوصل حاچـة... أنا لازم أروح أشوفهم... لازم أطمن عليهم»
أوقفها قبل أن تغادر محيط ذراعيه:
«روقي بس... انتي عارفة علشان توصلي عاوزة كام وقت؟»
رفعت رأسها تحدجه بنظرة مستوعبة، وكأن الفكرة لم تخطر ببالها، ثم هتفت:
«اتصل بزينة... ضروري عنديها أخبار»
رفع رأسه ليتطلع لساعة المنبه بحوار الفراش:
«عارفة الساعة كام؟؟»
استدارت وأمسكت الهاتف وناولته له:
«اتصل... أرچـوك حبيبي.... لازم أطمن»..
أسقط بين يديه؛ فهو أبدًا لم يستطع رفض طلب لهذه السمراء التي أوقعته في شباكها منذ أول دمعة رآها متعلقة بأهدابها... أمسك الهاتف وتأمله لحظات ثم ناوله لها: «أعتقد إنك تتصلي أفضل مني... لو لمح رافع اسمي... زينة مش ناقصة مشاكل... صح حياتي؟؟»
أومأت شاردة:«صوح... بس لو الأخبار عفشة... مش راح أتحمل»
مسد على شعرها الأسود الطويل، سارحًا في صفاء بحيرة عينيها المشرقة بحبات دموعها البراقة:
«إن شاء الله خير... وأنا وياكِ... مش أسيبك»
عزز كلماته بعناق ضمها له بقوة، ثم أبعدها وأمسك الهاتف يطلب الأرقام... وعندما سمع صوت زينة أعطاها الهاتف، هتفت قبل أن تخونها شجاعتها:
«زينة ياخيتي... اتوحشتكو كتير... كتير جوي يا زينة... مال صوتك؟؟»

رمقته بنظرة ملتاعة فأومأ لها مشجعًا... فتابعت:

«زينة الله يسترك يا خيتي، جولي متخبيش عني... جلبي متلوع عليكم... بتجولي مين؟؟»

لاحظ دموعها التي أخذت تنسكب من عينيها كالشلال، فأدرك أن حدسها في محله... سقط الهاتف من يدها لتصرخ... احتضن صرخاتها بين أحضانه.

❂❂❂❂❂

دخل الحاج محمود داره مستغربًا صوت ابنه يكاد يهد البيت على رؤوسهم... وزوجته واقفة على رأس السلم مستمتعة وكأنها تستمع لموسيقى عذبة:

«إيه اللي بيوحصل في الدار يا زينات؟؟»

«خير يا حاج محمود... اطمن... اسم النبي حارسه وصاينه ابنك بيأدب اللي متتسماش»

تطلع محمود لأعلى ثم لزوجته باستغراب مزدوج: «تجصدي مين... فريدة!؟؟»

«قطع لسانها قليلة الأدب... ناقصة ربابة... وابنك اسم الله حُوله وحواليه بيربيها»

انتفض محمود صارخًا مهرولًا لأعلى:

«أستغفر الله العظيم... انتي ولية خرفانة... اتجي الله في بنات الناس يا شيخة حرام عليكي دي بتك حداهم!!»

ضربت بيدها على صدرها، وكأن الفكرة لم تخطر ببالها!

اقتحم محمود غرفة نوم ابنه، ليجده قابضًا على عنقها بقبضتيه... والمسكينة جاحظة العينين وتكاد تلفظ آخر أنفاسها... أمسك بيدي ابنه محاولًا تخليصها... ولكن حتى رشاد نفسه لم يستطع تركها، وكأن شيطانًا تلبسه، ولن ينصرف إلا برؤيتها خامدة بين يديه... فلم يجد محمود حلًا لإنقاذ كليهما إلا بدفع ابنه عنها بعد أن تأكد أنه لم يسمع لتوسلاته... أفاق رشاد على نفسه ممددًا على الأرض

لاهثًا، يتصبب العرق من كل جسده، ووالده يحاول إيقاظ فريدة... ثم التفت له: «إيه اللي عملته دا يا ولدي!!؟ البت مبتنطجش!!»

نظر رشاد ليديه بذهول، ثم لفريدة التي يستلقي نصفها على الفراش والنصف الأخر على الأرض، وهدر بكلمات متقاطعة:

«أنا... أنا مخابرش... مش عارف يابوي... كنا بنتحددتوا... وهي جالت... جالت...»

واتسعت عيناه بذهول، وصوتها يعود يدوي في أذنيه...

«كت عاوزة راچـل يحميني حتى من نفسي... لكن يا خسارة... الراچـل اللي طلع من حدي ونصيبي طمّع الديابة فيا... وفكروني لجمة سهلة ياكلوها بدون حتى ما يفكروا في راچـلي... المرة دي ربنا سترها... المرة الـچـاية مخابراش إيه ممكن يوحصل»

ضاقت عيناه وكلماتها تعيد نفسها مرارًا وتكرارًا، حتى وجد يديه تطبقان على عنقها، وفقد كل الشعور بمن حوله، ولم يفق إلا ووالده أمامه ولا يعرف كيف دخل.

دخلت زينات تولول بالصراخ، فزجرها محمود:

«ضبي خاشمك يا ولية، واتصلي ببيت خوي جولي لسيف ينادم على داكتور... أكدي عليه بلاش داكتور الوحدة»

كانت تضع يدها على فمها لتمنع صراخها، وعيناها لا تفارقان جسد فريدة المتراخي، ووجهها الذي اختفت معالمه خلف الكدمات والدماء المتجلطة. صرخ محمود: «انتي لسة واجفة!!؟ همي يا ولية جبل ما البت تفرفر منينا»

أشارت له بارتعاش: «هي لسة عايشة يا حاج!؟؟»

«إيوه... بس لو فضلتي واجفة مكانك روحها هتطلع، وابنك هيروح في ستين داهية... يلا يا وش الخراب... مش كتي فرحانة بابنك الحيلة بيأدب مرته!؟ أهه

البت هتروح في شربة مية... ولو عرف خالها هنروحوا في داهية كلاتنا وأولهم بتك»

دخل سيف يفتح طريق، فقابلته زوجة عمه، ولم يكن وجهها يبشر بالخير:

«خير يا مرت عمي؟؟ إيه اللي حوصل كفالله الشر!؟»

أشارت له لأعلى، ولم يفهم منها كلمة؛ فقد كانت تبكي وتولول... تنهد سيف وطلب إخلاء الطريق ليدخل الطبيب الغريب.

سمع محمود نحنحات ابن اخيه فخرج مسرعًا:

«خير يا سيف جبت الداكتور؟؟ اوعاك يكون داكتور الوحدة!»

«لا يا عمي... متخافش... بس إيه اللي حوصل؟؟»

«خلي الداكتور يدخل اللول، وبعدين أحكيلك»

التفت سيف ونادى على الطبيب:

«اتفضل يا داكتور.. اتفضل»

وكانت شهقة مزدوجة من الدكتور وسيف، عندما تطلعا لوجه فريدة.... التفت ضياء بحدة لهم فهتف محمود بارتباك: «المسكينة وجعت من على السلم!»

حدج سيف بنظرة غير مصدقة فربت على كتفه:

«شوف شغلك دلوك»

ثم خرج ليحدث عمه:

«رشاد اللي عمل العملة السودا دي؟؟»

ولم يكن بحاجة لإجابة، فعاود سيف السؤال:

«وهو فين دلوك؟؟»

«مخابرش يا ولدي... خد في وشه وهج... الله يرضى عنك يا ولدي تروح تشوفه... أنا خايف عليه انت خابر رشاد ما عمروش عمل مشاكل... مخابرش إيه اللي صابه... جيب العواجب سليمة يا رب»

«طب يا عمي... خلي مرت عمي تدخل مع الداكتور... ميصحش يكون لحاله مع فريدة»
«إيوه طبعًا... أنا هنادم عليها»
جلس جوارها... بعد الصدمة الأولى من منظر وجهها المكدوم... بدأ شعور آخر يولد داخله... لم يكن متأكدًا إن كان قابلها من قبل؛ فقد اختفت كل معالمها تمامًا.... ولكن تلك الأهداب الطويلة ذات الدمعات المتلألئة وكأنهم حقها بالميلاد... لم يصدق وجيب قلبه... هل يعقل أن تكون هي!؟؟ ولم يكن بحاجة للمزيد من التأكيد... كانت هي! منذ ساعة واحدة فقط أنقذها من مجرم كان يحاول خطفها... ولكنه لم يكن موجودًا لينقذها ممن حاول قتلها بكل إجرام وحشي... اعتصر قبضته بوجع غريب... وجع يدفعه لتحطيم الجدران والبيت بمن فيه، ومن حاول خنقها... لمس الكدمات على عنقها بألم متزايد... حقنها بمسكن، وحاول نداءها لتفيق... ثم تذكر أنه لا يعرف اسمها... ود لو يناديها:«يا صاحبة الدمعة على الأهداب... افتحي عينيك، وأعطيني الإشارة فقط لأحطم من أجلك كل ما هو موصد بيننا من أبواب»
وكأنها سمعت نداءه الصامت... فتحت عينيها المتورمة متأوهة بأنين... وما لبثت أن شهقت عندما وجدته بقربها... لم تستطع فتح فمها إلا بالمزيد من الأنين... طمأنها:«اهدئي... أنا دكتور... سيف معايا... هو طلب آجي عندك... انت كويس؟؟»
أومأت بحذر فسألها:
«مين عمل فيكي كده؟؟ جوزك؟؟»
أشاحت بوجهها بحدة كلفتها آلامًا مضاعفة، أسالت المزيد من دموعها، فهتف:
«أرجوك مش ابكي... لو شفت جوز انت أنا هــ.. ضربه بقوة»

زادت دهشتها... إحساسه كان يغزوها بعنف وقوة.... لاشك أنها تهذي من شدة الآلام... هذا الحب الذي لم تسمع عنه إلا في الروايات الخيالية، لا يمكن أن يكون هو نفسه هذا الشعور الذي يجتاحها مع نظراته، ويخفف عنها آلامها.

«هو ليه عمل هذا؟؟»

حاولت مرة تلو الأخرى حتى استطاعت إخراج صوت مبحوح من حنجرتها الملتهبة:

«أنا... خبرته على... اللي حوصل»

تراجع مدهوشًا... هذه المرة الثانية الليلة التي يواجه فيها موقفًا مشابهًا... منذ ساعة زينة تصرفت بنفس الطريقة مع زوجها... وضعت نفسها أمام قطار بدون فرامل... وهاهي صاحبة الدمعة على الأهداب تتصرف بنفس الطريقة... سألها بحيرة:

«ولماذا!!؟ كان يمكنك أن تخفي عنه!»

أومأت بحشرجة:

«إيوه... كان ممكن... بس..»

سمع أصواتًا تقترب من الغرفة، فأخرج ورقة وقلما وأخذ يكتب بسرعة... ثم دس الورقة أسفل وسادتها:«هذا رقم تليفون... وعنواني في فرانس... في أي وقت تلاقي نفسك محتاج أنا... هكون عندك في وقت أقل كتير من متوقع... انت عندك باسبور؟؟»

هزت رأسها لا تعرف هدف السؤال:

«كت رحت العمرة مع خالي وعمل لي واحد»

«أوك... أنا سوف....»

قطع كلامه دخول زينات تسأله بلهفة:

«أخبارها إيه يا داكتور؟؟إن شاء الله خير... مش تبقي تاخدي بالك يا فريدة يا بنتي وانتي بتنزلي السلم... يلا الحمد لله، قدر ولطف»

حدجها بنظرة باسمة رغم شفتيه المطبقتين؛ فقد عرف اسمها وحرك حروفه بين شفتيه يتذوقه: «فريدة»
تمتمت غير عابئة بحماتها:
«وانت اسمك إيه؟»
تمتم بذات النظرة الباسمة: «ضياء»
تنحنحت زينات:
«مشكرين أوي يا داكتور... تعبناك معانا»
هز رأسه وهو يكتب ورقة ويعطيها لها:
«هذا دواء لازم يأتي... لو لم يتوافر أخبري طبيب صيدلية أن يحضر البديل... أنا لا أعرف أدوية هنا»
«متآخذنيش يا دكتور... هو انت منين؟؟ سحنتك بتقول إنك مش مـ العِب بتاعنا»
نظر لفريدة وكأنه يجيبها هي:
«من فرنسا... ممكن كوب ماء من فضلك؟؟»
وقفت زينات لحظات تستوعب كلام الطبيب، حتى أدركت أنه يطلب ماء للشرب، فركضت تلبي طلبه... أسرع ضياء وأمسك بيد فريدة برقة:
«اسمعي فريدة... مش عاوز تخاف من حاجة... أنا لقيت انت ومش هقدر أتخلى... ولكن لو حياتك مع هذا الوحش هي ما تريدين... أنا سأكون معك وسأدعمك... المهم أن تكوني سعيدة... هل ترغبين في الهروب منه؟؟»
تمتمت بحزن:
«مجدرش... هو چوزي مهما عمل فيا... بس بكفياني إنك حسستني إني بني آدمة.... ممكن أكون مهمة لأي حد»
«يااااه يا فريدة... لدرجة دي!؟ يا ريت كنت شوف انت من زمان... تليفوني معاكي... في أي وقت كلم حتى لو مش عاوز حاجة.... معاكي تليفون؟»

أومأت: «إيوه.. بس مش هجدر أعطيك نمرته... أنا في حكم راچل»
«زي دا مش قول عليه رجل... دا مخلوق متوحش»
«المية يا دكتور»
حدجها بنظرة محتقرة، وأمسك بحقيبته وتجاوزها ليغادر المكان، قبل أن يرتكب جريمة يندم عليها.

❂❂❂❂❂

«الكلام اللي بتجوليه دا يا بت يا مسعدة صوح... ولا كلام واد عم حديت؟؟»
«والله يا ست معالي اللي جولتلك عليه دا حوصل... إن شالله يا رب أنتص في نواضري ولّا يدهسني جطر سكة حديد سواجه أعمي... أنا سمعتهم بوداني دي اللي هتاكلهم الدود»
«طب سمعيني تاني كده يا بت... أصلي ممصدجاش»
«سمعت الست زينة بتجول إن الحكاية بينها وبين سيدي رافع خولصت خلاص... ومعادلهمش راچعة واصل... وإن سيدي رافع هيبعت لها ورجتها بكرة»
من فرط فرحتها كادت أن تزغرد:
«لو الحديت دا صوح يا مسعدة... ليكي عندي جراط أرض... لا... جراطين حلوان ليكي على الأخبار الزينة دي»
هتفت مسعدة بلهفة:«صوح يا ست معالي!؟ إلهي يا رب يسعدك... إلهي وانت چاهي ينولك اللي في بالك يا معالي يا بت... هي أمك كان اسمها إيه؟؟»
أجابتها معالي وعيناها تلمعان بالمستقبل السعيد:
«فوزية... إيوه يا مسعدة ادعي لي بذمة يا بت... رافع جطع نص الطريج.... والباجي عليا»



دخل ليجد البيت مظلمًا ولا بصيص نور شاحب ينير له طريقه... أخذت يده تتطوح باحثة عن مفتاح النور بدون جدوى... شرارة صغيرة أثارت انتباهه بعدها اشتعلت شمعة صغيرة... كانت عيناه تتسعان وتضيقان يحاول تنقية الصورة المغبشة.... مع دخوله غرفة تنبه أنها غرفة نومه، وجد عشرات الشموع الحمراء موزّعة في أنحاء متفرقة من الغرفة... تتبعها تلك الرائحة المميزة لعطر فاخر.... والفراش منثور عليه أوراق الورد الحمراء... وقبل أن يستوعب ما يحدث جاءه الصوت المغناج خلفه: «سالخير يا سيد الناس»

أخذ يقترب برأسه ويبتعد، الرؤيا لم تكن واضحة أبدًا... لم يعرفها... كانت تقف أمامه بقامتها الرشيقة تحددها خطوط من ثوب يلمع بخيوط حمراء براقة... نظر خلفه ليتأكد أنه دخل بيته كما يعتقد... ثم عاد يحدق بها لتتضح معالم وجهها الذي لم يعرفه من الألوان التي تصبغه بكثافة: «إيه لساك معرفتنيش!؟ طب تعا وأنا أجولك...»

استسلم لها تجذبه من اللاسة وتدفعه ليسقط على الفراش... ضغطت على زر تشغيل الكاسيت، وبدأت تتلوى راقصة على دقات الطبلة... زاد دوار رأسه وقد ارتاب في نوعية التعميرة التي حضرتها له نوّارة الليلة.

انتهت الرقصة مع آخر دقة من دقات الطبلة، صفّق لها بقوة مع تصفير عال وهتف يناديها:

«إيه الحلاوة دي!؟ مكتش خابر إنك مولعة إكده يا بت يا نوار!»

بعد أن ظنت أنها وصلت أخيراً لمفتاح قلبه؛ غيرت من نفسها واستقبلته بالشموع والرقص... وبعد كل هذا...!!

حاولت دفعه، فتمسك بها ووجهه قريباً منها لتلفحها أنفاسه الحارة:

«رايحة على فين يا سنيورة!؟؟ أنا ما صدجت لجيتك»

هتفت باكية:

«وانت مفيش فايدة فيك... برة وجوة فرشتلك والطبع فيك غالب... وديل الكلب لم ينعدل ولو علجوا فيه جالب»
اشتد احمرار عينيه وهو يهوي عليها بصفعة مدوية:
«انتي بتشتميني آني يا بت البداري!!؟»
ثم أحكم إمساكها قائلًا بسخرية:
«عملتي كل ده علشان تكسبيني... ودلوك عاوزة تفلتي من يدي!!؟»
«هملني يا چاسر... خلاص معدتش طايجاك»
«فات الأوان يا سنيورة... أنا طايجك وعاوزك... وانتي معتجوليش لچاسر لع.... صوح يا مرتي العاجلة؟»
تخاذلت نبراتها مستسلمة:
«صوح يا چاسر... صوح»
واكتفت برؤية جسدها يستعمله، ولكن ليس كما كانت تخطط.... مجرد جسد قد يبدله يومًا بغيره، بدون أي وازع من ضميره.

۞۞۞۞۞

رفع بارودته عاليَا، وأطلق عدة أعيرة نارية في الهواء الطلق، ليتوجع سكون الليل، ويدوي أصداء صرخاته بين الجبال:
«انت فين يا حمادي؟؟ انزلِّي وريني نفسك... لو راچـل من ضهر راچـل، انزل ولّا مرچـلتك دي بس على الحريم!!؟؟ انزل يا حمادي الكلب!!»
جالسًا بين رفاقه يقهقون بدون سبب، ويتمايلون على كركرات الجوزة المطعمة بكل أنواع الحشيش... وحده كان شاردًا حزينًا... لم يطاوع صديقه الوحيد لينسى همومه بين ضحكاتهم وأحاديثهم المملة... لقد فقدها اليوم... ضاع منه حب حياته... لجأت له في ضيقها وتصرف بكل نذالة... لن تسمح له أبدًا برؤيتها بعد اليوم... لن تطل عليه ولن تسير في طريقه بقصد أو بدونه... لم يلحظ الرجل الذي

دخل وانحنى بجوار صديقه يهمس له... لو الدنيا كلها انتهت اليوم لن يهتم....
تنحنح جعيدي: «حمادي... حمادي...»
تمتم حمادي بدون أن يخرج من شروده:
«لو الدنيا كلاتها بتولع بره، معايزش أسمع ولا أعرف»
«هي بتولع صوح يابو عمه... رشاد ماسك بارودة وجاعد يضرب طلج في الهوا وبينادم عليك»
الآن فقط انتبه وبدأ يستوعب... ثم تنهد وعيناه تشتعلان:
«لازمن عرف باللي حوصل... ويمكن يكون كتلها... أنا هشرب من دمه واكل ناسه!»
أمسكه جعيدي:
«اهدى يا حمادي... انت متعرفش يمكن مش چاي لحاله... اصبر لمن الرچالة...»
«ماصبرش يا چعيدي... وماعيزش حد منيكم ياچي معايا... دا تاري وأنا اللي هاخده... اللي هلمحه منيكم فريحي هطخه»
هم الرجال باللحاق به، فأوقفهم جعيدي:
«خلوه لحاله... كملوا جعدتكم... غيّر الحچر يا ويلد»

❂❂❂❂❂

«فينك يا حمادي يا چبان؟؟ مبتردش عليا ليه!؟؟ مش عامل راچل على الحريم... عادد حالك من صنف الرچال... وانت ولا حاچة... سامع يا حمادي؟؟ ولا هربان متخبي في ديول ديابتك؟؟»
«انت بتحدت روحك يا رشاد!؟»
التفت له موجهًا البارودة لصدره:
«چيت لجضاك برچليك يا ندل يا چبان!»

بطرف إصبعه حرّك حمادي فوهة البارودة قائلًا ببرود: «ابعد اللعبة دي عن يدك لتتعور... البارود للرچـالة وبس»

أعادها رشاد لصدره:

«أنا چـيت نصفوا حسابنا يا حمادي... انت مديت يدك على مرتي... وأنا هكتلك بموطرحك وهخلي الديابا تنهش لحمك الزفر»

«فريدة متستحجهاش يا رشاد... لو كت تستحجها كت عوضتها... كانت لجيت فرحتها المحرومة منيها معاك، ومـچـاتش طريج الديابا تايهة زي ما كانت جبل ما تتـچـوزك»

«وانت شايف نفسك تستحجها يا حمادي!!؟»

«لع... لا أنا ولا انت نستحجوا فريدة... فريدة أميرة عاوزة راچـل مش موچـود في طريج الديابا دلوك... راچـل صوح ينـچـدها مني ومنك»

دفع رشاد فوهة البارودة لتنغز صدر حمادي هادرًا:

«وانت مالك!!؟ كت عينتك محامي!؟ مالك ومالنا!؟ لزمن تموت يا حمادي!»

أمسك حمادي البارودة لينتزعها منه في غفلة، ويلقي بها بعيدًا:

«يموت فينا الراچـل الناجص يا رشاد!!»

وبقوة غاشمة هوى بقبضته على فكه لتبدأ المعركة الأزلية... تشهد عليها عيون الذئاب، عيون لم تعرف الندم على طبيعتها المفترسة، وهي إنما تتبع غريزة البقاء، يراقبون في حيرة وحشية وحوشًا يسمون بين المخلوقات (بني آدم)، كرمه المولى بالعقل، فغلبته غريزته، لوث فطرته وتبع شيطانه. نسمعه عواء وهو في الأصل نواح وبكاء، غضوا أبصارهم وبحثوا عن جحور يختبئون فيها بعيدًا عن رائحة الدماء، التي سُفكت تروي الأرض الجدباء العطشى. طار فوق الرؤوس غراب ينادي بنعيقه:

«لقد تعبت من تعليمكم ولا تتعظون!»

صرخة أخيرة تردد صداها زلزلت حجر الجبل، حسمت رحى المعركة... راكعًا جوار سوأته، تلفت حوله يبحث عن الغراب يعلمه كيف يواريها!



۞ ١٣ ۞

«مأساة الحب تتلخص في أن الرجل يريد أن يكون أول من يدخل قلب المرأة، والمرأة تريد أن تكون آخر من يدخل قلب الرجل»

– بيرون

....

«سمعتني يا چاسر؟؟ أنا مصممة على الطلاج... ولما رشاد يتولد بالسلامة مش هحرمك منيه... هيعرف أبوه وأهل أبوه... أنا مش مرا ناجصة أنا بت أصول وأعرف الواجب»

انتفخت عروقه وظهر الشر في جبينه المجعد:

«مش بكيفك يا بت البداري... أنا هملتك كتير عشان تحطي عجلك في راسك وتعجلي... من يوم الله يرحمه رشاد ما مات مرضيتش أضغط عليكي»

أشارت لبطنها:

«إيوه طبعًا... وأهه ابنك يشهد.. تجدر تجولي حملت فيه كيه لمن انت مهملني أعجل لحالي!؟ مش فاكر يا چاسر... تحب أفكرك؟؟ لمن هجمت عليا في دار أبوي، وانا غضبانة منك سنتين بحالهم مفكرتش يوم تسأل إن كنت عايشة ولا ميتة، ولا العيب مش عليك.. العيب على الغزية اللي سجتك من ماعونها لحد ما طار عجلك منيك»

زم فمه يكز على أسنانه بقوة:

«خلاص يا سمحة»

وكأنها لم تسمعه:

«حتى شيبة أبوي وحزنه على ولده مشفعش ليك عنديه... وسحبتني على دارك كيه البهيمة الخرسا... فاكر يا چاسر؟؟»

«خلاااص جولت لك!»

«لع مخلاصش.... ياميها ماخدتنيش بخوطري... غصبتني وأنا مجدرتش أمنعك... وبعدها محسيتش بنفسك ولا بيا وأنا بهرب منيك على دار أبويا... مطجتش يطلع عليا النهار وأشوف وشك جدامي... عارف ليه يا چاسر؟؟»

رفع رأسه المحنية يتأمل ملامحها الحبيبة، بشوق ولهفة ترويها كل دقة في قلبه:

«عارف ليه؟؟ عشان مكتش عاوزة أكرهك... كل اللي عملته فيا ده... ومجدرتش أكرهك... لو لسة باجي على حبة المحبة اللي لساتها في جلبي ليك... طلجني... وأنا مسامحاك»

ضرب بقبضته على فراشها بقوة وعيناه محتقنتان بالدم:

«وأنا مش هطلك يا سمحة... أنا فُوجت خلاص... الغشاوة اللي كت على عيني راحت خلاص... معدتش شايف غيرك، معايزش حد غيرك»

«بأمارة إيه!؟ بأمارة ما كت سهران في خيش الغچر آخر ليلة جبل ما المصيبة دي ما تحصول، تشرب منجوع البرك، وتصجف للغازية وهي بترجص لك!؟ صبرت عليك كتير يا چاسر »

«بس آني... آني حبيتك يا سمحة»

اتسعت حدقتاها بصدمة:«انت بتجول إيه؟؟»

«إيوه حبيتك... مكتش حاسس بيكي وانتي چاري... وبعد ما هملتيني وهملتي الدار، بجيت أشم ريحك في كل موطرح... حتى صوتك وضحكتك بترن في وداني زي ما تكون عشجتْ صوتك، وكل شوي بتفكرني بيكي... مش هكدب عليكي فكرت أتچوز تاني... ورحت أشوف العروسة ومعرفش إيه اللي حوصل... رچليا اتسمروا في الأرض... مجدرتش حتى أدخل بيتها وأشوفها... صورتك كانت جدامي

مفارجتنيش... زي ما تكوني عملتيلي عمل، جدامك حل من تنين، يا أمتًا تفكي العمل... يا أمتًا...»

«يا أمتًا إيه يا چاسر!؟ يظهر إن كتر البعاد بيعلم الجلب الجساوة... لو كت سمعت منيك حديتك دا من اللول، مكانش حوصل كل اللي حوصل... ولا كت جولت لك اللي هجوله دلوك... انت متستحجنيش يا چاسر »

دخلت زينة لتفاجأ بمشهد لم تتخيل أنها سترى مثله في حياتها... سمحة تهاجم جاسر وبقوة... وهو مطرق مكسور أمامها... دارى عيونه عنها يدفعها ليغادر.

اتجهت لابنة عمها التي تكتم شهقاتها كي لا يسمعها:

«عملتي كده ليه وانتي لسة بتحبيه!؟»

أشاحت بوجهها بعيدًا تبكي بصمت، وكان هذا ردها الوحيد.

❂❂❂❂❂

حاولت الاقتراب منه للمرة ال... مرات نسيت عددها... وفي كل مرة يتجاهلها بقسوة، نظراته تجلدها بدون رحمة... ولكنه هذه المرة قرر الوقوف في مكانه يحاورها بنظراته... يلومها، يجرّمها، ويحكم عليها بالنفي الأبدي خارج حياته... كان حكمها قبل أن يكون له... عندما قررت سحب صك عبوديتها منه كما كانت تسميها، ولو بخلع الظفر من اللحم... بالدم.

أجابته بنظراتها الخرساء:

« كان غصب عني... كت لساني متغمية كيه البهيمة الدايرة في ساجية... لا هي عارفة بتلف ليه ولا هي بتوجف يوم وتسأل حالها وصلت لفين ولا امتى هتوصل»

وكان يرد عليها بنفس الطريقة:

«بخوطرك جطعتي ما بينا... جتلتيه بدم بارد»

«الساجية لساتها بتلف بيا... من يوم يومها وهي بتلف.... من يوم ما طالت ضفايري واتطوحت على ضهري وأنا شايفاه جدامي فوج حصانه، سبع خطف

جلبي ومنضرتش حد غيره... أمي كت تجولي (رافع من نصيبك)... ومرت عمي عشمتني إنه راچلي وجسمتي وما يحوشنيش عنيه غير الموت.... وفي لحظة... لحظة بس... لجيت نصيبي اتغير... اتجسم لغيره... وأنا... حلمي كله راح... ولجيتك جدامي... مفروض عليا ومفروضة عليك... وكت خلاص... هسلم بجدري»

«لحد ما سمعتي إنه طلج مرته»

«إيوه... وجتها لجيت دنيتي اللي نسيتها بتفتح بتناديني وبتجولي (خلاص... خلاص يا معالي حلمك جرب منيكي تاني... مدي يدك وخديه... جسمتك بجت من نصيبك من تاني)»

«بس وجفت في طريجك مشكلة واحدة»

وضعت يدها غريزيًا على بطنها تعتصر الفراغ الذي لم يملأه أي شيء غير الندم والحسرة بعد جريمتها الشنعاء... نكست رأسها تتذكر بحسرة جرم لا يغتفر..

شعت عيناه فلم تحتمل قسوتهما وهي تنكسر وتنكس رأسها بدموع الندم....

راقبتهما من مكانها، يتبادلان الحوارت بالعيون... كانت مهمتها تزداد صعوبة... سيف لن ينس أبدًا ما فعلته معالي... ومعالي لن يكفيها الندم....

لاحظت حركة غريبة وارتباك وقلق بين الممرضين.... ازداد رعبها وهي تراهم يتجهون لغرفة رافع... شهقت صارخة تلحق بهم... كان جاسر وست الدار ووهدان يقفون أمام الحاجز الزجاجي يشاهدون ما يحدث، وحبات دموعهم رغم سيلها الرابي لم تمح الحزن المسطور عليها.... كان المشهد غنيًا عن السؤال.... راقبت بدموعها التي جف نبعها، الفريق الطبي يحاول جهده إنعاش قلبه الذي توقف مرة أخرى.

لم تكن المرة الأولى التي يتوقف فيها قلبه... المرة الأولى كانت عندما سمعها أول مرة تطلب منه الطلاق... كان لتوه قد تجاوز وجودها مع خطيبها السابق في مكان واحد.... وكان على استعداد تام ليتفهم مبرراتها وأسبابها... ولكن مع

إصرارها المتعنت، شعر بقلبه يعلن العصيان... ليالِ طويلة يطالبه بحقه في العشق... يسأله بأنين كيف ستعيش في عالم الأحياء بدون أن تخفق بإحساس حرمته على نفسك!!؟؟؟ إن كنت ستكتفي بالعيش حيًا ميتًا بدونها... سأعلن عصياني... بدونها سأحرمك حق الحياة»

❂❂❂❂❂

«بونـچـور مونامور»

« بونـچـور ضياء.... انت نسيتني ولا إيه!؟؟»

«مين قال كده حبيبي!!؟انت في قلبي زينة»

«لا يا بكاش... قلبك سكنته حورية غيري... من يوم ما رجعنا من مصر وانت مش مظبوط... فيك حاجة جديدة... يا ترى إيه؟؟»

أطرق رأسه وهو يجلس جوار فراشها:«مش عارف أقول إيه»

«أقولك أنا... انت بتحب جديد... كلمني عنها»

«داكور... هي اسمها.... فريدة»

شهقت:«فريدة!!؟ فريدة مرات رشاد ابن عمي!!؟»

«نعم... هي...»

«وشوفتها امتى!!؟ حتى في الجنازة هي مظهرتش... آه افتكرت! انت رحت تعالجها لما طلبوا دكتور»

«لا زينة الحكاية بدأت من قبل... المشكل إني بحبها كتير فعلًا... توقعت إنها تكلمني... بس حتى سافرنا أنا وانت... هي مفيش اتصال»

«علشان كده كنت مهموم وزعلان... وأنا اللي كنت فاكرة إنك زعلان على حالتي»

«زينة انت زعلان؟؟»

«لا حبيبي... أنا مش زعلان منك.... أنا فاهمة ضياء... علاقتنا مكانتش هتنفع؛ لأن مفيش حب بينا... بس يظهر إن الحب بتاعك ضاع قبل ما تلاقيه»

«عندي إحساس متفائل، إنه هيرجع لحضني تاني»
دمعت عيناها وهي تلمح كل هذا الحب والتفاؤل في عيون طبيبها العاشق... ورغمًا عنها تذكرت أوجاع قلبها... وكأنه كان بانتظار أن تطلب فقط ليتخلص منها فورًا... لم ينتظر، لم يحاول مرة أخرى استرضاءها... كانت من أول يوم شوكة في خاصرته.
كم رغبت بالوقوف أمامه للدفاع عن حياتها! نعم لم الدهشة!؟ رغم الفترة الوجيزة التي عاشت فيها معه كزوجة، ولو كانت مع إيقاف التنفيذ، ولكنه تسلل بمهارة غازيًا تلافيف أعصابها، تلك التي تختص بحالات العشق الميؤوس من شفائه... ربما كان قرارها محض غباء بحت... ولكنها لم تحظ منه بتلك الإشارة التي تومض بجنون بما معناه أن الحب متبادل... لو تخاطر برؤية الشفقة بنظراته قبل أن تتملك عشقها داخل حلكة عينيه... لم تستطع احتمال وجع البعاد... انهارت كل قواها فقرر ضياء السفر فورًا... كانت أمها تتمنى لو تسافر معها... حالة الوفاة المفاجأة التي ألمت بالعائلة سببت ارتباكًا في كل الخطط.
عوّضتها سيفيل عن عائلتها، احتضنتها بكل حنان أمها.. لم تتركها لحظة واحدة منذ عادت... قصت عليها زينة ما حدث لها من أول يوم عودتها وحتى اللحظة... كانت تستمع وفمها مفتوح لا تصدق كل ما مرت به في أقل من شهرين فقط.
منذ أجرت العملية، لم يسمح لها الطبيب بالحركة إلا في حدود، أن تريض قدميها لعدة دقائق بدون إرهاق... منذ شهر كامل وهي طريحة الفراش، لا تملك غير ذكرياتها تقتات عليها لتعيش، وإن كانت حياة خالية من الدافع الأساسي، والذي ما كادت تجده حتى ضاع منها... رغم إدعائها الدائم لنفسها أنها لم تحبه أبدًا، قدرته على استعمار عقلها وأفكارها في فترة أقل بكثير مما توقعت لنفسها أثارت اندهاشها حتى من نفسها... ساقتها قدماها لقسم حضانات الأطفال... كانت تعرف أنها تخترق شروط إطلاق سراحها... كانت بحاجة لابتسامة ناعمة بريئة من تلك الوجوه الصغيرة، التي لم تلوث فطرتها بعد، تلفتت حولها خوفاً أن تضبطها

ممرضتها الصارمة... كان الأطفال نيام لسوء حظها، وقبل أن تعود أدراجها محبطة، أثارت انتباهها هاتان العينان الزرقاوان كعينيها... هي أبرز ما يظهر من هذا الوجه الملائكي الصغير... بالإضافة ليدين شديدتي الحمرة تلوح بهما في الفراغ... خطفت قلبها ولم تدر السبب... لوحت لها وكأن الرضيعة ستبادلها التلويح... انقعد لسانها ودمعت عيناها... لقد كانت الصغيرة تنظر لها فعلًا... تلفتت زينة حولها... ثم بادلت الطفلة التحديق مرة أخرى.

« أها.... أخيراً وجدت مريضتي الهاربة.... وعثرتي على لوسي أيضًا!»

وبدون أن تزيح عينيها عنها:«اسمها لوسي!؟»

«نعم... أنا سميتها... حلو الاسم؟»

«وليه انت تسميها!؟»

تنهد ضياء:«لوسي لا أهل لها... حصل لأمها حادث سيارة وولدتها مكان الحادث... من وقتها لا أحد سأل عليها»

«مسكينة... وهتعملوا فيها إيه؟؟»

«القانون واضح.. تذهب لمركز رعاية الأطفال»

«مسكينة!»

«انت المسكينة مدام لو عثرت عليكِ الممرضة بيار»

«أووه عندك حق... يلا ساعدني أرجع قبل ما تكتشف غيابي»

❂❂❂❂❂

بعد أسبوع....

«زينة... فيم أنت سارحة حبيبتي؟؟»

أجابت خالتها بحزن:«أخبرني ضياء أنني سأغادر المستشفى بالغد»

«أخبار جيدة... لماذا أنت حزينة سكرتي؟»

«لوسي... تعلقتُ بها كثيراً»

«تلك الطفلة التي لم يعثروا على أهل لها؟»

أومأت زينة فضمتها خالتها بحنان:«لا بأس... ستتزوجين قريباً وسيصبح لديكِ طفلة أجمل من لوسي»

«أنت مخطئة خالتي... أنا لن أتزوج أبدًا»

وأكملت بسرها: «مفيش بعد رافع رجل يملا عيني»



١٤

«ما أقوى الحب! فهو يجعل الوحش إنسانًا،
وحينًا يجعل الإنسان وحشًا!»
ـ وليام شكسبير

....

بعد مرور سنتين:

صرخات صغيرة ناعمة، ودبيب أقدام صغيرة تركض... رفعت رأسها عن الكتاب المنهمكة في قرائته، فتحت ذراعيها تستقبل صغيرتها بشعرها الأشقر الشمسي تقفز بين ذراعيها بضحكة أشبه بزقزقة العصافير... تشممت رائحتها الناعمة بتنهيدة عشق، أخذت تداعب بطنها بأنفها تسألها:

«بتصرخي ليه يا سكرتي!؟»

أشارت للخلف قائلة بحروفها المتعثرة:«ريكا ماما... ريكا»

وحركت إصبعها بحركة دائرية بجوار رأسها... سألتها زينة باستغراب: «مين علمك الحركة دي؟؟»

«هو ماما.... هو..»

«امممم قصدك هي.... لأن هو ميعرفش الحاجات دي... أنا هتصرف معاها بعدين... بس لسة معرفتش... إريكا بتصرخ ليه؟؟»

هزت الصغيرة أكتافها النحيلة بنظرة وادعة... دخلت إريكا تنظر حولها وكأنها تبحث عنها، لتجدها مختبئة بين ذراعي أمها:

«لوسي... تعالي هنا فورًا لتنظفي فوضاكِ!»

نظرت زينة لإريكا مربية لوسي ذات الثمانية عشر عامًا وحاولت أن تكون حازمة:

«اهدئي إريكا... حصل إيه!؟ ولو سمحتي بالعربي»

زمت الفتاة شفتيها بحنق... ثم استجمعت أفكارها قبل أن تصيح:
«مدام... بنت لوسي مكار كبير... هي قالت روحي ريكا هاتي لعبة مفضل تأكل معي... لما رجع أنا... كل أكل على أرض... كله... كله»
رمقت زينة ابنتها بتوبيخ: «لوسي... سكرتي الحلوة... ليه كده؟؟»
رق قلبها تمامًا كما حدث في أول مرة وقعت عيناها عليها... بزرقة عينيها البريئتين... استشاطت إريكا غاضبة خاصةً والصغيرة تعتصر عينيها بتثاؤب:
«مامي... سوسي نام»
كتمت زينة ضحكتها:
«خلاص إريكا اهدي... خدي سوسي وحمميها وأنا هنضف الفوضى... وبعدين هطلع أحكيلها حكاية قبل النوم»
باستسلام مدت يدها تحمل الصغيرة قائلة بغيظ:
«داكور مدام... بس لازم طفل يعرف...»
قاطعها رنين الباب، اتجهت زينة نحو الباب:
«أنا هفتح.. اطلعي انتي حمميها»
وراقبتها تصعد بها الدرجات القليلة لشقتها الدوبليكس... تنهدت واتجهت لتفتح الباب، وقفت أمام المرآة تطمئن على مظهرها... لم يكن مثيراً؛ فقد كان التي-شيرت الأبيض والجينز الحالك وشعرها الملفوف حول رأسها يكاد يصرخ من الإهمال.
فتحت الباب ترحب بالوجه البشوش:
«حضرة الطبيب العاشق»
حاول تقبيلها على وجنتيها، فابتعدت مكتفية بمصافحته ودعته للدخول ضاحكة:
«أكيد المجنونة بتاعتك مش معاك... اتفضل»
جلس على أحد المقاعد الوثيرة في غرفة المعيشة، ثم سألها بتنهيدة من يتوقع الإجابة:
«وليه انت متأكد يا مريضتي المشاغبة!؟؟»

«علشان مجنونتك مش بتحبك تبوس حد غيرها»

«ولها الحق... هي مجنونة بتاعي وأنا عاشقها، وأنتي بتبعدي ليه، مافيش عندك مجنون أنتي كمان، ولا مجنونك عايش جواكي»

زفرت بضحكة عصبية متجاهلة الرد على سؤاله:

«وليه مجاتش معاك؟؟»

«لا وقت... جئت أطمن عليكي انت ولوسي»

«فيه أخبار من المحكمة؟؟ امتى لوسي هتبقى بنتي رسمي؟؟»

مد يده بمجموعة أوراق:

«تفضلي... أوراق كفالة حسب الشريعة الإسلامية... الصغيرة أصبح لها باسبور خاص بها باسمها، وكنيتها، والمعلومات الإضافية، إنك تكفليها رسمياً»

أمسكت الأوراق تقرأها بلهفة ودموع سخية. نظرت له بامتنان: «ضياء.. بجد أنا مش عارفة أقولك إيه... بس أكيد لو شكرتك زي ما تستحق مراتك هتحلل دمي»

قهقه ضاحكًا:

«ذكرتني... لازم أذهب... وإلا...»

«عارفة... هتبلغ عنك إنك من عداد المفقودين»

تبادلا الضحك حتى ربتت على ركبته بجدية:«متتخيلش أنا سعيدة علشانكم أد إيه... هي عانت كتير وانت تستحق كل الحب دا... ربنا يسعدكم»

«الأهم الآن... صحتك عامل إيه؟؟»

«انت مش ناوي تريح دماغك مني بأة!؟ ولا انت مش لاقي مرضى غيري!»

«زينة انت عارف، عمل عملية مش معناه زوال خطر»

«عارفة يا ضياء.. إيه لزمته الكلام دا؟؟»

«لازم أذكرك دائمًا... ممنوع التوتر... ممنوع الانزعاج.. وعلاج دائمًا في مواعيد مظبوط»

«علشان كده أنا لسه مروحتش مصر... انت عارف الغريب في الموضوع... إن سيف نفسه موافق ومشجعني إني أفضل هنا... وبابا كمان، والوضع دا مش مطمني... بس طالما لوسي بقى عندها باسبور... خلاص ممكن نسافر في أي وقت»
تنهد بقوة: «عرفتي ليه أنا بقول نصايح؟؟ علشان عارف إنك أول ما تستلمي باسبور لوسي هتطيري»
رنين جرس الباب أثار دهشتها:
«غريبة... مين هيزورني النهاردة؟؟»
«خليكي... أنا هروح أفتح وأمشي كمان»
«داكور... سلم لي على مجنونتك»
فتح الباب ليفاجأ بوجه مألوف على نحو مخيف... سأله بالفرنسية: «كيف أستطيع خدمتك؟؟»
أجابه ببرود ونبرة سلطوية ولهجة غريبة على أذنيه: «نادم لي على مرتي... دلوك»
وقفت كل شعرة حمراء برأسها وهي تسمع تلك النبرة الحازمة من عمق ذكرياتها تقتحم عقلها، كيانها التواق، هنا في قلب باريس... ركضت لتتأكد أن أذنيها لم تجنا شوقًا لدرجة تخيله... فجأة وجدت نفسها تقف أمام النسخة المتمدنة من رافع.. زوجها السابق... وضعت يدها على فمها لتمنع شهقة: «رافع!!؟؟»
تجاوز الرجل الواقف بطريقه يتأملها، ثم حدجه بنظرة محتقرة قائلًا بنبرة اتهام:
«إيوه يا مدام... رافع... چوزك... من الواضح إنك اتفاچأتي، بس يا ترى مفاچأة عفشة ولا... زينة يا... زينة هانم»
رافع!!؟؟
هل هو رافع فعلًا؟؟ ذلك الرجل الطويل الأنيق، ببذلته السينيه وشعره الممشط للخلف، ولحيته الخشنة كما لو لم تطأ أدغالها شفرة حلاقة منذ تركته، والتي

أضفت على هذا المزيج المدمر جاذبية مطلقة... سأل ضياء السؤال الذي كان ما يزال يتردد في ردهات عقلها، ما بين تمنيات وأوهام:
«جوزك!!؟ يعني إيه جوزك زينة!!؟ مش انتي قلت إن فيه طلاق!!؟»
«رافع!!؟؟»
لم يكلف رافع نفسه عناء النظر له، قائلًا وهو يملي عينيه منها:
«وانت مال اللي چايبينك!!؟ شوف طريجك عاوز اتحدت مع المدام كلمتين على انفراد»
أغلق ضياء الباب ووقف خلفه عاقدًا ذراعيه على صدره بعناد:
«أي كلام تقول لزينة أنا هسمع... ولا أعتقد زينة عاوز يسمع منك كلام... سي زينة مونامور»
كانت ما تزال تحت تأثير المفاجأة... وبالكاد بدأت تلتقط أنفاسها لتستوعب الصدمة غير المتوقعة:
«امممم... ضياء... ممكن تمشي دلوقتي؟؟ متقلقش أنا هبقى أتصل بيك واطمنك»
«نوووو زينة... إحنا لسة كنا بنقول إيه!؟»
رفع رافع أحد حاجبيه وهو يلتفت له نصف التفاتة:
«أما انت عليك بـچـاحة يا أخي..ما وردتش على حد!! المدام بتجولك بالسلامة، ولو أنت محروج جوي وعامل فيها حامي الحما، أحب أطمنك...أنا مطلجتش المدام ولا ناوي...أرتحت ولا...»
قاطع كلامه دبيب أقدام تنزل يصاحبها صوت بكاء طفل، التفتت الأعناق نحو إريكا التي تتبع الصغيرة الباكية:
«مدام... لوسي مش عاوز ينام قبل حكاية»
ضمت زينة شفتيها وهي تحمل لوسي وتقبلها بقوة:
«حالًا يا سكرتي الحلوة... اطلعي مع ريكا وأنا هحصلك، مش أتأخر... داكور»

«داكور ماما...»

ثم التفتت لتتألق عينا الصغيرة البراقتان برؤية ضياء. فقهقهت وهي تمد ذراعيها ليحملها مهللة:

«دادا.... دادا»

حملها ضياء متخلياً عن تجهمه للحظات، وهو يقبلها ويطلب منها أن تسمع كلام الماما... ثم أعادها لإريكا بنظرات فخورة.

الآن فقط شعرت بجرس الإنذار يضرب بقوة، ورائحة احتراق يمكن التقاطها على بعد أميال، عندما التفتت لرافع لتجد تعابيره تشير لرجل على وشك ارتكاب جناية قتل.

في البداية لم تفهم سر التحول، حتى انتبهت لنظراته المسمرة على درجات السلم حيث اختفت إريكا مع لوسي... وبدأ التفهم والاستيعاب يحتلان جزءاً من فهمها وهي تضع نفسها مكان رافع..

لوسي نادتها ماما... وضياء... بابا!!!

بحركة حادة أدار رأسه نحوها ليسألها مستشيطًا:«إيه اللي بيوحصل ده!؟؟»

«رافع اهدا وأنا هفهمك»

صرخ مطيحًا بأقرب طاولة صغيرة في المدخل، لتسقط بدوي مريع هي والفازة الكريستال التي فوقها:

«هتفهميني إيه بالضبط!!؟ البت دي بتك من مين!!؟ ولا هي فزورة وأنا المفروض أعرفها لحالي!!؟»

سألها ضياء حائراً:

«زينة... إيه بيحصل؟؟»

مدت يدها لتمنعه من الاشتباك مع رافع:

«امشي انت دلوقتي وأنا هفهمك بعدين»

أمسكه رافع من تلابيبه يهزه بعنف:

«يمشي يروح فين!!؟ دحنا بيناتنا حساب جديم، وكمان چـديد...»
رفع ضياء يديه بعدم فهم:
«من فضلك... أنا مش فاهم... انت عاوز إيه؟؟»
صرخت زينة تحاول نزع يديه عن ملابس ضياء:
«يا رافع ضياء مالوش دعوة بأي حاجة... أرجوك اهدا وأنا هفهمك»
ترك غريمه محدقًا فيها كأنه يراها لأول مرة، هادرًا بزمجرة مرعبة:
«هتفهميني إيه!!؟ هو بعد اللي شايفه جدامي دا لسة فيه حاچـة هتفهميهالي!!؟
انتي مين!!؟ شيطانة بألف وش وألف لسان!؟؟»
هم ضياء بالكلام عندما رن هاتفه بنغمة يعرفها... نظر للموبايل بشرود ثم لزينة فهتفت:
«ضياء... روح دلوقتي من فضلك مش لازم حد يعرف إن.... انت فاهم»
وقف حائراً: «بس... زينة»
صرخت بالفرنسية: «اذهب الآن من فضلك!»
كان أصعب قرار يتخذه، ولكنه يعرف مجنونته... إن لم يرد عليها ستقع مصيبة أخرى... اتجه ناحية الباب مزمجراً: «سأعود مرة أخرى»
قلب شفتيه وهو يحدق بالباب المغلق:
«بالبساطة دي!!؟ هي الرچـالة في البلد دي، اللي بيـچـري في عروجهم دا إيه!!؟ ميه ساجعة!!؟»
تمالكت نفسها قائلة بنبرة قوية:
«خير يا رافع!؟؟انت بتعمل إيه هنا؟؟»
«الراچـل لما يدور على مرته ويجلب الدنيا فوجاني تحتاني عليا، ولما يلاجيها يطير عليها طيران، يوبجى ليه؟؟»
هزت رأسها بحيرة:
«مرته إيه وجوزي إيه!؟إيه الكلام الفارغ اللي انت بتقوله دا!!؟؟»

التقى حاجباه ببعضهما بدهشة:

«هو انتي متعرفيش اني مطلجتكيش!!؟ »

وقع عليها الخبر كالصاعقة... تراجعت دائخة حتى جلست على الأريكة... تبعها وجذبها من تلابيبها لتقف أمامه: «التمثيل دا ميخيلش عليا... لازمن أبوكي ولا أخوكي جالولك... ولا عشان إكده محدش أعطاني العنوان!؟ وبجالي سنتين بدور عليكي لحد ما عترت فيكي»

«إيه اللي انت بتقوله دا!؟ يعني إيه مطلقتنيش!!؟»

«المفروض أهلك يبلغوكي... بس يظهر إنه محصولش... جوليلي يا بت البداري... البت بتك دي... كتي حامل فيها لما اتچوزنا؟؟ ولا كتي عايشة في الحرام مع نهاش الأعراض المتحسوك ده؟؟ چاوبيني جبل ما أولع في البيت باللي فيه!!»

كل ما يحدث كان أكثر بكثير من قدرتها على الاستيعاب... هي ما تزال زوجة لرافع... وهو يبحث عنها... وأهلها يعرفون ولا أحد تكرم بإبلاغها!!

انتزعت نفسها من يديه بحدة:

«انت هتخرج من هنا دلوقتي حالًا... قبل ما أبلغ البوليس!»

«لا والله چـدعة... خاطية وعينك جوية... انتي مخبراش أنا ممكن أعمل إيه؟؟»

بزفرة استهانة ومحاولة لادعاء الشجاعة:

«هنا في فرنسا فيه قانون، مش زي عندكم في البلد، كل واحد بيعمل قانون لنفسه لما اتحولتم لوحوش في غابة»

أجابها بثقة أجفلتها:

«لا... أجدر أشحنك انتي والبتاعة اللي چـوة دي في شنطة مجفولة للصعيد طوالي... وهناك دمك النـچـس حلال بلال لأي راجل عنده نخوة»

«أسلوب الهمج اللي انت متعود عليه مش هيخوفني... كان زمان يا رافع بيه»

جذبها من شعرها دون أن يهتم بصراخها، هاتفًا بصوت هادر ذكرها بقرقعات الرعد قبل وقوع العاصفة:

«سألتك سؤال... كتي حامل لما اتمسخرتي عليا وخليتيني أطلع لهم بمنديل طهارتك المزيفة؟؟ وعلشان إكده عملتي غميانة في آخر يوم، وأهلي افتكروكي حبلى... عملتي چـريمتك الكاملة يا زينة وأنا اللي ساعدتك!؟؟ لبستيني العار يا بت البداريّ؟؟»

اتسعت عيناها برعب تحاول التملص منه، وفي كل مرة يزداد ألمها:

«انت مجنون وكل أفكارك مجنونة زيك!!»

«انتي لسة شوفتي چـنان!!؟ أنا هوريكي الـچـنان الأصلي... بس لما اسمع منك اللول... هو المحروس الهيمان بتاعك متـچـوزكيش ليه من اللول؟؟»

سايرته حتى تلتقط أنفاسها:

«ماهو كان خطيبي، وكنا هنتجوز لحد ما حصل اللي حصل»

قهقه بدون تفكه:«آه... وطبعًا مجدرتيش تجولي لأهلك إنك حبلى من المحروس عشان تلبسيهالي»

«وأنا كنت أعرف منين إنك هترجعني!؟»

«وأهلك مش هيسألوكي... ولا مكتيش هترچـعي واصل؟؟»

أغمضت عينيها وفتحتهما بقوة:

«اسمعني يا رافع... أنا هقولك كل حاجة»

وفجأة لم يعد يطيق حتى سماع صوتها... كلما فكر كيف خدعته... كيف ورطته؟؟ كيف يمكن أن يقنع أهله وأهلها بعد كل ما حدث ويقنعهم أنه لم يلمسها، وهو الذي خرج بنفسه مهللًا شاهدًا على عفتها؟؟ لم يشعر بنفسه وهو يهوي عليها بكف أودعه كل ما يعتمل داخله... مزيج من أحاسيس الغدر والخيانة والغضب... تهاوت على الأرض تمسح الدماء من طرف شفتها مذهولة... أقدام راكضة لتقف إريكا أمامها تصرخ: «مدام... مدام... أبلغ بوليس؟؟»

رفعت عينيها تنظر إليه... وتعجبت من شعورها... كانت تشفق عليه بالفعل... مدت ذراعها تلوح بالرفض لإريكا، حتى استطاعت النطق:

«مفيش حاجة إريكا... روحي فوق مع لوسي»

«لكن... مدام»

صرخت: «اطلعي فوووووق»

تحاملت على نفسها حتى وقفت أمامه... غضبه لم يقل... بل كان يزداد اشتعالًا مع أفكاره المحتدمة... للحظة تمنت لو تحتضنه وتضمه بقوة تخبره كم اشتاقت له وكم افتقدته... ولكن نظرة الكره البشعة التي حدجها بها جمدت كل مشاعرها ودفنتها في عمق جبل جليدي.

«رافع... انت ممكن تطلقني بجد وخلاص؟»

«هو إيه اللي خلاص!!؟إيه البساطة اللي انتي فيها دي!!؟ البلد مولعة نار، والعيلتين ماسكين في خناج بعض، وانتي بكل بساطة بتجولي خلاص!!؟ والله واللي خلج الخلج، لو مكانش اللي بيوحصل في البلد ده، لكت دفنتك انتي وبت الخطية دي موطرح ما انتي واجفة... لكن معلهش... حسابك بعدين»

«تقصد إيه؟؟ مش فاهمة»

«لازم هنعاودوا البلد الليلة جبل بكرة... لازم نبين للناس إن چوازتنا هي اللي هتوجف سيل الدم بين العيلتين... زي ما انتي خابرة چوازة أخوكي وچاسر ورشاد الله يرحمه وطفشان فريدة... كل ده خلى العيلتين يتحمرشوا ببعض أكتر من اللول... فكرت إننا لو رچعنا يدي بيدك ممكن نعمل حاچة....آچي ألاجيكي عاملة مصيبة تطير فيها رجاب بلد بزيها!!؟»

«رافع خليني أفهمك»

«هتفهميني إيه أكتر من اللي شايفه!!؟ المفروض أحمد ربنا إنك متچوزتيش المحروس... كات توبجى المصيبة كملت... مش كفاية إنك وسختي شرفي... لاه وكمان متچوزة عليا»

كان يحتمل أكثر بكثير مما يحتمل رجل مطعون في شرفه... كان اعتقاده... لم تدرِ كيف ستخبره بالحقيقة... قريحتها لم تسعفها وهي بكل هذا التوتر وهو بكل هذا الغضب.
أطلت إريكا برأسها من أعلى:
«مدام... لوسي يبكي كتير»
وقفت حائرة بين أن تظل مكانها تتلقى موجة غضب جديدة، وأن تسرع لصغيرتها الخائفة... لاشك أن صوته الغاضب سبب لها الرعب... لبت نداء غريزة الأمومة وتجاهلته تسرع الخطى لصغيرتها.
تلقتها بين أحضانها تهمس لها بكلمات هدأتها حتى نامت بين ذراعيها... وضعت رأسها على الوسادة واستلقت جوارها تعب من عبقها، تصفف شعيراتها المتناثرة... أغمضت عينيها على دموعها مستغربة كيف ما يزال نبعها يستفيض، وقد ظنته جف منذ حكمت على نفسها بفراقه!
عندما اطمأنت على نومها الهادئ، غادرت الغرفة لتذهب لغرفتها... أمسكت هاتفها وطلبت مصر... جاء صوت أمها العزيزة... استمعت للديباجة اليومية ومنها طبعًا أسئلتها التي لا تنتهي عن لوسي؛ فهم على عكس توقع رافع يعرفون كل شيء عن لوسي... وما بعد لم تكن الأخبار مطمئنة... أدركت الآن فقط أهمية اقتراحه بعودتهم كأسرة... الوضع بالفعل متفجر والحل بين يديها.
ربما خيبة أمل مريرة اعتصرت مشاعرها....بغض النظر على أنه لم يطلقها فعلًا كما ظنت... ولكنه لم يلحق بها من أجلها هي... لملمت أشلاء كبريائها المجروحة وعادت له... وقفت أمام مرآة الردهة تتأمل علامات قسوته مخطوطة على وجنتها... أخذت نفسًا عميقًا وبحثت عنه... لم يطل بحثها لتجده واقفًا في الشرفة يدخن... داعب حنين الماضي ذكرياتها التي لم تمت أبدًا... لم تره بهذه الحالة من قبل، أو لعل الشهر الذي قضته في بيته لم يتح لها أن تعرفه... ولكنه كان كافيًا لتعشقه.

«قررت إيه؟؟»

بدون أن يلتفت لها:

«هنسافروا أول ما نحـچـزوا الطيارة»

«أنا مقدرش أسيب لوسي لوحدها هنا»

«ومن جال إنك هتهمليها!!؟ هتاچـي معانا»

اتسعت عيناها بذهول، التفت لها ببريق عينيه المرعب في ظلام الشرفة:

«بس يكون في معلومك... تاري منك في شرفي اللي مرغتيه في الوحل مش همهله... تمنه الطاج طاجين»

سألته بارتجاف واضح في نبراتها:

«وأنا إيه اللي يجبرني إني آجي معاك وانت بتهددني!!؟»

بابتسامة هازئة لم تحدّ من بريق الشر بسواد عينيه المظلم: «مش بكيفك... ماهو انتي يا تاچـي معايا يا هروح البلد وأفضحك... وفضيحة بفضيحة... هخلي أهلك يتمنوا الموت في اليوم ألف مرة بعد ما أهل البلد يعملوهم مسخرتهم... مظنيش أبوكي هيتحمل كتير... ولّا سمعة أختك... مفيش راچـل ملو هدومه هيتجدم لها... تحبي أكمل ولا سمعتي كفاية؟؟»

حدجته بألم:

«هنّا ملهاش دعوة بانتقامك دا... هي ملهاش ذنب!!»

بصلف لا يعرف الرحمة تجاهل توسلها

«جولتي إيه؟؟ هنحجزوا التذاكر ولا....؟؟»

مسحت دموعها وهي تخرج شجاعتها من براثن يأسها:

«داكور يا رافع... اعمل اللي تعمله... بس سؤال.... انت هتقدر تمثل فعلًا السعادة اللي عاوز توهم الناس بيها؟؟ ولما تعمل كده، مش هيكون دا اعتراف ضمني منك إن لوسي هي بنتك؟؟»

اتسعت عيناه بظلام ليلة سوداء حالكة بدون قمر، وهدر بنبرة غامضة بدون أن يجيب سؤالها:

«هروح أحـچـز على أول طيارة».

راقبته حتى أغلق الباب خلفه... تهالكت على أريكتها تتنفس بسرعة وكأن بخروجه عاد الهواء في المكان... وضعت يدها على قلبها... لآخر لحظة كانت تظنه سيطلب منها جواز السفر... ثم وبخت نفسها:

«يا غبية!! رافع مش بيعرف فرنسي... وأكيد مش هيفهم إيه اللي مكتوب في الباسبور»

وامتلأت رأسها بالمزيد من علامات الاستفهام!

كانت الراحة بادية على وجه إريكا رغم ادعائها الحزن لفراق لوسي الصغيرة... ولكن المبلغ المالي الذي حصلت عليه كتعويض، كان أكثر من كاف لعذابها اليومي على يدي ذلك الملاك الصغير... أخبرها رافع بالتليفون موعد الطائرة وطلب منها أن تتواجد في المطار قبل الموعد بساعة.... كان ضياء هو الأخر في شدة الغضب، لذلك أرجأت خبر سفرها لآخر وقت، كي لا يجد الوقت لمواجهة رافع مرة أخرى.

وجدته بانتظارها... آلمها إشاحته بوجهه عن لوسي، وطلب منها جواز السفر بدون أن ينظر في وجهها.

سألته:«بتعرف تتكلم فرنسي؟؟»

بزفرة مرهقة:«لأ... بس أكيد هم بيتكلموا إنجليزي»

هزت رأسها بامتعاض واتجهت لتسليم الباسبور بنفسها، قبل أن يجبرها على أن تسلمه له... بعد وضع الأختام سحبتهم بسرعة وأفسحت له الطريق ليكمل الإجراءات... خدمها في نجاح خطتها أنه دائم الإشاحة بوجهه كي لا تقع عيناه على الصغيرة، التي كانت تحاول بشتى الطرق إثارة انتباهه... بلا جدوى.

شعرت بغصة مؤلمة للحزن البادي في عيني صغيرتها، وقررت تجاهله تمامًا طوال الرحلة، وتصب كل اهتمامها على لوسي.. التصرف الذي أغاظه تمامًا؛ فكلما وقعت عيناه عليها يجدها تلاعبها وتناغيها، حتى أثارت ضحكاتها كل المسافرين وأصبح لها شعبية كبيرة عند الجميع عداه، حيث حافظ على عبوسه المتقد وزفراته التي كادت تسبب ثقوبًا في بدن الطائرة... حتى هو نفسه لا يعرف... أي رجل غيره في مكانته وبدمه الحار وعقليته التي تتحكم فيها أصول وتقاليد لا تمحيها المدنية ولا التطور... أي رجل في مكانه كان غسل شرفه بدمها ودم عشيقها... ما الذي أوقفه!؟؟ لماذا هذه الحجج الغريبة لإعادتها!؟؟ لماذا لم يقتلها في اللحظة التي أدرك بها خيانتها، وتلاعبها، وخداعها!؟؟ هل يخدع نفسه أيضًا بحجة أنه يدبر خطة ليروي غليله منها!!؟أم أن تلك الشيطانة الحمراء ما تزال تملك صك ملكيته، وما يزال عبدًا في محراب عشقها!!؟ ازدرد ريقه بصعوبة بالغة وقد اشتدت عروقه، وأصابعه تتمسك بمقابض مقعده هاتفًا بنفسه بقسم أكثر منه تهديد: «لو كان دمي اللي بيـچـري في عروقي هو اللي بيغذي جلبي بعشجك وبرائتك المزيفة، كنت جتلت نفسي بدل المرة ألف ألف مرة، حتى لو كان بيصرخ بغرامك لآخر دجة يا ناريسا»

أخرج الهواء من صدره ليعب دفعة جديدة باحثًا عن بعض الهدوء.... يكاد يفقد عقله من التفكير، تتنازعه قوتان رهيبتان.. أخيراً استسلم سامحًا لنفسه أن يتأملها... يتأملهما معًا... وقد استسلمتا أخيراً للنوم... شيطانته الحمراء وعلى صدرها نامت شيطانتها الشقراء، ملاكها كما تسميها، وقد وضعت إبهامها في فمها تمصه باطمئنان... كيف يمكن أن ينبت شيء شرير جدًا، ومؤذٍ من لوحة جميلة معبرة لدرجة الألم!!؟ لوحة تخطف قلوب أعتى القساة والمجرمين!!؟ ولكنه لن ينساق لهذا... وسيحصل عن انتقامه من مغويته، ولكن ليس قبل أن تسدد كافة ديونها... خاصةً أول دين... (المنديل)!

كانت سيارته بانتظارهم في الموقف الخاص بالمطار... همت بالدخول مع لوسي عندما أشار لها ببرود:

«خليها ورا في كرسيها، وأمنيها بالحزام»

لم تجادله؛ فقد كان من الأمان للوسي فعلًا أن تكون في الخلف، رغم أنها تشك أن هدفه الحفاظ على سلامتها... أعطت الصغيرة لعبتها، وطمأنتها وعادت تجلس في المقعد الأمامي... وانطلق بسيارته... وكانت المرة الأولى أيضًا التي تراه يقود شيئًا غير حصانه... لم تستطع إزاحة عينيها عنه وهي تتذكر اليوم الأخير، عندما كان يختال بجواده وهي تراقبه بقلب موجوع بالعشق.

«في البلد عارفين إننا عايشين مع بعض من شهور»

أجاب نظرتها المتسائلة قبل أن تفتح فمها:

«أنا فايت البلد من سنة ولا أكتر... كت في اليونان، في مشوار شغل ومعاودتش من ياميها»

«ومحدش هيسألك انت خبيت لوسي ليه كل الوقت دا!؟؟»

«أنا أصلًا مبتصلش بحد من يوم ما أسافر لحد ما أعاود... ومحدش ليه عندي حاجـة... هيعرفوا في وجتها وخلاص... في سؤالات تانية يا... مدام؟؟»

أشاحت بوجهها تراقب معالم الطريق التى اشتاقت لها، وإحساس يراودها بذكرى بعيدة وكأنها سنوات ضوئية، يوم عودتها ولقائها برافع: «لأ... شكرًا»

اطمأنت على لوسي بنظرة خاطفة للخلف، وعادت تحدق في الفراغ تفكر في اقتراب ساعة الحقيقة... ابتسمت متخيلة وجه رافع محمرًا من الإحراج، ولا يجد من الحروف ما يستطيع التكفير به عن خطئه في حقها.

ابتسمت للفكرة وأغمضت عينيها تتخيله في هذا الموقف... بعد وقت طويل استسلمت فيه للنعاس يغمرها إحساس غريب بالدفء رغم كل شيء....

لم تدر تمامًا ما الذي أرقها... الصوت المعتاد الذي نامت عليه اختفى فجأة... فتحت عينيها لتجد السيارة متوقفة... التفتت بهلع تطمئن على لوسي... ثم

هدأت على الفور عندما رأتها نائمة بوداعة... كان مقعد السائق فارغًا والرؤية معدومة في الأمام؛ فقد كان غطاء السيارة الأمامي مفتوحًا ورافع يختفي خلفه... نزلت باستغراب ترى ما يحدث... كان رافع غارقًا بنصفه الأعلى داخل السيارة التي على ما يبدو أنها معطلة.... مدت عنقها لترى ما يفعل... غاص رأسها داخل السيارة ثم سألته فجأة: «هو فيه إيه؟؟»

ولو بعد سنوات... لن يفهم كلاهما كيف حدث ماحدث.... كان غارقًا في أفكاره تمامًا للوصول لمكان العطل، عندما فاجأته بصوتها الحاد وشعرها الأحمر، تخترق كل دفاعاته الحصينة برائحة عطرها المثيرة، وبجواره تمامًا... بحركة مضادة، عاد للخلف بحدة ليصطدم مرفقه بوجهها بقوة... تراجعت للخلف متأوهة تضع يدها على عينها اليسرى تصرخ من الألم.... اقترب يرغي ويزبد منها محاولًا أن يعرف ما أصابها، ولكنها ظلت متمسكة بعينها تخفيها وهي تدور حول نفسها تصرخ باكية... أمسك بكتفيها ليوقفها:

«زينة.... اثبتي مكانك علشان أشوف إيه اللي حصل!»

وقفت تدبدب بقدميها في الأرض باكية:

«اللي حصل إنك طيرت عيني»

«ابعدي إيدك علشان أشوف»

بحذر أبعدت يدها، لتنهمر الدموع من عينها المحمرة. زمجر بتوبيخ:

«نفسي أعرف انتي كنتي بتعملي إيه جنبي، نفسي أفهم»

رفعت رأسها تحاول رؤيته من خلال عينها السليمة متسائلة: «انت مش بتتكلم صعيدي! دا معناه إن مزاجك بيروق بس لما أكون موجوعة!»

زمجر بحنق:

«يوووووه يا زينة... هو دا وجته!؟»

بتأفف هدرت: «رجعنا للصعيدي تاني»

دفعها لتجلس في السيارة:

«لازم نعمل لعينك كمادات.... مفيش فوطة ولا حاجة نضيفة؟»
«في شنطة لوسي فيه فوط نضيفة»
غاب لحظات وعاد بالفوطة المبللة، وضعها على عينها وأمرها أن تبقيها مكانها... ثم غاب مرة أخرى ولكن هذه المرة في مقدمة السيارة.... طالت اللحظات هذه المرة حتى سمعت صوت هدير المحرك يرتفع بقوة... عاد يمسح يديه في فوطة السيارة ثم انطلق من جديد دون أن يكلف نفسه عناء نظرة أخرى نحوها... وعند اقترابهما من مشارف البلدة التفت إليها:
«أخبار عينك إيه دلوقتي؟؟»
رفعت الفوطة ونظرت إليه ليغمغم بوجوم:
«ده اللي بيجولوا عليه... فال عفش صوح»
رغم إحساسها غير المبشر، ولكن عندما نظرت في المرآة لم تكن محضرة تمامًا لهذه الهالة حول عينها، المختلطة الألوان بين الأزرق والأرجواني... شهقت: «أنا لو حلفت لهم إنك ضربتني عن غير قصد محدش هيصدقني!»
أومأ بابتسامة هازئة
«عشان إكده... لازم التمثيل يستحق أوسكار... كنت ناوي نروح على بيت الرحايمة... بالمنظر دا... لا رحايمة ولا بداري.... هنروحوا على بيتنا»
«بيتنا!؟؟ إحنا عندنا بيتنا!؟؟»
«إيوه.... بنيته علشان أعيش فيه لحالي.... هو أحسن مكان دلوك.... نريحوا شوية وبعدين نكلم أهلي وأهلك.... خلي الوجعة توبجى واحدة ونخلص»
ألقت نظرة أخرى في المرآة، ولم تجد فائدة من المعارضة.

وقعت في غرامها من أول نظرة... تلك الفيلا الصغيرة التي تحتضن حديقة الزهور المنسقة.... تلفتت حولها بانبهار وهي تحمل لوسي، التي بدأت بالاستيقاظ

لتشارك أمها الفرحة بالمكان حولها... كادت تسمح لها بالنزول عندما أوقفها بحدة:

«انتي هتعملي إيه!؟؟»

« هنزّلها تلعب... البنت محبوسة بقالها ساعات من الطيارة للعربية»

لوّح بيديه مشيراً للأعلى: «فوج... فوج... انتي عاوزاها تنزل وتخرب الـچـنينة!؟ وحاچـة تانية.... البت دي معايزش أصادفها في أي مكان... طول ما أنا موچـود هي تتغابى في أي مكان بعيد عني»

أخفت دموعها في شعر صغيرتها، تقبلها باعتذار عما سمعته، شاكرة أنها لم تفهم كلمة واحدة مما يقال، غير أن عقلها الصغير لم يستوعب حقًا، لم لا تسمح لها أمها بالنزول للعب في هذا المكان الجميل... غمغمت بصوت مخنوق:

«أي أوامر تانية؟؟»

«ادخلي وارتاحي.. اختاري أي أوضة من الدور التاني ما عدا جناحي... هتعرفيه لما تشوفيه»

سلخت نفسها من نظراته المحتقرة، لا تعرف لأي مدى ستستطيع الاحتمال.

أطعمت لوسي قبل أن تغفو من جديد، لتدرك أن الرحلة أجهدتها فعلًا، كما أجهدت صغيرتها، فلم تشعر بنفسها وهي تسلم راياتها.

استيقظت بتركيز ضائع لا تعرف أين هي تمامًا.... تلمست العرق على جيدها لتدرك أنها لا يمكن أن تكون في باريس.... ولكن الخبر الأكيد أنها نامت طويلًا؛ فالظلام يكاد يحاصر غرفتها الصغيرة.... نهضت تستجدي حمامًا منعشًا... وقبل أن تفكر في كيفية استحضار ملابسها، وجدت حقائبها متراصة بجوار الباب.

نظرت للباب المغلق، ثم لصغيرتها، وارتسمت ابتسامة ناعمة قائلة بهمس:

«دادا كان هنا يا سكرتي... لما نشوف يا رافع... آخرتك إيه معايا»

أخرجت ملابسها من الحقيبة وخرجت تبحث عن الحمام... من شدة غضبها لم تستمتع بمشاهدة المكان في المرة الأولى، وفتحت أول باب ودخلته متوقعة أن

جناحه الذي يخشى علي نظافته من صغيرتها قد يكون في آخر الردهة... ولكن الآن عليها البحث عن الحمام... كانت أمامها ثلاثة أبواب مغلقة... لابد أن أحدها الحمام والآخر الجناح المحرم... والأخير... ربما غرفة نوم إضافية.... وقفت حائرة لا ترغب أن تفتح الغرفة الخاطئة... بدأت بأول غرفة بعد غرفتها... كانت غرفة أخرى تشبهها ولكنها لا تبدو كجناح رئيسي... دق قلبها بجنون وهي تستعد لفتح الآخر بعد أن استعدت لمواجهة حظها السيء.... ولكن يبدو أن الحظ قرر الابتسام... تجهمت وهي تغلق الباب.. إلى متى؟؟

❂❂❂❂❂

غادرت حمامها منتعشة، وشعور جديد يراودها... أنها على استعداد لمواجهة رافع... وقبل أن تستشعر هذا الإحساس لتعتاده، كانت تصطدم به أثناء خروجها من الحمام بدون انتباه.

أما هو، فلم يعلم ما الذي حدث له... فجأة وجد كتلة من الشعر الأحمر تلفحه باندفاع متطاير... كل ما يتذكره أنه ترك لغريزته المشتاقة لهذه الشعلة النارية أن تستغل الفرصة، ليحيطها بذراعيه ويثبتها على الحائط محدقًا بعينيها الزرقاوين المشتعلتين... تساءل مزدردًا لعابه..

« ازاي... السما الزرقا، بسحابها، شمسها، وقمرها في عتمة الليل... ازاي ممكن يكون جواها كل النار دي؟»

تلمس بشرتها الناعمة، متمتمًا مغلقًا عينيه مكتفيًا برائحتها المنعشة، التي بدأت بالاستيلاء على حصونه تدكها دكًا: «ناريسا!»

بصدر لاهث سألته: «معناها إيه؟؟»

فتح عينيه يلتهم تفاصيلها قائلًا بهمهمة:

«كلمة أصلها فرعوني، معناها النار الحمراء المشتعلة... انتي نار... نار حرقت كل من قرب منها... ولسة بتحرقي»

فجأة ابتعد عنها قائلًا بنبرة باردة، لا تمت بصلة للشغف الذي كان يسيطر عليه منذ لحظات:

«البسي حاجة محترمة... أهلي وأهلك على وصول»

تركها واقفة مكانها وذهب... هكذا بكل بساطة... أشعل فتيل مشاعرها التي طمرتها طويلًا... طويلًا جدًا.

«ماما... ماااامي»

انتبهت لصوت لوسي.. أسرعت إليها... ولكن لدهشتها كانت ما تزال نائمة... قبلت جبينها متنهدة.... المسكينة تناديها في نومها!

ارتدت ثيابها التي اختلفت تمامًا عما كانت ترتدي سابقًا... وقفت أمام المرآة فخورة بنفسها؛ فقد أصبحت أمًا... ثوبها الصيفي البسيط بفتحة العنق المعتدلة وطوله لأسفل كعبيها، ناسبها تمامًا... إن لم تمتلئ تمامًا كأي أم في وضعها.... ولكن... منذ متى كان وضعها طبيعيًا!؟ تلمست الكدمة الزرقاء حول عينها... لم يتحسن وضعها أبدًا.... على رافع أن يبذل مجهودًا كبيراً ليستطيع إقناعهم أن الأمور بيننا بخير فعلًا.

صوت رافع بنغمة غريبة يناديها من أسفل:

«حبيبتي... انزلي لو سمحتي»

لابد أنهم وصلوا... ألقت نظرة أخيرة على لوسي، وخرجت بعد أن تركت الباب مواربًا لتسمعها.

«زينة حبيبتي... أهلك وصلوا.... انتي فين؟؟»

وقفت مسمرة مكانها، تستمتع باستغراب بصوته يناديها بنغمات التحبب... ثم بدأت بالركض.



۞ ١٥ ۞

«إذا أحب الرجل امرأة سقاها من كأس حنانه،
وإذا أحبت المرأة رجلًا أظمأته دائمًا إلى
شفتيها»

– بيرون

....

كان ينتظرها أسفل الدرج بابتسامته الغريبة تشوه وسامته الطبيعية.... مد يده لاستقبالها، ترددت قبل أن تضع أناملها في راحة يده الكبيرة، بقشعريرة زادت حتى الرجفان، وهو ينحني ليقبل وجنتها بنظرة متوعدة.

التفتت لتواجه الشهقات التي توقعتها تمامًا، وأمها تمسك يدها وتتأمل الكدمة الملونة في عينها. ازداد التوتر ورضوان وسيف يتبادلان النظرات المحتقنة، وأمها تسألها:

«إيه دا يا زينة!!؟ مين أمل فيك كده!!؟؟»

ولم يحتمل سيف الانتظار حتى سماع الإجابة، كالمعتاد سبقت أفعاله تفكيره، فهجم على رافع ممسكًا بتلابيبه يكيل له اللكمات، التي أفقدت هذا الأخير صوابه محاولًا السيطرة على نسيبه؛ وعندما تأكد أنه لا فائدة، اتخذ وضعية الهجوم وهم يكيله من نفس مكياله، بصعوبة استطاعت زينة احتلال الفراغ المعدوم بينهما صارخة بكل قوتها:

«إيه اللي بتعمله دا!!؟ مش تستنى لما أجاوب!؟ انت مفيش فايدة فيك يا سيف!؟ لسة زي ما انت!؟»

لاهثًا بانفعال:

«عاوزاني أسمع إيه!!؟ بكفاية اللي شايفه بعيني.... ولا عاوزاني أصدج إنه مبيضربكيش، وإن اللي في وشك دي وحمة طلعت لك على كبر!؟»
زمجر رافع بتحدي:
«أيوه أنا ضربتها انت مالك!؟ مرتي وأنا حر فيها!؟»
أوقف رضوان العراك:
«وجف عندك انت وهو.... مفيش احترام لوچـودي!؟»
زفر الرجلان مشيحان بوجهيهما، فتوجه إليها رضوان يمسك بوجهها يتأمله بحب وألم:«احكيلي يا زينة... چـوزك اللي عمل فيكي إكده!؟»
بدون تردد:
«لأ يا بابا.... كانت حادثة... وأكيد رافع مش السبب»
رمق ابنه متنهدًا بغيظ:«سمعت يا سيف؟؟ اتأسف لـچـوز أختك... انت غلطت في حجه»
دفعه رافع بزفرة تأفف:
«معاوزش أسف.... عاوزه يشغل عجله جبل ما يتورط في مصيبة لا سمح الله... ولا إيه يا عمي رضوان؟»
«عليك نور يا رافع يا ولدي... بس تجول إيه... نجول طور يجول احلبوه»
ضمتها فاليريا بشوق، تنشقت رائحتها بتنهيدة، ثم التفتت لهّنا التي ازدادت طولًا حتى قاربت لكتفيها... احتضنتها بشوق وهي تداعب شعرها بعيون شاردة.
ربت سيف على ظهرها:
«متآخذنيش يا زينة.... لما شفتك الدم ضرب في نافوخي... انتي خابرة خوكي»
«خابرة يا سيف... ربنا يهديك... اتفضلوا واقفين ليه!؟ وحشتوووني أوي»
رافقهم رافع للصالون، بينما أوقفها سيف متسائلًا بهمس: «ويلد الرفضي ده لجاكي كيه!؟»
أجابت على سؤاله باتهام:

«انت شايف إنك لما تخبي عني إنه مطلقنيش دا تصرف صح!؟؟»
«اسمعي يا زينة... بعد اللي حوصل في الـچوازت التانية معادش ينفع إنك توبجي على ذمته»
«انت شايف كده... بس للأسف أنا ورافع شايفين حاجة مختلفة... ودي حياتي أنا وهو بس... محدش ليه إنه يتدخل فيها... سامعني يا سيف؟ وكمان هو هيقول لكل الناس إن لوسي بنته... لو كنت مكانه كنت هتعمل كده؟؟»
هدر باندفاع: «لع طبعًا»
هزت رأسها بأسف:
«ماما بتنادي عليا... عن إذنك»
رمقها رافع بازدراء أخفاه بمهارة، وهو يعود لحديثه مع رضوان... بينما تهامست السيدات بخفوت.
«زينة حبيبتي»
رفعت رأسها بدهشة... لتدرك مرة أخرى أن رافع ما يزال يمثل دوره باقتدار:
«أيوه.. نعم يا..... حبيبي؟»
«أهلي يظهر وصلوا... ممكن نستقبلهم سوا؟»
«أه طبعًا»
اعتذرت من أهلها، وهي تنهض، لتفاجأ بذراع رافع تحوطها بابتسامته الزائفة المربكة... فتحت الباب لتهب حماتها تتعلق بعنق ابنها تبكي بشوق وفرحة... صافحها وهدان باحترام حذر، وبعده نجلا، الوحيدة التي كانت تحيتها صادقة تمامًا، ثم ركضت لتلتقي بصديقتها... وآخر الوجوه كان جاسر... مدت يدها تصافحه ببرود. وهمت بسحب يدها فورًا، ولكن أصابعه أحكمت الطوق على أناملها الهشة، مدققًا النظر لملامحها، وكأنه يستعيد ذكرياته معها... شعرت بخوف مبهم وهو يسألها: «كيفك يا زينة؟؟»
حاولت مرة أخرى جذب يدها فلم يسمح لها:

«أنا كويسة... اتفضل»

صوت نحنحة رافع أجبرته على الابتعاد فورًا، وهو يصافحه ويحتضنه... لم ترتح لردة فعل زوجها وهو يحدجها بقسوة، وكأنها تعمدت التمسك بيد ابن عمه بهذا الشكل... بصوت متشدق هتفت حماتها وهي تعانقها ببرود:

«أهلًا يا مرت ابني... حمد الله على السلامة... اتوحشناكي جوي... طولتي الغيبة»

«الله يسلمك يا طنط... اتفضلي»

شهقت بحركة تمثيلية مشيرة لعينها المكدومة، وبيدها الأخرى تربت على كتف ابنها بفخر:

«كبدي يا نضري!! إيه اللي صابك في عينك؟؟»

«ولا حاجة يا طنط.... اتخبطت في الباب»

«اوبجي خدي بالك، لبعد الشر يوحصلك حاجة عفشة»

«اتفضلي يمّا... چماعة عمي رضوان موجودين»

«والله؟ لا مؤاخذة يابني... العتب على النظر»

كان اللقاء باردًا كما هو متوقع، كانوا يتبادلون نظرات المجاملة الفاقدة لأي نوع من الود، حتى سمعوا أنين وصوت باكٍ ينادي أعلى السلم:«ما.. ما.... ما... مي... يا ما... ما.... يا ما.... مي»

ركضت زينة بلهفة، بينما وقفوا جميعًا، نصفهم تغمرهم فرحة، ولهفة لرؤيتهم الصغيرة لوسي أخيراَ، ونصفهم الأخر مذهول تمامًا.

حملتها ونزلت تحملها محيطة جسدها الصغير بحماية، لتجد رافع بانتظارها يشد على كتفيها بقوة، وكأنه يجتاز الامتحان الفعلي لقوة الأعصاب:

«بابا... ماما... أنا آسف إني خبيت عليكم... لما صالحت زينة لقيتها محضرالي أحلى مفاجأة»

هي وحدها أدركت سبب تغير لهجته في هذا الإعلان... التصرف لم يرتق لردة فعل الرجل الصعيدي حار الدماء، لذلك لجأ لجانبه الآخر المتمدن الذي يمكنه ذلك، والذي يعرفه جيدًا، تدرك المقدار الهائل الذي يستخدمه من ضبط النفس بمجرد ملاحظة ليل عينيه المظلم، وكأن قمره خُسف منه بلا عودة.

بعد مرور الصدمة كانت هنّا ونجلا أول من اختطف الصغيرة، التي على الفور انخرطت معهم سعيدة بكونها محور اهتمام الجميع... حتى ست الدار ووهدان استبدلت ملامحهم العبوسة لأخرى سعيدة فرحة، خاصة عندما بدأت لوسي بالتنقل بينهم للتعرف على الوجوه الجديدة، وفرضت الصغيرة حبها الفطري في كل القلوب... ما عدا القاسية منها، حيث كان جاسر ورافع الرائدين في رفع رايات العصيان.

أومأ رافع بشعور متأرجح بين الرضا والغضب، متسائلًا إن كانت النتيجة تستحق كل هذه التضحية... ولكن هل سيستمر هذا السلام المتوتر طويلًا؟ خاصةً بعد أن يخرج المارد الصعيدي من قمقمه ليغسل شرفه، الذي دنسته شيطانته الحمراء.

لم تكن نظرات رافع وحدها هي التي تسببت بإجهاض فرحتها بلقاء أهلها بلوسي، جاسر أيضًا كان يرمق الصغيرة بعداء غريب، وهي بفطرتها تجاهلت وجوده... ظل يرمقها بنظرات مزيج من الألم والحسرة... حتى رافع لم يخف عنه ما يحدث....

❂❂❂❂❂

هتف رضوان بصوت مرتفع من فوق الضجيج:

«بالمناسبة الحلوة دي، الكل معزومين عندي بكرة إن شاء الله نجضوا اليوم كلاته بالجنينة؛ علشان البرنسيسة لوسي تمرح وتنبسط»

صاح وهدان بعصبية وتحدي الرجل الصعيدي الذي لا يفوته واجب:

« والله لا منكن أبدًا... العزومة دي عليا أنا... عنك انت يا حاچ رضوان»

لوح رضوان بيده معترضًا:«لا والله يا حاچ وهدان... هو انت شايفني صغار جدامك!؟ ولا إحنا مش هنعرفو نضيفوك، انت والرحايمة كلاتهم كمان!؟»
«مش الجصد يا حاچ رضوان.. بس العوبارة...
أوقف رافع الجدل قبل أن يتطور:
«خلاص يا جماعة... يوم عند الحاچ رضوان لأنه هو اللي بدأ بالعزومة... واليوم التاني عند الحاچ وهدان... إيه رأيكم؟؟»
اهتزت الرؤوس بالرضا، فتنفس رافع الصعداء.
عاد الجميع لتوجيه اهتمامهم لتلك الشعلة الصغيرة من الحركة، ولم يلاحظوا تقطيبة رافع العابسة ونظراته المزدرية.
افتقدت لوسي الاهتمام بعد انصراف الجميع، حاولت أن تحظى ببعض منه بتسليط بعض من سحرها ممزوج بابتسامة تعرف تأثيرها جيدًا على الكبار ولم تخطئ هدفها أبدًا إلا مع ذلك الجلف الصعيدي، دفعها عنه في فورة غضب من نفسه، لتسقط الصغيرة باكية على الأرض، وهي تحدق به مصدومة، لا تصدق قسوته غير المبررة لمنطقها الطفولي، بعد فيضان الحنان، الذي تدفق من كل حدب وصوب في الساعات الأخيرة!
ركضت زينة نحوها تحملها صارخة بوجهه كاللبؤة المفترسة: «وهي ذنبها إيه علشان تعاملها بالوحشية دي!!؟»
بنظرة هازئة أمال عنقه باستخفاف:
«معلش يا ست الحسن، أصل أنا مش زي چـاسر ابن عمي... مبعرفش أسبّل ولا أتسهوك»
هتفت بتردد:«قصدك إيه؟؟ مش فاهمة!»
«والله!؟ لا انتي فاهمة مليح... يظهر إن چـاسر هو اللي باجي متحرجش بنارك»
«انت أكيد مجنون!!»

«اليامين الـچـايين هنتـچـمعوا كتير.. اصحك اللي حوصل الليلة يوحصل تاني.. مخابرش هجدر أمسك نفسي لإمتى... اتجي شري يا...»
وترك نظراته لتبلغها أنه يعاف مجرد ذكر اسمها على لسانه.
حملت ابنتها تختفي بها بعيدًا عنه... عن كل ما يضمره من أذى وكره... تتمنى لو تخفيها في أحشاءها التي لم تحملها، ولكن حملها قلبها الموجوع بعشقه.
مر اليوم الأول بدون أي مشاكل. لولا توتر رافع الراقد فوق سطح ابتسامته الزائفة، لأقسمت أنها لم يمر عليها يومٌ يمثل هذا السلام من يوم ولدت.
وكذلك مر اليوم الثاني... حتى نظرات جاسر الغريبة المستترة تجاهلتها، وقد بدأت تفهم أخيراً سر عداء سمحة الغريب والمفاجئ تجاهها... لم تصدق، ولكن إحساسها لم يكذبها أبدًا... حاولت تجنبه بكل الطرق وتجاهله تمامًا... وقبل أن ينتهي اليوم الذي قضوه في حديقة سراي الرحايمة، ما بين مداعبات لوسي الصغيرة، ومحادثات جماعية، تخللتها الضحكات والنكات مثل أي عائلة طبيعية، حتى فاليريا وست الدار جمعت بينهما محادثات جانبية، وكأنهما صديقتا العمر.... لم تكد تصدق أن خطة رافع على وشك أن تنجح فعلًا... رغم أن معظم فضل نجاحها يعود للوسي الصغيرة، التي أذابت العداء بين العائلتين بسحر برائتها، والتي لم تستطع اعتى القلوب القاسية اعتراض طريقها.
اختفى جاسر داخل الدار لبعض الوقت بعد أن فاض به احتماله تجاهلها له طوال الوقت بينما تستجدي نظرة من رافع الذي لا يعلم سر بروده معها رغم ادعائه العكس، ليعود معفراً التراب تحت أقدامه، وكأنه عاصفة تكتسح بطريقها الأخضر واليابس... يسوق أمامه هنّا ونجلا شاحبتين بهلع، وملامحه لا تبشر بأي خير... انتفض الجميع من أماكنهم وقد انقلبت الوجوه الضاحكة لمتجهمة بالكثير من علامات الاستفهام... بينما وقفت الفتاتان ترتجفان على نحو يوجع القلوب... هتف جاسر بتهكم:«طبعًا كلاتكم خابرين إن المحروستين هنّا ونـچـلا كان دورهم

إيه في چـوازات الشوم اللي حوصلت... بس اللي ماتعرفهوش... إنهم كانوا مرتبين كل شي مع المدعوج زيدان»

هتف وهدان بصوت هادر:

«إيه اللي انت بتخترفه دا يا چـاسر!؟ انت شربان منجوع البرك اللي بتتعطاه وچـاي ترمي بلاك على البنتة!؟»

«لا يا عمي... أنا سمعتهم بوداني لما كت چـوة، وهم يتودودوا سوا وبيتحاكوا عن خطتهم واللي عملوه... كانوا داسين الورج في إيديهم ومختارين مين هيتـچـوز مين... عرفت يا رافع كيه اسمك وصل للجرعة وانت خاطب بت عمك؟؟ عرفتي يا زينة هانم اسمك وصل كيه؟؟ بدسيسة من الكلبتين دول»

هب سيف مدافعًا عن أخته:

«احفظ أدبك يا چـاسر!!»

«روح ربي أختك اللول يا سيف بيه، جبل ما تتحمج جوي إكده!»

صرخ وهدان:

«نـچـلا! اللي بيجوله واد عمك دا صوح!؟؟»

تبادلت الفتاتان النظرات المرعوبة، ثم أومأتا بصمت.

تدخل رافع أخيراً:

«انتم عاوزين تحملوا البنتين إيه بالضبط!!؟أسباب فشلكم في جوازاتكم!؟ ولا يمكن هتحملوهم كمان ذنب موت رشاد وطفشان فريدة!؟»

صرخ جاسر بصوت هادر:

«كل دا حوصل بسبتهم!!»

«لا يا چـاسر... لا يا ولد عمي... أكتر من ده كان بيوحصل من غير اللي عملته هنّا ونـچـلا... يمكن... مش يمكن... أكيد هم عملوا إكده بسلامة نية.... أكيد كانوا عاوزين الـچـوازات دي تنـچـح... صوح يا نـچـلا؟»

تمتمت بصوت باكٍ:

«آه والله يا خوي... خفنا لو الـچوازات منفعتش ترچـعوا تمسكوا في خناج بعض تاني وتتعاركوا»

أكملت هنّا:

«علشان كده اخترنا أكتر أشخاص بيناسبوا بعض»

صرخ جاسر كالمجنون:

«بعرف مين!!؟ مين جالكم إن سمحة تناسبني وزينة تناسب رافع!؟»

ضاقت عيون رافع باستهجان، فاستدرك جاسر بسرعة:

« ولّا فريدة الغلبانة تناسب رشاد!؟ ولا معالي اللي كان نصيبها مع سيف!؟»

عقد رافع ذراعيه على صدره:

«بس أنا وزينة مناسبين لبعض يا چـاسر، وربنا رزجنا ببنت وعايشين بسلام والحمد لله... يمكن اختلفنا في اللول... بس صلحنا من أحوالنا وعايشين... وعلى ما سمعت إن مرتك حامل... يعني لو فكرت شوية وخزيت الشيطان هترچّـع مرتك وتعيش معاها بما يرضي الله»

«جولك إكده؟ حاضر... حاضر يا رافع بيه... أوامرك... ما انت الكبير ويلد الكبير، ولازمن كلاتنا نطيعوا... حاااضر، إش أكون أنا علشان أعترض ولا أفتح خاشمي بكلمة!؟ حاضر هبلع بولغة جديمة وأرچـع سمحة ويا دار ما دخلك شر»

وانصرف تتبعه زوابعه.

وقف رضوان يعلن انصرافهم.... أحاط هنّا بذراعه ليحميها من زغرات سيف بابتسامة مطمئنة... ارتاحت فاليريا وهي تتبعهم متأبطة ذراع ابنها تعطيه جرعة مهدئة، تنفع مع والده في معظم الأحيان، ولكنها تجد صعوبة في الوصول لسيف.

ركضت نجلا هاربة لغرفتها، حتى أوقفها صوت والدها الصارم المزلزل مناديًا باسمها، تسمرت مكانها مسترقة نظرة لأمها التي تنهدت بتعب وهي تقف بينها وبين والدها: «بالهداوة يا وهدان»

«بعدي من طريجي يا حاچة، البت دي يظهر إنها عاوزة رباية كيه ما چاسر جال... بجى انتي يا مسخوطة.. والبت السهتانة التانية دي.. تعملوا كل العمايل دي، وتلعبوا بالبلد كلاتها نسوان ورچالة!؟»

مد يده ليمسكها فصرخت مستنجدة بأمها:

«أحب على يدك يمّا!»

زغرتها مرة أخرى بنظرة حارقة متوعدة، ثم التفتت لزوجها:

«خلاص يا حاچ اللي حوصل خلص، هنعملوا إيه يعني، الفاس وجعت في الراس واللي كان... كان»

«عارف إن مفيش في يدنا حاچة نعملوها... بس كنه خابور طالع من نافوخي... والأكادة بتي... بتي آني هي أس الملعوب ده... خابرة لو كانت السهتانة التانية وحديها، كت جلبت الدنيا فوجاني تحتاني وخليت الدم بحور ملهاش نهاية... آه يا مجصوفة الرجبة، همليني يا حاچة أجطم رجبتها ف يدي»

أفلتت منه بصعوبة راكضة لغرفتها لاهثة... تاركة أمها تعمل على تهدئته.

نظرت لتليفونها يرن... أغمضت عينيها تعتصر دموعها وهي تجيب بصوت مخنوق:

«إيوه يا هنّا...»

۞۞۞۞۞

ركضت هنّا صارخة وسيف يركض خلفها.. اختبأت خلف أمها بينما وقف رضوان بينهما:

«همل خيتك يا سيف»

«أهملها يابوي!؟ اللي حوصل ده آخرة چلعك ليها... ياما جلتلك لازمن توجفها عند حديها، هي والتانية اللي دايرة على حل شعرها»

صرخت فاليريا بحرقة:

«إيب سيف!! مش تكول على أهتك كلام وهش!!»

«أنا!!؟ أنا اللي عيب!!؟ واللي حوصل وبيحوصل ده.. مش عيب!!؟ عاچبكم چراير عمايلها هي والمزغودة التانية بت الرحايمة!؟»

استرق رضوان نظرة لابنته الباكية ترتعش في أحضان أمها، ثم نظر لابنه وسأله:

«عَمَلت إيه يعني!!؟ وفجت راسين في الحلال... إكده ولا إكده كت هتتچوز معالي ولا غيرها... وكله جسمة ونصيب، بمساعدة هنّا ونچلا ولّا من غيرها... ولا زي ما رافع چوز خيتك بيجول، عاوز تعلج خيبتك على شماعة البنتة كيه ما چاسر عمل!؟ ولا انت مصدجت بدل ما توجف جدام نفسك وتحكم على نفسك وتسألها... ليه معالي عملت اللي عملته؟؟»

احمر وجهه وازرد من الغضب:

«بلاش السيرة دي يابوي!»

«وليه!؟ عشان مش عاوز تسمع الكلمتين اللي انت خابرهم زين!؟ وأهه چت الفرصة علشان أجولهم»

هتفت فاليريا: «بلاش ردوان!»

«لع يا فال... لازمن يعرف إن اللي عملته مرته مكانش غلطها وحديها»

شهق بارتياع:«جصدك إنها كانت غلطتي آني!؟؟»

«لع يا سيف يا ولدي... الغلط كان مشترك بينك وبينها.. لازمن تعرف إنك كمان كت غلطان... من وجت ما عجدت عليها وانت حاطط براسك إنك أخدتها من بُج السبع... وشوية وخيشت براسك إن عينها من واد عمها، وشعللت النار فيك كنها كان بيدها إنها تهمله وتتچوزك انت»

«يابوي انت مخابرش»

«لع خابر، واللي ميشوفش من الغربال يوبجى أعمى... وانت كت أعمى البصر والبصيرة.. مفهمتش دماغ مرتك ومحاولتش تعرف... جَسِيت عليها، وبدل ما تطلّع رافع من راسها، خليتها تعاند معاك لحد ما وصلنا للنهاية الغبرة اللي انت خابرها... طول عمرك مش عاوز تفهم إن الحنية والملاغية مش ضعف... الراچل

الصوح هو اللي يملا عين مرته وجلبها وعجلها... الجسوة بتولد العند... والعناد يا ولدي كيه ما انت خابر بيولد والعياذُ بالله الكفر... كام مرة جعدت مع مرتك ساعة مغربية نادمتها وأخدت بحسها!؟ كام مرة اتجـلعت عليك وطلبت منك طلب ونفذته فوري، حتى لو كان غلط!؟ دي حتى لما كانت بتطلب تروح لأهلها كت بتنشف ريجها وماكنتش بتوافج! دلوك عاوز تعلّج خيبتك على خيتك!؟ ياخي روح جبل ما تحاسبها حاسب نفسك لول»

ثم التفت لابنته:

«هنّا روحي نامي، وبعدي عن طريجه»

نظرت لأمها التي أومات برأسها وهتفت:

« هنّا هتروح لأهته هتنام أندها... بعد إذنك يا ردوان»

نظر لابنه ذي الوجه المحتقن، ثم أومأ برأسه:

«خلي الغفير يوصلها بالكارتة»

انتفضت هنّا راكضة لغرفتها:

«هحضر نفسي»

ثم أمسكت بهاتفها الجوال وأجرت اتصالًا سريعًا.

❂❂❂❂❂

فوجئت زينة بطرقات غريبة على الباب.. عندما فتحت اتسعت عيناها بدهشة تستقبل البنات:

«انتم هربتم ولا إيه!؟ طمنوني إيه اللي حصل؟؟»

ضمتهما بقوة... ثم نظرت بأعينهما المكسورة:

«ارفعوا روسكم... رغم إني زي الكل مذهولة ومستغربة... بس زي ما رافع قال.... أكيد كنتو بتفكروا في حاجة كويسة... مش ذنبكم إن الدنيا حواليكم هي اللي وحشة»

«ممكن نبات هنا يا زينة؟؟ نجلا خايفة من جـاسر وأنا خايفة من سيف»

«طبعًا اتفضلوا... فيه أوضة للضيوف في الدور الأرضي... ممكن تساعكم انتم الاثنين»

أطرقت نجلا:

«مش عارفة أجولك إيه... أنا محروچـة منيكي، أكيد انتي كمان زعلانة من اللي حوصل»

«مقدر ومكتوب... اوعي تفتكري إنك انتي ولا هنّا كان ممكن تعملوا حاجة مكانش مقدر إنها تحصل... ربنا بيسبب الأسباب.. وبكرة جاسر وسيف هيفهموا لما يهدوا... وانتي في بيت أخوكي خدي راحتك ماشي يا نجلا؟»

أومأت نجلا، ثم نظرت لهنّا بابتسامة متواطئة.. هزت زينة رأسها:

«مفيش فايدة فيكم... تصبحوا على خير»

صعدت لغرفتها... بتنهيدة حزينة تأملت لوسي نائمة كالملاك.... دوامة الأفكار كانت لا تزال تطحن عقلها، أغلقت الباب بهدوء ونزلت مرة أخرى تتسامر مع الفتيات، ربما تساعدها ثرثرتهما على استدعاء النوم لعينيها العاصيتين... توقفت قبل أن تنزل السلم تحدج ذلك الباب المغلق في آخر الردهة، صوت رافع بنبرته المتعالية يحذرها من الاقتراب من جناحه... داعبت حروف اسمها الذي يدعوها به في قمة شغفه «ناريسا»... غيّرت اتجاهها بتمرد نحو جناحه المحرم... بما أنه فضّل السهر خارجًا هذه الليلة، فلا بأس أن تلقي نظرة... مجرد نظرة على محرابه. فتحت الباب برهبة، وخطت أول خطوة، لتقف مذهولة بعد أن أشعلت الإضاءة... وكأنها مرت من بوابة نقلتها لباريس بكبسة زر... ديكورات الغرفة شاملة الإضاءة والألوان والسجاد، كلها لم ترَ مثيلها إلا في أفخر الشقق الباريسية... مسحورة بدأت قدماها بالتوغل لتغوصا في السجاد ذي الوبرة العالية برسومه الخيالية.... الفراش الملكي الحجم، بغطائه الناري اللون بدرجاته، وفي الحائط المقابل مرآة دائرية معلقة، أسفلها أدراج الزينة، تراصت عليها أفخر العطور الرجالية... ازداد تقدمها عندما لمحت شكلًا مألوفًا لزجاجة عطر... وعندما

أمسكتها لم تصدق ما تراه... إنه عطرها!! تركته جانبًا وأمسكت بالزجاجة الأخرى، فتحت غطاءها لتغمض عينيها ورائحته تغتالها بكل جبروته، وقسوته، وحنان نظراته التي تفتقدها.... رشت منها على معصمها ثم تنشقت رائحته التي احتوتها بعمق... عادت تكمل جولتها لتجد بجانب الحائط الآخر أريكة بلونيها الأبيض والأحمر، تطل من خلفها فروع شجرة تبدو لأول وهلة وكأنها شجرة حقيقية تحمل زهورًا حمراء نارية اللون... كتمت شهقتها وهي تتلفت حولها بجميع الاتجاهات، حتى توقفت أمام الباب المفتوح، وقد تصدره بجسده الفارع يرمقها بنفس النظرة التي تسبب غثيانها:

«كنت بسأل نفسي... إمتى فضولك هيجيبك لحد عندي»

اعتدلت بقامتها وحاولت تجاوزه بسرعة:

«أنا آسفة... مش هكررها ت...»

اقتنص مرفقها قبل أن تتجاوزه تمامًا، وبنظرة تسلية دفع الباب بقدمه، ثم دفعها بخشونة لتسقط على الفراش... تسابقت خفقاتها بهلع مع استمرار تقدمه نحوها باطراد مع تراجعها، حتى وصلت لنهاية الفراش... تراقصت نظرة لعوب بعينيه:«اوعي تكوني مش عارفة أنا عاوز منك إيه»

ثم أردف ضاحكًا: «خابرة ولا مخبراش؟؟ إلا قوليلي بصراحة... انتي كنتي عارفة عن لعبة هنّا ونجلا؟؟ ويمكن تكوني انتي اللي مدبراها كلها، من أولها لحد المشهد السخيف الأخير، لما صممتي على الطلاق»

هزت رأسها بحلق جاف تنفي عن نفسها التهمة، ازداد رعبها وهو يخلع جلبابه الفضفاض، ليقف أمامها ببنطلون أبيض خفيف هو كل ما يستره.... ازداد وجيب قلبها مرة أخرى محاولة الدفاع عن نفسها:

«انت فاهم غلط يا رافع!»

توهجت عيناه بحدية قاسية ذبحت قلبها العاشق بوحشية:

«لأ... أنا فاهم صح... وصح أوي كمان... واللي أنا هعمله دلوقتي مش عشان أنا عاوزك... ولا راغب فيكي... لأ... علشان أدفّعك تمن أول كذبة كذبتيها عليا... وآخد حقي اللي اتخليت عنه... حق ليلة الدخلة يا عروسة... اللي البلد كلها فاكراني أخدته... وكل اللي أنا عملته إني افتكرتك إنسانة نضيفة بجد»

أمسك قدميها قبل أن تفكر في الهروب مرة أخرى، ليجرها لمنتصف الفراش... لم يبالِ بمقاومتها وهو يكاد يزهق أنفاسها من عناقه الشرس... حاولت جذب شعره لتبعده عنها، فثبّت يديها فوق رأسها يحدق فيها لاهثًا، وعيناه تتقدان برغبة متوحشة غاشمة.

«رافع.... أرجوك... أنا هقولك على كل حاجة»

هزها بقوة قائلًا بألم:

«معايزش أسمع... غير حاچـة واحدة... اترچـيني يا زينة... اطلبي مني الغفران»

باكية بانتحاب:

«أنا معملتش حاجة... اسمعني علشان تعرف»

«أسمع!؟أسمع إيه وأنا شايف كل حاچـة بعيوني، ومجادرش أتكلم!؟ كل ما أشوفها جدامي أحس بنار بتحرجني من چـوايا... وكل ما أشم ريحتك أحس إن مفيش حاچـة هتبرّد ناري، إلا دمك محني كفوفي»

صرخت بعذاب:

«وإيه اللي موقفك!؟؟ اقتلني وارتاح... لو كنت هترتاح فعلًا»

أمسك بوجهها بين يديه يهزها بقوة:

«فاكراني خايف من اللي هيوحصل!؟ توبجي متعرفيش رافع... أنا مبخافش... وبتوحصل كتير... وجعت على السلم وانكسرت رجبتها... ويمكن أشيلك بين دراعاتي وأسلمك لأهلك جتة وأجولهم إني غسلت شرفي... هيسألوني سؤال واحد.... مدفنتهاش في أوسخ حفرة وهلت عليها الوحل ليه!؟»

«بالبساطة دي روح إنسان معندهاش سعر عندكم!؟»

«بالبساطة دي، اللي تفرّط في شرفها ملهاش عندينا إلا الموت... بس انتي لسة وجتك مچاش... لما چاسر يصالح مرته، وسيف يسامح مرته... يمكن وجتها تكون ساعتك جرّبت»
ابتعد عنها ينفض نفسه كمن علق به وَسَخ... وغادر غرفته بعد أن أمسك بجلبابه يرتديه في طريقه:
«عاوز أعاود ألاجي أوضتي نضيفة»
انكفأت على وجهها تكتم شهقاتها، وصوت محرك سيارته يشق سكون الليل بزئيره الغاضب قبل أن ينطلق... نهضت مسرعة للغرفة الفارغة، أغلقت عليها الباب، وألقت بنفسها على الفراش تنتحب بعذاب.
زاد من سرعته، يحاول تبريد مزاجه الناري بنسمات هواء الليل الرطبة... وطال به الوقت متسكعًا بسيارته بدون أي تأثير... يزداد غضباً فوق غضبه كلما تذكرها بين ذراعيه يتنشق عطره بين أنفاسها مما أفقده صوابه... لماذا وضعت عطره!!؟ ماذا تريد منه هذه المرة!؟؟ هل ترغب بالموت على يديه، أم بغفرانه الذي لم تتوسله بعد!؟؟
توقف أمام خيش الغجر بعد أن أثار انتباهه صخبهم العالي... ترجل مقتحمًا المكان يتمنى لو يجد فيه ترياقه من الاحتراق بنيران ناريسته الحمراء.
حدق فيه جاسر مهللًا:
«معجولة دي!؟ رافع ولد عمي بذات نفسيته إهنه!؟ وسع يا واد... وسعي يا بت... بت يا نوار، أچدعها چوزة بأچعصها تعميرة للبيه الكبير جوي.... تعالى يا رافع متختشيش... تعالى اجعد چاري»
تهالك رافع بجواره غير مرتاح للمكان ولا للصحبة... ولكنه كان بحاجة ماسة لينسى... وُضِعت أمامه الجوزة يتوهج فحمها، ووجد مبسمها أمام فمه، فأخذ نفسًا عميقًا وأخرجه دخانًا من أنفه وفمه... ولدهشته الشديدة بدأ يساوره شعور غريب بالراحة... فأخذ نفسًا آخر وآخر، وجاسر يصفق مهللًا:

«يا حلاوتك يا ويلد عمي! شد يا خوي... شد.... مع إني مخابرش يابوي... واحد زيك چاي في المحروجة دي ليه!؟ طب آنى عاوز أنسى»

سأله رافع بذهن شارد: «تنسى إيه؟»

لوح جاسر بيده:

«يوووه! أنسى حاچات كتيرة جوي... خد عندك... انسى بت اتشعلجت في هواها وشعلجت جلبي بريحها... أتاري حبالها دايبة دوبتني معاها... هع... هع... والله حلوة وتنفع تغنيها البت نوارة على الربابة... صوح يا نوار؟»

اشتعلت الغيرة بعيون نوار وهي تومئ موافقة:

«صوح يا سيد الناس»

تنهد جاسر مردفًا بصوته المترنح:

«بس يا خسارة! اتـچـوزت... خابر يا ولد عمي اتـچـوزت مين؟؟ اتـچـوزت ولد عمي... شوفت الصدف.. هع هع»

ألقى رافع الجوزة من يده لينتبه لحديث جاسر المترنح: «ومين ولد عمك ده؟؟»

قهقه جاسر ثم شرب ما تبقى من كأسه:

«هيكون مين غيره!؟ انت يا رافع بيه، يا واكل ناسك»

وقف رافع ممسكًا بتلابيب جاسر:

«هي حصلت تـچـيب سيرة مرتي يا كلب في جعدة نـچسة زي دي!!؟»

ركضت نوار خارج الخيش تاركة الرجال يتبادلون الضرب والشتائم، أوقفت مجبورة تسألها بلهفة: «مشوفتيش الواد فركوك؟؟»

«أيوه كان هناك بيتعاطى المدعوج بتاعه ده... كان في الخيشة اللي في الآخر دي... بس انتي عاوزاه ليه يا نوار؟؟»

«شغل يا خالة مجبورة... شغل»

«طيب يختي... إلا هو إيه اللي بيوحصل في خيشك ده يا نوار؟؟»

«دول الرحايمة ماسكين في خناج بعض عشان بت البداري»

شهقت العجوز :

«صوح يا ولاد.... جال اللي يعيش ياما يشوف، عجب والله»

❂❂❂❂❂

تأخر الوقت ولم يعد بعد... أخذت تفرك ذراعيها لتبعث الدفء فيهما.. قد يكون نهارهم صيفًا دائمًا، ولكن ليلهم تصل برودته حد الصقيع أحيانًا... طال وقوفها في حديقة الفيلا تنتظره... لم تدرِ لماذا ولكن حدسها يخبرها أن شيئًا سيئًا سيحدث... لوسي خضعت لإرهاق اليوم ونامت بعد أن استفذت منها ما تعرف من حكايات، والفتاتان تغطان في نوم عميق... وهي أيضًا ستعود للنوم فور أن تلمح أضواء سيارته من بعيد... لن تسمح له أن يشاهد قلقها عليه... لن يصدقها بأي حال من الأحوال.

صوت غريب أثار ارتيابها... تلفتت حولها تمعن التحديق في الظلام... حتى ضوء القمر الشاحب كانت تخفيه سحب سوداء... بدأ قلبها يعلن بجنون دقاته عن توترها... وضعت يدها على صدرها تهدئه.. لا شك أن فأرًا أو قطًا يلهو هنا أو هناك... وعندما ازدادت الحركة صخبًا، قررت أن تذهب لترى بنفسها كي ترتاح من كل هذا القلق... اقتربت من النباتات المسورة حول الفيلا بدون حذر متعمدة إصدار صوت، لعل صوتها يبعد رهبتها من الظلام، خاصةً وهي تحمل في يدها غصن شجرة تهدد به من يجرؤ على إخافتها:

«فيه حد هنا؟؟ فيه حد هنا؟؟»

فجأة، انشقت النباتات المتعرشة عن وجه قبيح بابتسامة قميئة تنقصها معظم الأسنان الأمامية، وشعر لم يعرف مقص الحلاق يومًا... وقد هب عليها برائحته النتنة يحدق فيها بطريقة حيوانية... لوحت بالغصن تهدد بصوت متحشرج:

«انت مين وعاوز إيه؟؟ امشي من هنا قبل ما أنادي صاحب الفيلا، رافع الرحايمي!»

لم يبدُ على الرجل أنه سمعها؛ فلم تتقلص ابتسامته البشعة رغم كل تهديداتها، واستمر في تقدمه المطرد... حدتها رغبة رهيبة في البكاء، ثم تذكرت الفتيات ولوسي... لابد أن توقفه قبل أن يفكر في دخول الفيلا... هدرت شاهرة ما تحسبه سلاحًا:«اسمع... أي حاجة عاوزها أنا هجيبهالك.... عاوز فلوس... دهب.... أي حاجة... عاوز إيه؟؟»

نطق بالكلمة الوحيدة التي أشعرتها باقتراب الأزمة القلبية التي حذرها منها ضياء:

«عاوزك... انتى»

«انت مجنون!!؟ امشي من هنا قبل ما أصرخ وأنادي جوزي... لو شافك هيقتلك»

ضحكته زادت من بشاعته:

«جوزك يا حلوة بيشرب منجوع البراطيش في خيشة نوار الغازية... ومزاجه عال العال»

شحبت وأنفاسها تتسرب من صدرها:

«انت بتقول إيه!!؟انت كداب... رافع مش ممكن يعمل كده.... انت كداب!!»

«لع يا حلوة... أنا فركوك»

قال جملته الأخيرة وهو ينتزع منها غصن الشجرة، ويقبض على حفنة من شعرها ليقربه من أنفه يشمه بقوة:

«جالولي كتير على حلاتك... ومصدجتهمش.... دلوك بس بصمت بالعشرة»

❂❂❂❂❂

خرج من خيش الغجر بمزاج أسوأ من السابق... نفض قبضته الممهورة برذاذ دماء ابن عمه بعد أن كادت تحطم فكه، قاد سيارته وداخله بركان وصلت درجات غليانه للانفجار.... أخذ يلوم نفسه ويوبخها... كيف لم يلحظ نظراته لها!!؟ إمساكه بيدها!!؟ ملامحه التي لانت قساوتها عندما رآها!!؟ أخذ يضرب ظهره

بالمقعد يكاد المقود ينخلع في يده... وعندما تشوشت الرؤية أمامه تمامًا، أوقف السيارة على جانب الطريق... انحنى ليفتح درج القفازات يُخرج علبة السجائر والولاعة... من فرط توتره سقطت الولاعة في الدواسة الأمامية... انحنى يلتقطها لتصطدم يده بشيء آخر... فتح الضوء الداخلي للسيارة يحدق بدهشة في تلك الحقيبة، غريبة الشكل... اعتصر عقله يتذكر أين رآها من قبل... ثم لعن جاسر ونوار والجوزة وكل من يشربها لتذهب بعقله.... فتحها وأخرج ما فيها... كانت حقيبة أوراق... ما أثار استغرابه وجود جوازين للسفر... فتح أحدهما.. أحدهما كان لشيطانته الحمراء المغوية... أغلقه بسرعة ليفتح الآخر، وكان للوسي... تشكلت علامات استفهام كثيرة، محاولًا التركيز وإجلاء ذهنه مما علق به في ذلك المكان القذر... هز رأسه بتنهيدة وهو يغلق صفحاته، ولكنه عاد يفتحه بسرعة عندما التقطت عيناه اسم لوسي الرباعي... ولم يكن الأب هو ضياء كما توهم... التهمت عيناه باقي البيانات، ليجد في خانة الأم اسمًا غريبًا لا يقترب لحروف اسم زينة... زادت علامات الاستفهام بعقله... ما معنى هذا؟؟؟ فتح الصفحة التالية، كانت صورة زينة بجوارها بيانات كثيرة باللغة الفرنسية لم يفهم منها شيئًا بطبيعة الحال... ولكن اكتشافه في حد ذاته كان مثيراً للتساؤلات... ومن المؤكد أن كل الإجابات ستكون عندها.

ضم فمه بعزيمة، وهو يرفع الفرامل ويشغل المحرك وينطلق... مرددًا أقسامه الواحد تلو الآخر أن يذيقها من العذاب ألوانًا، لو كان ما يفكر فيه صحيحًا.

أوقف السيارة في مكانها، وقفز يقتحم الفيلا بخطوات واسعة... صعد لأعلى، تفحص غرفة لوسي، كذلك الحال في الغرف الأخرى... الحمام؟؟؟ وقف حائراَ أين ذهبت؟؟ لا يمكن أن تبتعد عن لوسي... وقف في شرفة غرفته يحدق في الظلام، إلى أن انتبه لأصوات مكتومة... وميز اسمه بنداء مستغيث من بين نبرات الأنين الخافت... نزل مهرولًا يكاد يفقد اتزانه أن يكون أصابها مكروه... تلفت حوله حتى استطاع تحديد مصدر الصوت والحركة.

وقف مكانه يشاهد بعينيه أصعب مشهد قد يتعرض له رجل؛ أن يرى زوجته تناضل بحياتها من أجل شرفها... وتفجرت الحمم المشتعلة من البركان الصعيدي الذي لا تخمد حممه أبدًا، وهو يسحب الرجل من فوق زوجته، يكيل له اللكمات الخطافية قبل أن يترك تلابيبه ليطير عدة أمتار للخلف... التفت نحوها لينطلق عقله من عقاله تمامًا وهي تحاول بخجل أن تداري عريها عنه بعد أن تمزقت ملابسها... أمسكها من كتفيها يحاول طمأنتها:

«زينة... متخافيش أنا معاكي.. انتي بخير؟؟ كلميني يا زينة.. طمنيني عليكي»

نظراتها الزائغة ترتعش بقوة، فضمها لصدره يبثها الأمان... كان يهم بحملها عندما سمعته يشهق وعيناه تجحظان بالألم، وخيط من الدماء ينز من فمه.... رفعت رأسها لترى الابتسامة القميئة لمهاجمها، بعد أن طعنه من الخلف، ثم لوى السكين في جرحه ليشهق بألم متحشرج، تبعته ارتجافة قوية، ثم سقط بين ذراعيها كورقة خريف أسقطتها نفخة هواء.

اختفى المجرم في ثوان. أخذت تحدق في جسد زوجها الهامد لا تكاد تصدق... حاولت مناداته تارة وهزه تارة ولكنه كان كالجثة الهامدة... كانت صرختها المدوية هي التي أيقظت الليل من سباته.

❂❂❂❂❂

«زينة.. زينة يا بتي.. جومي ريحي چـتتك.. انتي من عشية واجفة على حيلك، والفجر جرب يشجشج»

لم تزح عينيها عنه منذ آخر مرة أعلنت فيها الأجهزة توقف قلبه... تهاب أن يذهب ويتركها قبل أن تخبره.

أمسكت الممرضة متوسلة:

«أبوس إيدك خليني أدخل.. دقيقة واحدة بس»

«يا مدام انتي بتحرجيني، الدكتور لو عرف هيعمل لي مشكلة»

«هي دقيقة واحدة وهخرج قبل ما حد يعرف... أرجوكي»

أطرقت الممرضة تفكر فهتف رضوان:«راعي ظروفها يا بتي ربنا ما يوجعك في ديجة»

«طيب بس هي دقيقة واحدة.. تعالي معايا ألبسك ملابس التعقيم»

مسحت دموعها تكاد تطير من السعادة وهي تتبعها...

❂❂❂❂❂

أمسكت يده وقبلتها بقوة، ثم تطلعت لملامحه القوية الحادة... شاحبة هزيلة... اعتصرت عينيها لتمنع دموعها:

«رافع... حبيبي... أنا آسفة إني مقلتهاش ليك قبل كده... وآسفة إني خبيت عنك حقيقة لوسي... يمكن كنت خايفة أقولك... ويمكن كنت بدّيلك فرصة تعرفني أكتر، وتغير فكرتك عني... أنا كنت غبية.. عارفة... كان لازم أقولك على طول... كنت وفرت علينا كتير... بس أنا مكنتش عارفة إنك بتحبني»

«أيوه عارفة... طبعًا هتسألني عرفت منين... من نظرتك ليا وانت بتاخدني في حضنك آخر مرة قبل ما المجرم ي...»

«المرة دي كمان الدم سبق الحب... بس مش لازم نخليه يكسب... لسة في إيدك تكسب الجولة الأخيرة... رافع لازم كلمتك هي اللي تكسب الرهان في الآخر... لازم الحب والسلام هو اللي يجمع بين الناس قبل الدم والخراب... رافع أرجوك ارجعلي... اوعى تستسلم»

«مدام... كفاية كده الله يخليكي قبل ما الدكتور ييجي... هو سمعك، وإن شاء الله هيقوم بالسلامة»

أخذها والدها تنتحب في أحضانه تتوسله أن يدعو له... جلس معها عندما رفضت أن تعود غرفتها... رفضت أن تتحرك بعيدًا عن زوجها وحبيبها... لف رضوان عباءته عليها لتستكين على صدره، وتغفو بدون أن تشعر.

فتحت عينيها على ضجيج غريب في الصباح، لتجد عائلة الرحايمة كلهم مجتمعين، والجميع يحدجون بنظرات كره وافد جديد... أو وافديْن.

قفزت تحدق بفريدة وضياء:

«حمدلله على السلامة... انتم جيتوا امتى؟؟»

عانقتها فريدة تحاول تمالك نفسها:

«كتي عاوزاني مـچـيش بعد اللي عرفته!؟»

جالت زينة بنظرات مرتابة بين الرحايمة وفريدة:

«بس انتي عارفة خطورة الوضع»

تحرك جاسر ليمسك بذراعها بقسوة:

«جيتي لجضاكي يا فاچـر...

ولم يكد ينهي جملته، حتى أصابته صاعقة من قبضة لم يتوقعها... وقف ضياء ينفض يده قائلًا:

«هتقرب من مراتي تاني... هقتلك»

والجميع يرددون بصوت واحد: «مرته!!؟؟»

صاحت فريدة بصوت عال بافتخار:

«إيوه... چـوزي... الدكتور ضياء... أمال كنتم فاكرين إيه!!؟ فريدة المسكينة اللي رميتوها لرشاد من غير ما تسألوا عنها، وبعد ما مات فكرتوا تـچـوزوها أي غفير حداكم عشان تخلُصوا من حملها التجيل... مفكرتوش تـچـوزوها رافع اللي هيطلج مرته، ولا چـاسر اللي طالعين بيه السما... كان يا دوب تستروا اليتيمة الغلبانة مع غفير من حداكم»

اقترب وهدان يحدجها بنظرة نارية، ونبرات كطلق البارود:

«اتـچـوزتي من ورانا يا فريدة!!؟»

جابهته بدون خوف مما أثار دهشته:

«إيوه يا خالي اتـچـوزت... مدورتش على حل شعري... ومامشيتش في الحرام... اتـچـوزت على سنة الله ورسوله... راچـل كل العوايل يتمنوا لبتهم ضوفره»

«وعرفتيه ميتى ده يا بت چـنيدي؟؟»

«عرفته وجت ما عرفته يا خال، تفرج معاك إيه!؟»
شهقت ست الدار تضرب على صدرها:
«شوفوا البت بجت جوية وبـچـحة إزاي!؟ هي دي اللي كانت بتخزى من خيالها!؟»
التفتت لها فريدة:
«إيوه يا مرت خالي... هو آنى... لو كت غلطت مرة واتـچـوزت من وراكم، فكلاتكم غلطتم فيا بدل المرة ألف مرة... وأنا صابرة وساكتة، وعمري ما اشتكيت غير للي خلجني... علشان إكده.. كافاني وچـاب لي ضيا من آخر الدنيا وعترني فيه»
أمسكت بيده فرفعها وقبلها يربت عليها بحنان... ثم نظر للمتجمهرين حولهم:
«أنا أمد إيدي علشان نبدأ صفحة جديد... ننسى ماضي... أنا دكتور ضياء العوشي... من أصل مغربي وأعيش في فرانس»
للحظات ظنت زينة أنهم سيرفضون معاهدة السلام... ولكن وهدان اقترب ليحتضن كف ضياء الممدودة: «مرحب... مرحب بيك يا داكتور... عيلة الرحايمة نورت واتشرفت بيك... متواخذناش.. أخدتنا فريدة على مشمنا... وطالما بتنا متصانة، يوبجى خلاص الخيرة فيما اختاره الله»
اشتد حنق جاسر منتفضًا: «بس يا عمي...!»
رفع وهدان يده:
«جلت خلاص يا چـاسر... فريدة بخير.. وهي شرفتنا بنسب الداكتور.. خولص الحديت»
أومأ ضياء بارتياح مسترقًا نظرة عاشقة لفريدة:
«الشرف لي خالو»
ضحكت فريدة وغمزته: «جُوله يا حاچ وهدان»
ارتبك ضياء مردفًا: «أعتذر... يا حاچ وهدان»

أمسك وهدان بيد جاسر ودفعه ناحية ضياء:
«سلم على چـوز بت عمتك... هم يا چـاسر مد يدك لـچـوز بت عمتك»
صرخة ممرضة بجوارهم أجفلتهم:
«مين هنا مع مدام سمحة؟؟ بسرعة يا جماعة المدام بتولد»
ارتبك جاسر وهمهم بكلمات غير مفهومة:
«بتولد... يعني إيه؟؟»
ربت وهدان على كتفه:
«يعني هتوبجى أب يا چـاسر... روح يا ولدي خليك ريح مرتك ومتهملهاش... إن شاء الله تجوم بالسلامة ويهدّي سركم»
هتف يُجيب الممرضة راكضًا كأي أب بانتظار وليده:«أنا يا ست الممرضة... أنا چـوز سمحة»
أوقفته زينة قبل أن يذهب:
«إن شاء الله خير... أول ما سمحة تولد بوسها في جبينها، وقولها حمدًا لله على السلامة»
«فكرك هتسامحني؟؟»
«بس جرب مش هتخسر حاجة... وأنا هتصل بعمي ومرات عمي أبشرهم إن رشاد جاي»
أطرق رأسه بخجل:
«أنا غلطت في حجك يا زينة»
«وأنا مسامحاك... يلا قبل ما المجنونة اللي بتولد دي تقلب الدنيا»
«على جولتك.... بالإذن»
أمسكتها فريدة من يدها تسألها بتوجس:
«رافع أخباره إيه؟؟»
«ولا حاجة... منتظرين فرج ربنا»

«إن شاء الله خير... أنا هروح أطمّن على سمحة... مش هتاچـي معايا يا مرت خالي؟؟»
كان وهدان يدفعها:
«روحي اطمني على البت... روحي يا حاچـة خليكي انتي الكبيرة في الواجب... وخليها تدعي لرافع.. دعوتها مستـچـابة في ساعة الحزة دي»
«أمري لله رايحة أهه.. خديني معاكي يا بت يا فريدة... ربنا يلطف بيها وبرافع ولدي يا رب»
«زينة... انت كويس؟؟»
«اطمن يا ضياء... أنا فرحانة أوي إنكم جيتو... وأكتر أنك واقف مع فريدة... فريدة تستحق راجل زيك»
«هروح أكلم دكتور، وأسأله عن حالة رافع»
أجرت اتصالًا بأخيها، وطلبت منه أن يبلّغ عمه بدخول سمحة للولادة... ثم لاحظت وهدان يحدثها فاعتذرت من أخيها:«لحظة واحدة يا سيف أشوف الحاج وهدان عاوز حاجة... خير يا حاج؟؟»
«لافيني التلفون عاوز اتحدت معاه»
مدت له التليفون باستغراب، لتسمعه يطلب من سيف آخر طلب توقعته: «بجولك إيه يا سيف يا ولدي... وانت چـاي على المشتشفى، مُر على معالي هاتها في طريجك... كلاتنا إهنه، وهي ملجياش حد يوصلها، ومرت أخوها بتولد... ضروري تكون موچـودة.. ولا إيه؟؟»
تبادلت زينة مع والدها نظرات الاستغراب... ثم أعاد لها الهاتف:
«متشكرين يا مرت الغالي... إيه مستغربة اللي عملته!!؟ فريدة جالتها... كلاتنا غلطنا، ومش غلط إننا نسامح... بكفيانا اللي حوصل»

أغلق سيف الهاتف زافرًا بغضب... سألته أمه:

«خير سيف حبيبي... في مشكل؟؟»
«لع... بس الحاج وهدان طلب مني أمُر على معالي أوصلها المشتشفى»
«ودي فيها إيه.... إزاي هي روه وهدها!؟ انت تكون رادي!؟»
«لع يمّا.. بس...»
«مفيش بس... مألي هاسس بغلط... مش فيها هاجة لما يكون فيه شوية سماه في كلب.... أقول... ممكن رجأها وأاقب هو إقاب شديد... إيه رأيك في فكرة دي؟؟»
« والله يمّا إنك فايجة ورايجة.... لما أروح أشوف»

۞۞۞۞۞

تهدلت ذراعها بجانبها، وسقط التليفون من بين أصابعها دون أن تشعر. لم تصدق ما أخبرتها به زينة للتو... هل سيمر سيف عليها فعلًا!؟؟ أسرعت ترتدي ملابسها على عجل... وركضت للشرفة تتطلع للطريق بلهفة مشتاق، وظلت واقفة بانتظاره حتى لمحت سيارته من بعيد... نزلت بسرعة تتسابق قدماها مع بعضهما من سيصل إليه أولًا. فجأة تعثرت قدمها في آخر درجة وسقطت... سمع صرختها وهو يتوقف أمام البوابة... ترك سيارته وأسرع إليها، ليجدها مكومة على الأرض تئن بتوجع... وقف على رأسها يسألها بقلق دون أن يقترب:
«معالي... انتي بخير؟؟»
حاولت رفع جسدها، ومهانة فظيعة تكسوها غمرت على شعورها بالألم:
«أنا بخير مصابنيش حاجة... عاود يا سيف معايزاش أروح معاك»
«ليه؟؟»
تحركت بصعوبة لتدرك أنها ربما كسرت قدمها من شدة ما تعانيه من ألم، هتفت وهي تكز على أسنانها:
«مش عاوزة وخلاص يا سيف هو تحجيج!؟؟»
ركع على ركبتيه أمامها يسألها بنبرة رقيقة:

« لساتك بتكابري يا بت الرحايمة!؟ حتى الوچـع معاوزاش تنخي لـچبروته!؟»
بأنين متأوهة:
«معايزاش تشفج عليا.. آني معالي... وهفضل طول عمري معالي»
بنبرة متجهمة هتف بمرارة:
«انتي متستحجيش حتى الشفجة خصوصي مني، وانتي خابرة»
هتفت بأنين أشبه بالصراخ:
«إيوه يا سيف خابرة... ونفسي أعتر على الطريجة اللي أكفر بيها عن ذنبي.. ملجياش غير إني أموّت حالي»
«أعوذ بالله... أنا هجولك على طريجة... بس نروح المشتشفى الأول... نشوفوا عملتي إيه في رچـلك دي»
نظرت ليده الممدودة بارتياب:
«يعني إيه هتشوف عملت إيه»
«لا هعمل كتيييير جوي... عشان أرضى عليكي لازمن تكوني صاغ سليم... يعني لا رجل مكسورة ولا لسان طويل ولا....»
انهمرت دموعها كالسيل:
«ولا إيه تاني يا سيف بيه؟؟»
سألها وهو يمد إصبعه ليتلقى إحدى دمعاتها الحارة:
«دموع دي يا معالي!؟ معجولة!؟ انتي مبكتيش لما سجّطي ولدي!»
أغمضت عينيها بقوة تعتصرهما، وصرخت بوجع:
«لو كت جاصد تزود عذابي لما تفكرني... اطمن أنا منسيتش اللي حوصل.. زي ما يكون ربنا حرّم عليا الراحة من اليوم الشوم ده... ولا ليلة حطيت راسي أنام وچاني النوم... بحلم بيه يا سيف بين دراعاتي شايلاه يبكي... وجبل ما ألهمه صدري يسد چـوعه، يوجع مني ومبلحجوش... كل ليلة... بعيش نفس الكابوس...

انت ابنك ضاع منك مرة واحدة. وأنا بيضيع مني كل ليلة... عارف يعني إيه كل ليلة بتحسر على ولدي وهو بيضيع مني!؟»

أخرج تنهيدة طويلة من بين زفراته، ليجد نفسه يمسك برأسها ويضمه لصدره يهدهدها، بعد أن مزق نحيبها تلك الطبقة الواقية التي يحيط بها قلبه القاسي.

«هاتي يدك في يدي يا معالي»

رفعت رأسها بلهفة تتطلع لعينيه... ومن بين نشيجها وجدت سلامًا يمر من خلال وميضه إليها ليهدهد قلبها الموتور... وضعت يدها بين يديه بحذر خوفًا أن تبدد سحر اللحظة وهو يساعدها في الوقوف... نظر بتسلية لملامحها المتألمة، فلم تتمالك نفسها من نظرة التسلية في عينيه: «إيه اللي بيضحك في شكلي!؟؟»

«هجولك بعدين»

لم يدرِ ما أصابه، ولكن رؤية معالي في هذه الحالة من الضعف، حولت إحساسه نحوها من النقيض للنقيض... لأول مرة يراها كأنثى حقيقية... يمكن أن تتألم أو تبكي... وإحساسها بالذنب يتلوى في جرحها الدامي أنزل صقيعًا بردّ بعض غضبه منها.

❂❂❂❂❂

انتهى الطبيب من تضميد قدمها:

«اطمئنوا مفيش أي كسر... مجرد التواء بسيط... تقدر تاخد المدام وتروحها... الدوا دا في حالة الوجع فقط... حباية واحدة بس... يا عمدة»

أزاح عينيه عن عيني معالي يجلي حلقه بخشونة:

«إيوه... إيوه يا داكتور... يعني مفيش كسر صوح؟؟ طب ولسانها لساته بحاله؟؟»



مر أسبوع آخر... سمح لها الطبيب أن تتواجد معه في كل وقت؛ ربما ساعده صوتها للخروج من الغيبوبة، كانت تمسك بيده وتشرد معه تحاول جره لعالمها... حتى مشكلتها الصحية أخبرته عنها... لم تترك شاردة وواردة إلا أخبرته بها... خاصةً آخر الأخبار... سمحة أنجبت رشاد، وجاسر يكاد يطير به من الفرحة... واليوم حفل سبوع الطفل ولكنهم قرروا تأجيله حتى يقوم رافع بالسلامة.... سيف رد معالي... لم يسامحها تمامًا... فقد سمع نصيحة أمه أخيراً، وقرر عقابها بعد أن يردها لعصمته... انتشت معالي بالفرحة العارمة وهو يخبرها بما ينتظرها من عقاب؛ فهذا السيف البتار ليس الرجل العبوس الذي تزوجته... حتى وهو يهددها بالعقاب كانت عيناه تومضان بالحب.

جاء خبر حمل فريدة مقيّد الفرحة، لم تستطع أن تعلن عنه إلا لزوجها الحبيب، وزينة لعلها تفرج عنها بعض همها.

وضعت جبينها على يده لتتساقط عليها دموعها: «رافع... كل الجوازات أخدوا فرصة تانية وكملوا حكايتهم... وإحنا لسة... انت وحشتني أوي... أكتر بكتير لما كنت غايب عني ويفرق بينا بحور»

لمسة على شعرها سمرتها في مكانها، ولم تجرؤ حتى على رفع وجهها لتراه... ولكن صوته دفع الدموع لتتفجر من عينيها: «ناريسا»

وضعت يديها على فمها لتمنع ضحكاتها، دموعها تنهمر لا تصدق أنه يفتح عينيه فعلًا وينظر لها:

«انت.... انت بجد.... رافع... انت صحيت!!؟؟»

أمسكت يده وأخذت تقبلها، بينما ابتسامة مجهدة ترتسم على شفتيه، ثم انتفضت واقفة:

« انت صحيت فعلًا!! أنا لازم أبلغهم كلهم!»

أمسك يدها ليوقفها، بصوت متحشرج بالكاد مسموع:

«استني عندك... خليني أملّي عينيا بيكي... صوتك كان معايا كتير ومكنتش قادر أشوفك»

«يعني إيه صوتي كان معاك!!؟انت كنت سامعني!؟؟»

«كان صوتك عالي أوي... صعب إني مسمعوش... بأمارة فريدة اللي رجعت، وسمحة اللي ولدت، و....»

تراجعت، ولكنه لم يسمح لها مرة أخرى، وهو يعيدها بقربه متمتمًا بنبرة عتاب، وبحر من الشوق يموج به ليل عينيه: «وقلبك اللي بيوجعك»

«رافع أنا....»

قاطعها دخول الطبيب يكشف على مؤشراته الحيوية... سرى الخبر كالنار في الهشيم، وفي ثوان امتلأت غرفته بكل أهله، تتداخل أحاديثهم في صوت واحد معبراً عن فرحتهم بعودته، ولكنه لم يسمعهم ولم يرهم... لم تر عيناه سواها، تقف بآخر زاوية في الغرفة تتيح لهم الترحيب بعودته... ثم تركته وغادرت بإطراقة كسيرة.

لقد عاد رافع، وعاد كل شيء كما كان... هل سمع منها كل اعترافاتها فعلًا؟؟ أغمضت عينيها أخيراً، وقلبها الموجوع مثقل بالهموم.

طرقت الممرضة على بابها:

«مدام زينة... رافع بيه طلبك أكتر من مرة»

«حاضر... أهله روحوا؟؟»

«أيوه يا مدام... كلهم روحوا... حمدلله على سلامته»

دخلت مطرقة.

«إيه يا زينة معايزاش تشوفيني؟؟»

«انت زعلان مني أوي كده!؟؟ لما بتقلب صعيدي بعرف إنك زعلان»

«جربي چـاري... وأنا أجولك»

بخطوات بطيئة للغاية حتى وصلت له، أمسك يدها ليقربها أكثر.

«عارفة ليه جلبت صعيدي زي ما بتجولي!؟ عشان عاوز أعشجك بالصعيدي... عشج الصعايدة واعر، وأنا حابب أعشجك بالصعيدي»
شهقت مذهولة: «رافع انت بتقول إيه!؟؟»
تمتم بنظرات عاتبة:
«زي ما سمعتي... اللعبة الخيبانة اللي لعبتيها حسابك معايا عسير عليها... ليكي حج تخجلي... يا مجنونة فيه واحدة تعمل عملتك دي!!؟»
«كنت هقولك يا رافع بس انت سبقت واتهمتني... ونرفزتني»
«أنا صعيدي والصعيدي مبيهملش تاره واصل... هتشوفي معايا يا زينة أيام أسود من جرن الخروب»
ازداد شحوبها، فأطرقت خجلة من مواجهته فتابع: «احكيلي حكاية لوسي من طج طج لسلامو عليكو»
مصدومة سألته:
«وانت عرفت منين!!؟ أنا مجبتش سيرة لوسي خالص وانت في غيبوبة!»
هز رأسه بأسف:
«كان نفسي أعرف منيكي انتي... بس طلعتي جبانة»
«رافع أنا...»
رفع يده يمنعها:
«معايزش أسمع مبررات، انتي كتي هتروّحي نفسك، وتروّحيني معاكي»
أطرقت بخجل:
«أنا آسفة... حاضر هحكيلك كل حاجة»
بعد أن قصت عليه قصة لوسي.... لم يظهر على وجهه أي تأثير، وتابع بنبرة باردة:
«نيجي للموضوع الأهم.... ليه خبيتي عني؟؟ كتي بتعملي عملية لحالك... مكتيش مشتاجة لي أكون جارك!!؟ مكتيش عاوزاني أعرف!؟ فاكرة نفسك ملك حالك!؟ انتي ملكي يا زينة... من أول يوم اتجابلنا فيه... اللي حوصل بعدين كان

تحصيل حاصل عشان تكوني حجي... بتاعتي... متوحشتكيش يا زينة؟؟ مشتجاتيش ليدي تمسك بيدك؟؟ لعيوني تغرج في سما عيونك؟؟»

سالت دموعها وهي تضع يده على وجنتها:

«أوي... أوي يا رافع»

تنهد بقوة ورفع عينيه للسقف:

«انتي عارفة أنا نفسي أعمل إيه دلوك؟؟ أمسكك وأفضل أضربك أضربك لحد ما أشفي غليلي منيكي... وبعدين أخبيكي في صدري، محدش يتطلع لك، ولا أمك وأبوكي لحد ما أموت»

«بعد الشر عنك... بلاش سيرة الموت كفاية اللي حصل لنا!»

«عندك حج... بكفايانا موت ودم»

«فكرك الأمور هتهدى على الوضع دا؟؟»

«طبيعة البني آدم الشر.. هو مجبول عليه... ميجدرش يغير من طبيعته... بس الشر ميعرفش طريج جلب العاشج... لازمن الناس تتعلم تحب بعضيها علشان يجدروا يواچـهوا الشر ويوجّفوه عند حده»

«انت حد جميل أوي يا رافع... أنا آسفة لأني بعدت... بس خفت لو عرفت إن قلبي تعبان، ومش هقدر إني أحقق لك حلمك إنك تكون أب...»

«للدرچـة دي شايفاني راچـل عويل!!؟»

«انت رجل صعيدي... المجتمع كله بيفكر بطريقة قدماء المصريين... ومكنتش أعرفك»

«وعرفتيني دلوك؟؟»

«أيوه يا رافع... عرفتك لما جيت فرنسا مش علشاني... علشان تنقذ أهلك وأهلي من بحور الدم»

«يمكن كانت حـچـة، ولّا مخطرش في راسك الأنشف من حـچـر الطاحونة ده؟»

«بمنظرك اللي دخلت بيه عندي مكانش ممكن أفكر بأي طريقة تانية»

«عاوزاني لما أسافر لمرتي آخر بلاد الخواجات، وألاجي راجل غريب بيفتحلي الباب، أعمل إيه يعني آخده بالأحضان!؟ لا وإيه.... وبتها بتناديه بابا!!»
صححت معلومته ضاحكة:«دادا»
زمجر حانقًا:
«زينة... عاوزة تطلّعي عفاريتي مرة تانية!؟»
«لأ خليهم الله يخليك... اقفل عليهم القمقم اوعى تطلعهم»
«طلباتك أوامر يا زينة جلبي، جوليلي عاوزة تجضي شهر العسل فين؟؟»
«إيه دا!!؟ انتم عندكم في الصعيد بتعرفوا شهر العسل كمان؟؟»
«لأ طبعًا.. دا عرض خاص لناريسا... شيطانتي الحمرا المغوية، بس ميتكررش كتير على فكرة.. ممكن تاخدي العرض أو تتخلي عنه لغيرك»
سألته بتشوش: «مين قصدك؟؟»
«مرتي التانية طبعًا... مش انتي شايفاني رجل صعيدي من قدماء المصريين!؟ يعني يحج لي مثنى وثلاث ورباع، وما ملكت أيماني»
زمجرت بغيظ:
«رافع... متطلعش عفاريتي!»
«انتي كمان عندك عفاريت!؟ ما شاء الله! متوقع عيالنا هيكونوا مجانين بالوراثة»
بهتت:«عيالنا!؟؟»
«أمال انتي فاكرة إيه!؟إيوه أنا وعدت إني مهملش تاري واصل... بس أوعدك إنك لما تدوجي عقابي الزوجي اللذيذ، هتطلبيه كل يوم... لحد ما نجيب للوسي أخوها وأختها كمان، طبعًا لما صحتك تسمح»
رددت ببلاهة: «لوسي!؟؟»
«أيوه طبعًا.. انتي بعقلك الجميل دا فكرتي إني ممكن هخليكي تستولي على فضل كفالة يتيم لوحدك!؟ مخابرش إنك أنانية للدرجة دي»

«بس يا رافع... انت... انت مش ممكن تعمل حاجة زي كده!!»
«ليه إن شاء الله!؟»
«لأنك مش ممكن تكون أروع ولا أجمل مما انت فعلًا... انت كتير عليا وأنا مستحقكش.. أنا السبب في كل اللي حصل و....»
انتحبت بنشيج، فجذبها ليضمها على صدره يمسد شعرها:
«انتي عبيطة وهبلة... بس بموت فيكي... چاتني فكرة في أول مكان هنروحه في شهر العسل... بس هي أمك ترضى تاخد لوسي عندها كام يوم؟؟»
«ماما مجنونة بلوسي... أكيد مش هترفض... بس انت بتفكر في إيه؟؟»
«هتعرفي في وجته... الدكتور كتبلي على خروچ بكرة... وبكرة هيكون أول يوم في حياتنا مع بعض... وفي حياة كل الرحايمة والبداري»

۞۞۞۞۞

معصوبة العينين سارت بخطوات حثيثة، متمسكة بحبل أمانها الوحيد (يده) يجذبها بحذر، ويحوطها بحمايته التي أبعدت الخوف عنها تمامًا؛ فثقتها به بلا حدود، ولكن التلهف والفضول تسيدا مشاعرها:
«رافع... انت هتوديني على فين؟؟»
«وانتي مستعجلة ليه!؟ اصبري»
حاولت الاعتماد على حاسة الشم.... ولكن من فرط توترها تعطلت الحاسة تمامًا.. فجأة وجدت نفسها تطير في الهواء، لتستقر بين ذراعيه. تشبثت بعنقه:«رافع... انت هتعمل فيا إيه؟؟»
لم يرد عليها حتى وضعها بحرص على أريكة خشبية متأرجحة، وكأنها...
رفعت العصبة عن عينيها محملقة فيما حولها... الماء يحيطها من كل جانب، ورافع أمامها يشمر عن أكمامه ويجدف بمجدافي الفلوكة.
تمسكت بمقعدها برعب:
«رافع، دي الفلوكة اللي غرقت بينا؟؟»

«أيوه»
ازدردت ريقها بصعوبة:
«انت مش خايف لتغرق تاني؟؟»
«انتي خايفة وأنا معاكي؟؟»
تلفتت حولها بارتياب:
«لأ بس... آخر مرة كانت تجربة...»
أوقف التجديف ليقترب منها، ويمسك بيديها بين يديه: «ناريسا.... بصي بعيوني... ناريستي»
أجبرت عينيها لتنسلخ عن منظر المياه الزرقاء حولها، وتنزل في عمق عينيه بدون حبل نجاة.
«وأنا معاكي إوعك تخافي من أي حاجـة واصل»
هزت رأسها بحذر... وقف ليزداد تأرجح المركب، أمسك بيدها ولم يفلتها، يوقفها أمامه، وأحاطها بذراعيه:
«اهدي واطمني... ماشي»
بتردد مختلسة النظر للمياه الزرقاء حولها من جميع الجهات:«أوك رافع... بس؟؟»
«زين... فاكرة لما جلتلك إني مش ههمل تاري منيكي؟؟»
سألته بارتياب:«وليه بتقول كده دلوقتي!؟؟»
«علشان أقولك إني هبدأ شهر العسل دلوقتي حالًا... بس امسكي فيا زين»
تأملته بارتياب يُخرج تليفونه من جيب جلبابه ويضعه جانبًا.
اخترقت صرختها القوية السحاب المنتف في بساط من اللون الأزرق... وهو يحيط جسدها بذراعيه ويقفز بها في النيل... لم يتركها كما وعدها... فتحت عينيها بصعوبة تسعل وتبصق الماء، وتحاول إبعاد الشعر عن وجهها لاهثة بصراخ يقاطعه قهقهاته المتسلية: «انت.... انت مجنون!»

« عمري ما خطر ببالي أني أعشج نار، تحرجني، تكويني، وأنا كامشها بين دراعاتي، كل لحظة عشجي ليها بيزيد، ومش طالب مية تطفي حريجي»
أحاطت عنقه بذراعيها بقوة لاهثة، لا تصدق ما فعله للتو... أخذت تشهق بشهقات متتابعة وهو يقهقه ضاحكًا:
«انت مبسوط؟؟»
«وانتي معايا»
«رافع»
«عيون رافع وجلب رافع وعذاب رافع سنين طويلة»
«اوعى أغرق»
«اوعي ما تغرقيش»
احمرت بخجل، وهو يقترب بوجهه حتى كادت شفاهما أن تتلامس. عندما قطع لحظتهما الرومانسية رنين تليفونه... لم يتحرك من مكانه، فسألته:
«مش هنطلع من المية دي؟؟ تليفونك بيرن»
غارقاً بين أمواجها الزرقاء، هتف بدون أن يحيد عنها:
«خليه يرن... اللي عاوزني هيفوت رسالة»
«بس يا رافع....»
قاطعها صوت سمحة يصرخ من التليفون:
«رافع انت فين؟؟ وفين زينة؟؟ انتم تاجو دلوك تطلجوني من الراچل ده... إلا وجسمًا عظمًا.... اكتله وأخلص منيه... ولّا خلاص انتم غرجانين في العسل وفايتين لي چاسر يبيع ويشتري فيا!؟ زينة... رااااافع.. حد يرد عليا!»
التقت أعينهما من جديد، ومياه النيل تحيط بهما من كل جانب... ثم انطلقا يضحكان... اقتربت منه وهمست: «رافع... أنا بحبك»
شمخ بأنفه بكبرياء:«ما أنا خابر»

❂❂❂❂❂

تمت بحمد الله

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٦ ►

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
ثورة محظورة النشر - ط٢	توثيقي	محمد عبد الغفار
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
انتفاضة العملاق الداخلي	كتاب تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافه الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن